تُراث

torathehc

تراثية ثقافية منوعة تصدر عن هيئة أبوظبي للتراث العدد 299 سبتمبر 2024

الفزعة الإماراتية:
إرث حضاري أصيل

الناقة في ثقافة
الأمثال الشعبية الإماراتية...

«غيث» فزعة إماراتية
تجبر خاطر الإنسانية

ذكريات زمن البدايات:
مشاهد من الإعلام البترولي

فاكهة البيان
الشاعر ربيّع بن ياقوت

البحر وشعراء الإمارات

رحلة الملوك إلى افتتاح قناة السويس 1869

لوز الإمارات بشارة القيظ

التطوُّع في الإمارات.. من المغازعة القَبَلية إلى منظومة عصرية

الفزعة:
روح التكاتف في مجتمع الإمارات

تعتبر «الفزعة» قيمة أساسية نبيلة متجذرة في المجتمع الإماراتي عبر العصور، حيث تُعبّر عن روح التعاون والتضامن الاجتماعي الذي كان ولا يزال جزءاً أساسياً من هوية الشعب الإماراتي. كما تمثل دوراً تطوعياً يعكس التلاحم المجتمعي ويسهم في تماسك المجتمع وقوة ترابطه في مختلف الظروف والمواقف عادية كانت أم استثنائية.

ويتجلى مفهوم الفزعة وأهميتها في الاستجابة الفورية لنداء المساعدة، مما يجسد شكلاً من أشكال التضامن المتبادل بين أفراد المجتمع. وقديماً، لعبت الفزعة دوراً حيوياً في تعزيز الأمن والاستقرار في المجتمعات على مختلف بيئاتها، حيث يتكاتف الأفراد لمواجهة التحديات المشتركة، سواء كانت طبيعية مثل الفيضانات والجفاف، أو اجتماعية مثل الحروب والصراعات، الأمر الذي يعكس قيم النخوة والمروءة والإغاثة التي تتجسد في الاستجابة الفورية لنداء المساعدة. وتكمن أهمية الفزعة في قدرة المجتمع على التكاتف والتعاون لحل المشكلات وتحقيق الأهداف المشتركة، وهي قيمة تتجاوز الجوانب المادية لتشمل الدعم النفسي والعاطفي، مما يعزز أواصر المحبة والتآخي بين الناس. ويحفل تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة بالعديد من الأمثلة على الفزعة التي أظهرها الآباء والأجداد، ما جعلهم حماة للوطن في الجوانب الأمنية والاجتماعية.

وفي المجتمع الإماراتي المعاصر، تظل قيمة الفزعة وثقافة التطوع حاضرة وبقوة، مجسدة روح العطاء من دون مقابل. وتعكس هذه الثقافة التزام الأفراد تجاه مجتمعهم، وقد تطورت بشكل ملحوظ لتصبح جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية للمواطنين والمقيمين على حدٍّ سواء. وتتجلى هذه القيم من خلال العديد من المبادرات والمشاريع التي تنظمها المؤسسات والجهات الرسمية، وتشمل حملات تطوعية تسهم في مختلف المجالات، مثل: التعليم، والصحة، والبيئة. ومن أبرز الأمثلة على ذلك برنامج «تكاتف»، الذي يهدف إلى تشجيع الشباب على المشاركة في الأنشطة التطوعية والمساهمة في التنمية المجتمعية؛ وحملات «إمارات الخير» التي تنظمها مختلف المؤسسات الخيرية في دولة الإمارات العربية المتحدة، وتهدف إلى تقديم المساعدة للفئات المحتاجة داخل الدولة وخارجها. كما تتجلى الفزعة والتطوع بوضوح في استجابة المجتمع الإماراتي للكوارث الطبيعية والأزمات الإنسانية، مثل حملات الإغاثة للمتضررين من الزلازل والفيضانات في الدول الأخرى. وتعكس هذه الجهود مدى وعي الأفراد بأهمية العمل الجماعي وروح التضامن.

ونظراً لأهمية قيمة الفزعة في تراث دولة الإمارات العربية المتحدة واستمرار تجلياتها في المجتمع الإماراتي المعاصر، ومساهمتها في إثراء الهوية الوطنية وتعزيز روح العطاء والتكاتف بين الأجيال المختلفة، جاء اختيارنا لهذا الموضوع ليكون عنواناً لملف العدد، وكلنا أمل بأن تستمتعوا بموضوعاته المتنوعة.

شمسة الظاهري
رئيسة التحرير

هيئة أبوظبي للتراث
Abu Dhabi Heritage Authority
السلسلة التراثية الثقافية
torathehc www.torath.ae

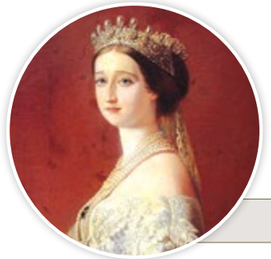

79
ارتياد الآفاق

(رحلة الملوك) إلى افتتاح قناة السويس 1869م

كان افتتاح قناة السويس للملاحة حدثاً عالمياً، وأراد الخديوي الظهور بمظهر العظمة أمام الملوك والأمراء والسفراء، واستدعى سمو الخديوي أيضاً ممثلي الصحافة العالمية، ورجالات العلوم والفنون والتجارة والصناعة، ليشاهدوا احتفالات افتتاح قناة السويس التي لم يسبق لها نظير في العالم في ذلك الوقت، ونجد من بين المدعوين عدداً من السائحين من ألمانيا وروسيا وإسبانيا، وعلماء وفنانين. تطلبت احتفالات افتتاح قناة السويس استعدادات ضخمة وكرّس الخديوي جهوده لتخليد ذكرى إتمام شق خليج السويس، وفتح طريق ملاحي جديد يربط بين الشرق والغرب ... محمد عبد العزيز السقا

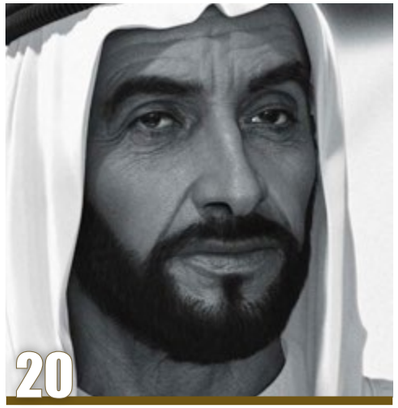

20

58

88
سرد الذاكرة

مشاهد من الإعلام البترولي

إنشاء قسم للإعلام البترولي في الوزارة كان مهمة صعبة؛ إذ لم تكن في المبنى مساحة ولا غرف كافية؛ ففي غرفة واحدة كان يتجمع عدة موظفين، ولم يكن بالإمكان لإدارة الإعلام التي خططت برامجها ونشاطاتها أن تنطلق من مكتب عادي. وقد وجدت الحل المناسب عندما طلبت من معالي الدكتور مانع العتيبة أن أحول جراج سيارته المنفصل عن مبنى الوزارة الرئيس إلى مكتب، ومكتبة، ومكتب للسكرتيرة. وافق معاليه، وخلال أسبوع كان هناك مبنى منفصل عن الوزارة، يحمل لافتة مكتوب عليها «إدارة الإعلام البترولي» ... خليل عيلبوني

72

90
بحوث ودراسات

البحر وشعراء الإمارات

إن البحر باتساعه متنفس للشعراء، وشاطئه أمان واستقرار، وشكوى الشعراء إليه تخفف من وطأة آلامهم وعذاباتهم، وهذا يذكّرنا بشعراء الطبيعة الرومانسيين الأوروبيين - ومعه الصحراء عند الوجدانيين العرب - رمز للأسرار والامتداد والأبد، تتداولهما أحوال من الثورة والهدوء، ومن الكدرة والصفاء ما يمثّل أحوال الناس وتقلّب الوجدان، وفي رحابهما من الجمال والاعتزال ما ينتزع الشاعر من معترك الحياة والناس إلى مجالّي التأمل والاستشراف والذكريات ... قتيبة أحمد المقطرن

90

96

98
جلساء التراث

«الحلواني.. ثُلاثيَّة الفاطميِّين»..
سرد تاريخي مشوق برؤية عصرية

تَقُودنا الكاتبة المصرية «ريم بسيوني» في روايتها «الحلواني.. ثُلاثيَّة الفاطميِّين». إلى جدل الهوية والانتماء، وهذا في سياق غير بعيد عن الحالة العالمية الراهنة، ولكنها لا تذهب بنا بعيداً إلى حيث بداية تشكل القبيلة والشعب والأمة والوطن، أو إلى مولد الحضارات الأولى في مصر، ولو فعلت ذلك لكانت اليوم . دون قصد . تُبْعدنا عن السياق التاريخي الراهن لمصر في بعدها الوطني، وفي أبعادها الأخرى القومية والدينية والعالمية ... خالد عمر بن ققه

110

70 محاورة مع الباب - **عبد الفتاح صبري**

72 لشبونة: مدينة الضوء وسحر التاريخ - **ضياء الدين الحفناوي**

77 الظمأ الأنطلوجي للتعبير على لسان الحيوان - **لولوة المنصوري**

78 غمغمات شاعر - **شعر: الدكتور شهاب غانم**

87 «ألف ليلة وليلة» والتأثير الثقافي العالمي - **حمزة قناوي**

96 ضعف الأندلس وانعكاسه على الفنون - **نورة صابر المزروعي**

109 بِيْدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح
ألفاظُ الحيوان وما دار في فلكه.2 - **محمد فاتح صالح زغل**

110 المرأة والأمثال الشعبية: الإرث والتغيّر - **مريم سلطان المزروعي**

114 لوز الإمارات بشارة القيظ - **موزة سيف المطوع**

116 زينب قندوز غربال:
تراث المدن العتيقة التونسية - **هشام أزكيض**

122 فاكهة البيان
الشاعر ربيّع بن ياقوت - **مريم النقبي**

124 القيظ ومواسم الفرح - **خالد صالح ملكاوي**

129 الثقافة الدينية في شعر فتاة العرب - **وديمة حمود الظاهري**

130 خروفة العنود وتحدي الشيخ حمد - **فاطمة حمد المزروعي**

أسعار البيع

الإمارات العربية المتحدة: 10 دراهم - المملكة العربية السعودية 10 ريالات - الكويت دينار واحد - سلطنة عمان 800 بيسة - مملكة البحرين دينار واحد - اليمن 200 ريال - مصر 5 جنيهات - السودان 250 جنيهاً - لبنان 5000 ليرة - سورية 100 ليرة - المملكة الأردنية الهاشمية ديناران - العراق 2500 دينار - فلسطين ديناران - المملكة المغربية 20 درهماً - الجماهيرية الليبية 4 دنانير - الجمهورية التونسية ديناران - بريطانيا 3 جنيهات - سويسرا 7 فرنكات - دول الاتحاد الأوروبي 4 يورو - الولايات المتحدة الأمريكية وكندا 5 دولارات.

ما ورد في هذا العدد يعبر عن آراء الكتاب ولا يعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو هيئة أبوظبي للتراث

103

تراث النغم

عودة إلى الزمن الجميل

يظهر، أوّل ما يظهر، في النصوص البرعميّة للكتابة المسماريّة أو الجداريّة أو على أوراق البردي وغيرها، أعني هذه النصوص، فيما يسمّى بـ«عصور ما قبل التاريخ»: أنّ قسماً كبيراً من هذه النصوص ليست إلّا بُكائيّاتٍ على ماضٍ يحنّون إليه أقدم من زمنهم. بل إنّ بعض منحوتات الكهوف، ليست إلّا محاولةً لتوثيق بكاءٍ على الأجداد العظماء الّذين لم يأتِ بعدهم مثلهم. ووثّقت حضارات...نصوص مغنّاةٍ تحمل نفس المعنى، نصوص كانت تُغنّى في المعابد، تعتذر لمختلف الآلهة عن تقصير هذا الجيل عمّا كان عليه من سبقهم من بأسٍ وقوّة ... مصطفى سعيد

104

دراسات إماراتية

الناقة في ثقافة الأمثال الشعبية الإماراتية

يعد حضور الناقة في المثل الشعبي حضوراً بارزاً، فقد استحضرها الإنسان العربي والإماراتيون بالذات في كافة مناحي تجاربهم وعاداتهم وممارساتهم، وضربوا بها المثل في توجيه النصح، والسخرية والطرفة والتعليق على الوقائع، وفي ذكر العديد من الموضوعات، مستغلين صفاتها وطبائعها لتكون لهم رمزاً كنائياً في أمثالهم السائرة من جهة أوصافِها، وأحوالِ هَدْأَتِها، وحَركتِها، وأصَواتِها، بل وألمها، وراحتها، وفرحها، وحزنها. وها نعود لبحث البروفيسور الصاعدي الماتع، الذي أكد فيه أن علاقة العربي بالإبل، عميقة الجذور، بما يجعلها ركنه الركين سلماً وحرباً، حلاً وترحالاً، سعة وضيقاً ... عائشة الغيص

الاشتراكات

للأفراد داخل دولة الإمارات: 150 درهماً / للأفراد من خارج الدولة: 200 دولار - للمؤسسات داخل الدولة: 150 درهماً / للمؤسسات خارج الدولة 200 دولار.

تراثية ثقافية منوعة

تصدر عن:

هيئة أبوظبي للتراث
Abu Dhabi Heritage Authority

رئيس التحرير
شمسة حمد العبد الظاهري

الإشراف العام
فاطمة مسعود المنصوري
موزة عويص علي الدرعي

الإخراج والتنفيذ
غادة حجاج

سكرتير إداري وشؤون الكتاب
سهى فرج خير
torath@ehcl.ae

التصوير:
- مصطفى شعبان

عناوين المجلة

الإدارة والتحرير:
الإمارات العربية المتحدة - أبوظبي
هاتف: 024456456 - 024092336

ريت البدو من ناس طيّبين

الشاعر علي بن رحمة الشامسي

ريـــت البـــدو مـــن نـــاس طيّبيـــن
وقلوبهـــم للصاحـــب وُســـاع
لـــو زرتهـــم كـــل ساعـــة وحيـــن
تسمـــع بكلمـــة مرحبـــا الســـاع
الضيـــف لـــه معهـــم قوانيـــن
والجـــار لـــه عـــادات وسُنـــاع
فـــي كـــل واجـــب مستعدّيـــن
يـــوم الخـــويْ يشـــرى ولا يبـــاع
علـــى الســـرى والـــدوب ضاريـــن
مـــا همّهـــم دنيـــا ولا طُمـــاع
تفـــرح بهـــم إن يـــوك عانيـــن
يـــوم الخصيـــم يْبـــات مرتـــاع
أهـــل الكـــرم والجـــود باجيـــن
والمـــدح فـــي الطيبيـــن مـــا ضـــاع
رابعتهـــم مـــن ماضـــي سنيـــن
وعرفـــت منهـــم كـــل الأوضـــاع
وصلـــت ويـــن إمـــا مشتيـــن
وبيـــت الشعـــر فـــي راس مطـــلاع
واعـــرف دروب المـــورد منيـــن
مـــا بيـــن رمـــل وسيـــح وقـــاع
واحيدهـــم للضيـــف راعيـــن
محـــروزلـــي ضافـــي بلجنـــاع
لـــو فـــي الدجـــا والنـــاس هيعيـــن
ضيانهـــم تسفـــر فـــي لبقـــاع
والبـــن واصـــوات الفناجيـــن
تسمـــع لهـــا م البعـــد قرقـــاع
وصـــوت الحـــوار وحنـــة الهيـــن
والـــدار خصـــب وموســـم فقـــاع

القصيدة للشاعر علي بن رحمة الشامسي (1930 - 2006)، وهو من مؤسسي برنامج «في أحضان البادية» الذي كان يبث عبر إذاعة صوت الساحل في الشارقة، و«مجلس شعراء القبائل» في تلفزيون دبي أيضاً. يتميز شعره بسهولة الألفاظ وجزالتها، وقد تناول في أعماله جميع أغراض الشعر النبطي. وفي هذه القصيدة، يمدح الشاعر حياة البدو والبادية، ويصف خصالهم؛ فهم أهل كرم وجود، وقناعة، وعزة نفس، يمتازون باتساع قلوبهم، ويرحبون بالضيوف، ويحرصون على أداء الواجب في السراء والضراء.

الفزعة الإماراتية: إرث حضاري أصيل

10 التطوُّع في الإمارات.. من المفازعة القَبَلية إلى منظومة عصرية - خالد صالح ملكاوي
16 الفزعة في الإمارات وآفاقها التراثية وصورتها المعاصرة - أحمد حسين حميدان
20 الفزعة: إرث حضاري أصيل في حياتنا - سرور خليفة الكعبي
23 الفزعة الإماراتية: بين الأصالة والقيم في التراث الشعبي - أحمد عبد القادر الرفاعي
30 «الفزعة» سنع إماراتي وثّقه الشعر النبطي - الأمير كمال فرج
36 الفزعة الإماراتية.. ملحمة تاريخية ملهمة للأجيال القادمة - فاطمة سلطان المزروعي
43 الفزعة في الأدب الإماراتي ... كيف وثّق الإبداع موروثاً قيمياً كان دستور القبائل وقانونها - نشوة أحمد
46 سوسيولوجيا القيم في المجتمع الإماراتي
الفزعة وقيم البطولة والمروءة ونجدة الملهوف
رواية «ساحل الانتقام» نموذجاً - محمد فاتح صالح زغل
48 ثمرة من ثمار ما زرعه «زايد» رائد العطاء والعمل الإنساني
«غيث» فزعة إماراتية تجبر خاطر الإنسانية - أماني إبراهيم ياسين
54 الفزعة.. أيقونة الشعب الإماراتي في التلاحم لمواجهة الأزمات - خالد بن محمد مبارك القاسمي
58 الفزعة والتطوع من السنع الإماراتي الأصيل - محمد نجيب قدورة
62 الفزعة الإماراتية.. أصالة وتراث وتكافل اجتماعي - عبد الرزاق الدرباس
66 الطريق نحو التسامح
الفزعة الإماراتية وطرائق التطوع على الصعيد العالمي - صديق جوهر

التطوُّع في الإمارات..
من المفازعة القَبَلية إلى منظومة عصرية

خالد صالح ملكاوي

رافق العمل التطوعي مجتمع الإمارات منذ قديم الزمان، إذ هو جزء أصيل من تراث هذا المجتمع وإرثه الحضاري، حيث ورثت القبائل الإماراتية، شأنها شأن مختلف القبائل العربية التي عاصرتها أو سبقتها، ثقافة تقوم على قيم الفزعة والتكافل والتعاضد، وعلى الدفاع عن الإنسان وتأكيد حقوقه المشروعة، كما التزمت هذه القبائل بدين حنيف كرَّم الإنسان واحترم حقوقه وإنسانيته ونشَر مبادئ العدل والمساواة، ما هيَّأ لقيام مؤسسات تنظم العمل التطوعي، وتشكل نواة لمنظومة عصرية للعمل التطوعي القائم على التخصصية والنوعية جعلت هذا الميدان في الإمارات يأخذ مكانة عالمية متقدمة في خدمة التنمية والسلام في العالم أجمع. فالفزعة والتطوع من القيم الأساسية في تاريخ الإمارات، إذ إن بُنية مجتمع الإمارات قائمة على التكافل والتعاون منذ ما قبل اكتشاف النفط، فكانت البيئة مهيأة وطبيعية لقيام مؤسسات رسمية ترعى قيم الفزعة وكوامن بذارها، وتنظم العمل التطوعي وتدعم عدداً من فئات المجتمع، ثم جاءت فيما بعد أشكال تنظيمية جعلت من العمل التطوعي أكثر فاعلية وتأثيراً وذلك بتوزيع أدواره واختصاصاته، فقامت مختلف المؤسسات والجمعيات التي تدعم كل منها قطاعاً بعينه من قطاعات المجتمع وفئاته وشرائحه.

حسّ مشترك بالمسؤولية الاجتماعية

وتعكس الصلات الاجتماعية القوية والحيوية واقعها في نسيج المجتمع الإماراتي تماسكاً وحيوية، وتجسّد معاني الترابط بين المواطنين بروح يسودها الود والانفتاح تجاه الجميع، فيسهم الإماراتيون في المشهد الاجتماعي النشط الذي يوفّر الحيوية للمجتمعات المحلية، بتكافلهم واحتضانهم الفئات كافة لضمان اندماجهم في مجتمع متوادٍّ متضامن، كما تنمّي المبادرات الأصيلة والأعمال الخيرية والأنشطة التطوعية حسّاً مشتركاً بالوعي والمسؤولية الاجتماعية، وتعزز قيم العدل والمساواة وروح التضامن في ثقافة المجتمع.

فقد اتَّسم المجتمع الإماراتي خلال مرحلة ما قبل اكتشاف النفط وبناء مؤسسات الدولة الحديثة، بتكوين اجتماعي ذي طابع قبلي مرتبط بحياة البداوة والصحراء، وما ارتبط بذلك من الكفاف الاقتصادي وندرة الموارد، حيث كانت تسود المجتمع السمات التقليدية مثل سيطرة العلاقات القبلية، والسلطة الأبوية، والخضوع التام لسلطة العادات والتقاليد. ولقد أفضت هذه السمات إلى أن تصبح القبيلة بمنزلة محور ارتكاز التكوين الاجتماعي الاقتصادي برمته، بل كانت القبيلة تمثل مجتمعاً مدنياً قائماً بذاته، فهي التي تدافع عن مصالح أفرادها، وتحقق لهم الترابط والتضامن الذي كان يتخذ صيغة المفازعة الاجتماعية والسياسية.

غير أن هذا التكوين الاجتماعي الاقتصادي ذي الطابع القبلي مرَّ بتغيرات جذرية بعد اكتشاف النفط والانتقال من اقتصاد الندرة إلى اقتصاد الوفرة، وما واكب ذلك من ثورة تحديثية طالت البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية كافة، حيث قاد ذلك إلى الانتقال من مرحلة القبيلة إلى مرحلة الدولة الحديثة ذات المؤسسات، وما ترتب على ذلك من تفكيك مؤسسات المجتمع التقليدي، وبناء مؤسسات الدولة الحديثة، وبروز الدور المحوري للدولة في عمليات التحول الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فيما أفضت مجمل التغيرات التي واكبت هذه الثورة التحديثية إلى قيام وازدهار المنظمات التي تشكّل أساس المجتمع المدني الذي عماده التطوع.

لقد استمر عمل الخير والتكافل الاجتماعي يمثل ركناً ركيناً من دعائم المجتمع الإماراتي، وهو الذي ساعد الإماراتيين على الاستمرار والصمود في وجه الصعاب التي واجهتهم قبل اكتشاف النفط والتنعّم بعائداته، وقد كرَّست القيادة هذه الروح الإنسانية في سياساتها ونهج حكمها، وعبر اتصالها وتواصلها مع أبناء شعبها، ومن خلال دواوينها المفتوحة لمساعدة كل محتاج أو ملهوف. وقصة بناء فلج الصاروج في العين الذي كلف الكثير من الجهد والوقت تشهد على واحدة من صور الفزعة المجتمعية، حين هبَّ الأهالي وعلى رأسهم المغفورله - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - للمساعدة في المشروع الذي بدأ العمل فيه منذ عام 1948م، واستغرق بناؤه نحو 18 عاماً من الجهد الشاق والعمل المستمر. وتطورت هذه الروح مع تطور المجتمع والدولة ونموهما لتصبح شبكة واسعة ثرية التنوع والخبرة من مؤسسات وجمعيات خيرية وأهلية ومشتركة، تنظم وترعى تلك الروح التي زادت رسوخاً كلما زادت هذه الدولة تقدماً وازدهاراً. وتساوى في حمل هذه الرسالة الإنسانية الخيِّرة كل من المؤسسات الحكومية ومنظمات المجتمع المدني، والمبادرات الأهلية من أبناء هذا الوطن، حتى غدت الإمارات دولة العطاء التي تفزع لكل مستنجد، وتمد يد العون والمساعدة إلى مختلف أرجاء المعمورة.

موروث عريق

يلحظ المتتبع لتاريخ العمل التطوعي والخيري والإنساني في الحضارة العربية والإسلامية أن العمل الأهلي غير الحكومي لم يكن غريباً عن المجتمعات العربية والإسلامية، فقد عرف العرب قبل الإسلام أشكالاً مبكّرة للتجمعات الأهلية غير الحكومية من خلال ظاهرة التجمع الخيري التي كانت تأخذ أشكالاً متنوعة، فرأينا لديهم صوراً متعددة للإحسان والرعاية، ومنها: رعاية اليتيم، إذ أقاموا بيوت الأيتام لكل من فقد والده أو توفي أو قُتل في حرب، وكان أشهرها بيت أيتام غطفان. ومع مجيء الإسلام، أسس القرآن الكريم للعمل الإنساني والخيري في آيات عدة، وركز الإسلام على أن العمل الصالح والإحسان فيهما فائدة للذات وفائدة للناس. وفي ذلك يقول المولى عز وجل: «وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ»، وكذلك: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ»، ويقول تعالى: «لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً»، ومن الحديث الشريف: «اصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله، فإن أصبت أهله فهو أهله، وإن لم تصب أهله فأنت أهله».

فليس من الغرابة أن يمثل ما حققته الإمارات في مجال العمل التطوعي الذي يشكّل أساس عمل منظمات المجتمع المدني، وعصب المجتمع نفسه، إنجازاً نوعياً، فقد توافر فيها العنصر البشري التَّواق بثقافته وإرثه الديني إلى التطوع، المتحفّز بقيَمه وسلوكه للمشاركة في المسؤولية المجتمعية، خدمة

لمجتمعه أولاً، ومساندة للإنسان في مجتمعات أخرى ثانياً، ووجدت القيادة التي حملت الدولة إلى مسابقة الدول الكبرى والمتقدمة، فسبقتها في مد يد العون والمشاركة في إنقاذ المجتمعات البشرية دون تمييز، وكذلك حين التقت إرادة الدولة وعزائم مواطنيها على حب الخير وتحقيق التكافل، ونشر المساواة بين البشر.

ولطالما ظل التضامن والتكافل الاجتماعي سمتين أصيلتين من سمات المجتمع الإماراتي، واستمرت الحكومة تعتز بحرصها على الالتزام بروح العطاء التي كرَّسها المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - في المجتمع الإماراتي، فهي

لا تألو جهداً في توفير سبل الدعم والتشجيع كافة للعديد من مبادرات العمل التطوعي وبرامجه التي تنفذها مختلف الجهات الحكومية والخاصة، ولا تتباطأ أبداً في السعي إلى تهيئة جو ملائم للعمل التطوعي على المستويين المحلي والدولي.

ميثاق شرف وثقافة للتطوع

وفي ظل حالة الانفتاح المعرفي بين المجتمعات المختلفة، برزت للعمل التطوعي قيم، وأصبحت هناك حاجة ملحَّة لاكتساب أخلاقيات تحكم العمل التطوعي، حتى يكون بمنأى عن الشبهات، وحتى تتضح الفروق بينه وبين العمل الدعائي،

فغدا للعمل التطوعي مواثيقه التي تحدد أداء العاملين وتوجههم في مجاله. وتصاعد الاهتمام العالمي بأخلاقيات العمل التطوعي، وصار هناك ما يعرف بميثاق الشرف الأخلاقي للمنظمات التطوعية أو للمتطوعين، وهو نظام أو مدونة لسلوك هذه المنظمات، تحدد وتوجه وترشد أداء هذه المنظمات في علاقتها بالفئات المستهدفة بعضها ببعض، وفي علاقتها بالحكومات والداعمين والرأي العام، وبما يتفق مع طبيعة المجتمع المدني غير الربحية والطوعية وذات النفع العام.

ولأن المتطوعين هم عماد العمل ومصدر الحيوية، فقد أضحت الجهود تتجه نحو بناء ثقافة للتطوع، وتهيئة البيئة

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لإفراز متطوعين، سواء من المنظور الكمي أو من المنظور الكيفي، يسهمون بشكل أكثر فعالية في التعامل مع تحديات التنمية البشرية، حيث هناك علاقة ارتباط إيجابية بين التطوع من ناحية، ومؤشرات التنمية البشرية من ناحية أخرى، إذ تُعَرَّف ثقافة التطوع على أنها مجموعة من القيم والمعتقدات والاتجاهات والمعرفة التي تشكّل وعي الإنسان وسلوكه إزاء الآخرين وإزاء المجتمع كله، لكي يخصص الوقت والجهد دون توقُّع عائد مادي، لتحقيق منفعة للمجتمع جميعه، أو لبعض الفئات المحتاجة المهمشة، وذلك بشكل إرادي ومن دون إجبار. ولا نجانب الصواب إن قلنا إن الإمارات اليوم وكأنما هي تمثل وحدة طوارئ دولية خاصة مدرَّبة ومجهَّزة ومهيَّأة بتخصصات عدة لإغاثة المنكوبين والمحتاجين ومعالجتهم ومساعدتهم في مختلف مناطق العالم، وهي كذلك كأنما تُعَدُّ أكاديمية تطبيقية رائدة في تأهيل كوادر المتطوعين الإماراتيين لخدمة مجالات التنمية المختلفة في المجتمع الإماراتي، وللمساعدة في دفع مسارات التنمية في مجتمعات تحتاجها في بقاع مختلفة من المعمورة، حيث قطعت شوطاً كبيراً ومتقدماً في مجال العمل التطوعي الذي تنوعت ميادينه وأوجه نشاطاته لتشمل مختلف مجالات التنمية، واتسع نطاقه ليصل في ساحات عمله إلى بقاع مختلفة من هذا العالم. واليوم، بات قطاع العمل التطوعي يمثل أحد أسرع القطاعات الاجتماعية التي تُحدث حراكاً إيجابياً واسعاً في المجتمع الإماراتي، حيث توسَّع هذا القطاع على مدى السنوات القليلة الماضية بمعدلات نمو متسارعة، نتيجة للنمو السكاني المتسارع، وما نتج عن ذلك من الحاجة المتنامية إلى زيادة مشاركة أفراد المجتمع، بمختلف فئاتهم وتخصصاتهم، بالمساهمة في تنفيذ الكثير من البرامج والأنشطة الاجتماعية التي تدعم قضايا المجتمع، حيث يحظى العمل التطوعي، بشكليه المؤسسي والفردي، بأهمية كبيرة، ويلعب دوراً ملحوظاً في إحداث تغييرات مهمة في طريقة حياة الناس، عن طريق مساهمته في تلبية حاجات المجتمع، والتخفيف من معاناة الآلاف من المحتاجين خارج الدولة.

جهات تطوعية لخدمة نوعية

من الجليّ تماماً أن الاهتمام بالعمل المجتمعي ارتبط ارتباطاً مضطرداً بتطور المجتمع الإماراتي وتنامي الحاجة إلى أدوار المجتمع المدني، فشهدت المشاركة في المسؤولية المجتمعية ازدياداً في أهميتها بشكل ملحوظ، تماشى مع النمو المتزايد للمجتمع الإماراتي، ومع التنوع والخصائص الدولية التي يحظى بها، في ظل الاهتمام المتزايد بالعمل التطوعي، وأصبح البحث عن سبل التطوع ودعم القضايا المجتمعية أسهل من أي وقت مضى. وبفضل الجهود التي تبذلها الجهات الرائدة في ميدان العمل التطوعي في الإمارات، والدعم الذي تقدمه العديد من الجهات الحكومية للمشروعات المجتمعية من خلال التمويل والاستشارات والتدريب، ازدهر قطاع التطوع بشكل كبير، ونما وتنوعت أعماله وتخصصت، مما ساعد على تخريج جيل مؤهل من المتطوعين القادرين على تلبية الاحتياجات المختلفة للمجتمع. لقد وعت الإمارات مبكراً للاحتياجات الحديثة والمتواصلة للمجتمعات، ورغبت في أن تكون لها الريادة في خدمة بعض الاحتياجات، والتميز في خدمة أخرى، فاستندت إلى ذخيرة المجتمع من المتطوعين ووفَّرت لهم كل السبل لتأهيلهم نوعياً بما يحقق غناها ويلبي الاحتياجات الإنسانية القائمة، وذلك عبر منظومة عريضة من الجهات التطوعية. وقد تكون هيئة الهلال الأحمر الإماراتي أعرق الجهات التطوعية وأوسعها في الدولة، وتتوزع أدوار المتطوعين فيها على ثلاث فئات: فئة الهلال الطلابي التي تشمل طلبة وطالبات المرحلة الابتدائية إلى المرحلة الثانوية، وفئة الهلال الجامعي التي تتكون من طلبة وطالبات الكليات والمعاهد والجامعات، وكذلك فئة المتطوعين التي تضم جميع أفراد المجتمع. وثمة العديد من الهيئات التي يزخر بها تاريخ هذه الدولة في العمل التطوعي؛ مثل أكاديمية الإمارات للتطوع، مجموعة فزعة، برنامج تم التطوعي، برنامج تكاتف للتطوع الاجتماعي، مبادرة زايد العطاء، هيئة الأعمال الخيرية، مؤسسة نهتم للمسؤولية الاجتماعية، مؤسسة الإمارات لتنمية الشباب، المستشفى الإماراتي الإنساني العالمي المتنقل (علاج)، والشرطة المجتمعية في أبوظبي ■

إعلامي مقيم في الإمارات

المصادر والمراجع

(1) القرآن الكريم: سورة البقرة: الآية 272. سورة فصلت: الآية 46. سورة النساء: الآية 114.

(2) الأفلاج أقدم تكنولوجيا للري، حمدي نصر، مجلة تراث، أبوظبي، نادي تراث الإمارات، عدد 3، فبراير 1999م.

(3) تأثير العولمة على الخير العربي، سري ناصر، موقع مركز التميز للمنظمات غير الحكومية، 2002. http://www.ngoce.org

(4) تقرير الأهداف الإنمائية للألفية لدولة الإمارات العربية المتحدة، التقرير الثالث 2011، أبوظبي: المركز الوطني للإحصاء، 2012م.

(5) التنمية البشرية في دولة الإمارات (1971 – 1994)، موزة غباش، أبوظبي، المجمع الثقافي، 1996م.

(6) ثقافة التطوع، أماني قنديل، مؤسسة الأميرة العنود الخيرية والقطاع الاجتماعي بالمكتب التنفيذي لمجلس وزراء العمل ووزراء الشؤون الاجتماعية بدول مجلس التعاون، 2009م.

(7) جمع الجوامع للسيوطي ومسند الشهاب للقضاعي.

(8) دليل أخلاقيات العمل التطوعي، أماني قنديل، مؤسسة الأميرة العنود الخيرية والقطاع الاجتماعي بالمكتب التنفيذي لمجلس وزراء العمل ووزراء الشؤون الاجتماعية بدول مجلس التعاون، 2009م.

(9) قوة التطوع، يوسف بن عثمان الحزيم، الرياض: مؤسسة الأميرة العنود الخيرية، 2012م.

(10) المجتمع المدني في الإمارات العربية المتحدة، عبد الخالق عبد الله، وآخرون، الشارقة: جمعية الاجتماعيين، 1995م.

(11) الموقع الإلكتروني لبوابة حكومة أبوظبي. www.abudhabi.ae

(12) الموقع الإلكتروني لوزارة الشؤون الاجتماعية. www.msa.gov.ae

الفزعة في الإمارات
وآفاقها التراثية وصورتها المعاصرة

أحمد حسين حميدان

مازالت الفزعة رغم قِدمها يتردد صداها حتى اليوم وما برحت قيد الإشادة بالكلام وبالفعل والممارسة في الحياة المعاصرة، وهي في الممارسة الفعلية والعملية سمة أصيلة في المجتمع الإماراتي ومِفْصَل رئيسي في تراث أبنائه وسلوكهم ولم تغب عن مشهد تعاملات حياتهم الراهنة، فما هي الفزعة ودلالاتها في اللغة بداية وضمن الواقع المعاش أيضاً؟.

الفزعة بين آفاقها اللغوية وآفاقها السلوكية والعملية..

ما ورد في المعنى الدلالي اللغوي، وما أجمعت عليه المعاجم والقواميس ومن ضمنها لسان العرب[1] أن الفزع من مقاصد معانيه الخوف، وحين يفزع إنسان إلى القوم أي يستغيثهم من خطر أو أمر جلل ألمّ به طلباً لنجدتهم، والفزعة من خلال ذلك لا تتوقف في ضروبها اللغوية عند النجدة والمساعدة، بل تبلغ الإقدام عليها بالفعل والتلبية، وهو ما يقودنا إلى القول بأن الفزعة في شِقّها اللغوي وفي التراث الإماراتي تعني المبادرة والمضي إلى تقديم العون والمساعدة التي انتقلت من جيل إلى آخر حتى أضحت من القيم العربية الإماراتية الأصيلة التي لم تنقطع عن حياة المجتمع الإماراتي وأبنائه الذين مازالوا يفزعون ويهبّون للمساعدة في أوقات الرخاء والشدة مما يقوي الترابط الأسري والاجتماعي بينهم وذلك بعد اتسامهم بروح الفزعة وسلوكها السامي الذي يقوم على التطوع والإيثار والشهامة والكرم والشجاعة.

الفزعة في تراثها المشهود قيم دينية واجتماعية سامية..

الفزعة في تطبيقاتها القيّمة ومعانيها الرفيعة التي اتسمت بها المجموعة والفرد في المجتمع الإماراتي منذ نشوئه وتشكّله لم تأتِ من فراغ، بل كانت وليدة تراث زاخر بالقيم السامية، ووليدة تربية دينية واجتماعية تقوم على الترابط والرفعة، وهو ما يبدو جلياً في الأعراف والتقاليد وفي العديد من السور القرآنية وآياتها الكريمة التي جاء في ذِكرها الحكيم: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:272). ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ (آل عمران:30). ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ* أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (المؤمنون: 60)﴾[2]. وعلى هدي هذه الآيات الكريمة، جاء في الحديث النبوي الشريف:

(من نَفّس عن مؤمن كربةً من كرب الدنيا نَفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) رواه مسلم[3].

من خلال الآيات القرآنية الكريمة السابقة، والحديث النبوي الشريف أيضاً تأتي الدعوة الإلهية والنبوية إلى الإقدام على مساعدة الآخر أي تقديم الفزعة له، وعبر هذه الدعوة ذاتها يتبين أن الإنسان الذي يقوم بالفزعة اتجاه الآخرين فهو يقوم بها لنفسه أيضاً لأنه بالقيام بها سيتبوأ عند ربه مكانة عظيمة وجزاء عظيماً حسناً لأنه بفزعته الكريمة ينتمي إلى الفئة الكريمة الملبية دعوة ربها ورسولها الكريم عليه السلام؛ وفي هذا السياق عينه يتقاطع الكاتب الإماراتي عبد الله عبد الرحمن الحمادي مع هذه الخلاصة، ويلتقي في كتابه (الفزعة قيم التلاحم في المجتمع الإماراتي)[4] مع ما أكدت عليه من حسن شيم المرء المتصف بمبادرة مساعدة الآخرين والتي ينتج عنها إزكاء روح التكافل والتعاون ضمن العلاقات الإنسانية الاجتماعية التي وُصف فيها المجتمع الإماراتي باعتباره قام على هذا التعاون والفزعة والمساعدة التي توقف عندها في كتابه السابق وأكد فيها أن هذه الصفات متأصله فيه منذ القدم، الذي كانت الفزعة بادية عند أفراده بالتعاون الذي يظهروه في مناسبات الأفراح والأحزان سواء في المدينة أو الريف، فكانوا يقدمون السند لبعضهم ولعل أكثر مايتبدى ذلك في مناسبات الزواج التي كانوا من خلالها يسهمون بمبالغ مالية يقدمونها كهدية للعريس وذويه لمشاركتهم في مصاريف الزفاف، وكذلك في حالات المرض والعلاج يسهمون بفزعة مالية لمساعدة

الشخص المريض وأهله في تحمّل تكاليف علاجه وخصوصاً إذا كان يحتاج علاجاً جراحياً ولا يقوى على سداده[5]، وفي حالات الخلافات يتدخل أصحاب المروءة والفضل ويفزعون لفض الخلاف ويكون ذلك حسب طبيعة هذا الخلاف الذي يمكن أن تأخذ الفزعة فيه شكلاً مادياً أو معنوياً حسب طبيعة المشكلة وما يمكن أن يكون قد نشأ فيها من خلاف يتحدد من خلاله شكل ودوافع الفزعة.

الفزعة: أنواع وأشكال متعددة

من خلال ما جاء عليه الخطاب الديني بآياته القرآنية وبأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وما حثت عليه في مرامي آفاقها السلوكية والتربوية، تأخذ الفزعة بما تنطوي عليه من معاني التعاون والنجدة والمساعدة على جوانب حياتية متعددة، ومن ضمن أنواعها:

المساعدات النقدية وتُقَدم عادة للفقراء حسب المواسم والمناسبات والأعياد الدينية، كما يتم تقديمها في أوقات الأزمات والضيق العامة مثل الكوارث أو الأزمات والشدائد الأسرية الخاصة مثل أوقات المرض والوفيات وسواهما. والمساعدات الثانية يمكن أن تكون عينية تشمل ما يحتاجه الإنسان في أوقات الضيق والأزمات فتكون الفزعة في مستلزمات الحياة الضرورية كالطعام والكساء والدواء والمأوى وخصوصاً في أوقات حصول الزلازل والكوارث الطبيعية.

إن الفزعة ونوع المساعدة تحددها نوع الحاجة وتحددها حالة مَن يحتاجها وإذا كان من ميسوري الأوضاع المادية أو من الفقراء، وحسب نوع الأزمة التي وقع فيها إن كانت تتعلق بشخصه وحده أو أن عائلته مشمولة معه بالأزمة التي أصابت حياتهم معاً، وإذا كانت الفزعة ابتدأت على نحو فطري وفردي حتى غدت حالة وتقليداً بين العوائل والأسر، غير أنها في الحياة الحديثة والمعاصرة وما اكتنفها من تطور وما اتصفت به من تعقيدات أسهمت إلى حد كبير في تغيير واقع الحياة وطرق العيش فيها، وهذا التغيير لم تكن الفزعة بعيدة عنه ولم تعد محصورة كما هي صورتها الفردية المتعارف عليها، بل أضيف إليها صورة أوسع وأشمل اتسعت للفرد والجماعة أيضاً وذلك حسبما استجد من جوانب وفدت إلى الحياة المعاصرة جراء التطورات في جوانب مجالاتها المتعددة.

الفزعة من التراث إلى المؤسساتية

الفزعة لم تكن سلوكاً مؤقتاً أو طارئاً في المجتمع الإماراتي، بل هي ركن خيري اجتماعي مرافق لحياة الأفراد والجماعات منذ زمن بعيد حتى أضحت صفة متأصلة لأبناء المجتمع الإماراتي وقيمة سلوكية سامية لأبنائه كما تؤكد دراسات عديدة، وهذه الفزعة لم تبقَ كما كانت عليه في فترتها الماضية والغاربة، بسبب ما اعتراها من تأثر بشكل مباشر من المتغيرات الحاصلة والحاضرة في الحياة الحديثة والمعاصرة جراء التطورات التي شملت جوانب الواقع المتعددة على اختلافها، والفزعة إزاء هذه التغيرات وإزاء هذا التأثر الذي شملها، تباينت فعالياتها في حيز الواقع ومجالاته، فهي في البداية أخذت طابعاً فطرياً وفردياً بلغ أثرها فيه الأقرباء ومحيط الجوار من الناحية الاجتماعية والجغرافية، غير أنها بعد ذلك تجاوزت الحيز الضيق وتطورت إلى صورة أخرى أصبحت فيها أكثر شمولاً وسعة في الحياة المعاصرة التي تقوم على مؤسسات وإمكانيات أكثر وفرة وأقوى من إمكانيات الأفراد، ونستطيع القول إنها رغم هذا التطور الحاصل لم تؤثر سلباً في الفزعة الفردية ولم تلغها، بل أغنتها وأضافت إلى مساعيها وجهودها جهوداً أخرى فأصبحت على عطاء أكبر وأكثر شمولاً وتحولت إلى ما يسمى بالنفع المشترك الذي يتعذر تحقيقه بجهود فردية لأن الانتفاع فيه لم يقتصر على الأفراد وحدهم بل امتد ليشمل الصالح المجتمعي العام وتتم إدارته من منظومة جماعية ومن مؤسسات بعد أن تكبر فيها الفزعة وتتحول إلى مرافق لابد من الإشراف عليها من أصحاب الكفاءة وهو ما أدى في البداية إلى وجود الجمعيات الخيرية ومن خلال ما يأتيها من تبرعات تقدم بالمعونات الخيرية والعلاجية إضافة إلى كفالة الأيتام وفق شروط لا تمانع من خلالها أن يتم ذلك من الأفراد الميسورة أحوالهم المادية بعد موافقة سائر عائلتهم على ذلك إضافة إلى أن تكون العائلة تتمتع بسمعة لا شائبة أخلاقية عليها وعلى سلوكها، إضافة إلى ذلك تطورت فزعة الجمعيات الخيرية لتبلغ إعطاء المعونة لمن يرتاد المشافي ودائم العلاج فيها وفق إثباتات معينة يتم تقديمها إلى إدارة الجمعية، إضافة إلى المساعدة والإشراف على حفر الآبار ذات النفع العام وبناء مصحات ومشافي ومساجد. والإقدام على ذلك له جذور تراثية إذ إن معايير الخير والفزعة والمساعدة فيه تقوم وفق القرآن الكريم على دعامتين ومعيارين أساسيين هما، الشمول، والأفضلية، وفي سياق ذلك يتبدى لنا ما أقامه الرسول الكريم بين المهاجرين والأنصار في المدينة المنورة وفق هاتين الدعامتين، ويضاف على ذلك بناء مسجد في قباء إضافة إلى المسجد النبوي وتجهيز بئر رومة للمنفعة العامة، وضمن سياق هذه المنفعة العامة قدمت الإمارات في فزعتها الجماعية غير إنجاز لم يقف عند المشافي والمساجد والمدارس والجامعات، يل يضاف عليها تأسيس صندوق الزواج الذي بدأ يقدم منحاً مالية لكل مَنْ يعقد العزم على الزواج من الشباب الإماراتي، هذا علاوة على الفزعات والمساعدات المؤسسية لدور الإيواء ومستوصفات العلاج والرعاية الاجتماعية التي تقدم خدماتها للأيتام والعجزة والأرامل وذوي الاحتياجات الخاصة، إضافة إلى العمل التطوعي[6] الذي تتكامل من خلاله الخبرات كما يُنَمي الشعور بالمسؤولية المجتمعية التي يتم عبرها تقاسم الأعمال والمهمات بجهود مشتركة تجسدت فيها الفزعة والمساعدة بروح التعاون فجعلت صورتها زاهية وقوية وذلك بعدما اجتمعت فيها عديد الخبرات التي قامت على الإعداد والتأهيل العملي والنظري والمهني أيضاً ■

كاتب وأديب من سوريا

هوامش وإحالات

(1) لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم، تحقيق عبد الله علي الكبير، دار المعارف، القاهرة.

(2) القرآن الكريم: سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة المؤمنون.

(3) الحديث النبوي الشريف رواه أبو هريرة.

(4) الفزعة قيم التلاحم في المجتمع الإماراتي، عبد الله عبد الرحمن الحمادي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، أبوظبي،2017م.

(5) الفزعة نجدة بلا أرقام وتكاتف في الأفراح والأحزان، ملحق جريدة الخليج الإماراتية، عدد 25 إبريل، الشارقة، 2001م.

(6) الفزعة تعزز مفهوم العمل التطوعي، أمينة صدقي، ملحق جريدة الخليج الإماراتية، عدد 20 مارس، الشارقة، 2015م.

الفزعة:
إرث حضاري أصيل في حياتنا

سرور خليفة الكعبي

احتوى التراث الإماراتي والخليجي والعربي الأصيل بشكل عام، العديد من المعاني والقيم الحياتية التي جسدت عبر الزمن، المعاني الحقيقية لمفهوم الإنسانية الحقة، واحتوى القاموس العربي على مفاهيم شكّلت الهوية العربية الخاصة بين الأمم، ما أكسب الإنسان العربي الاحترام والتقدير من جميع الأمم على هذه الأرض، فكانت هذه المفاهيم التي اعتبرها الإنسان معايير وأساليب حياة، كانت في أمم أخرى أمنيات وتطلعات اجتماعية صعبة المنال. وعلى الرغم من أن الفزع يعني الخوف الشديد والقلق، فإن مفهوم الفزعة الذي نتحدث عنه لا يخلو من الخوف والفزع، غير أنه يكون بخوف الإنسان من التلكؤ والتأخر في تقديم المساعدة لمن يحتاجها في وقتها، لذا فإن هذا الإنسان يسارع في تقديم العون كمسارعة المفزوع الهارب من خوف ما قد يلحقه من لومٍ إنْ تأخر عن تقديم هذه المساعدة، وهو يسمع الشخص (يستفزع) أي يطلب الفزعة ويستنجد.

من هذا المنطلق كانت الفزعة من أساسيات الحياة في بلادنا وتاريخنا وإرثنا الحضاري العريق الذي تناقلته الأجيال، فالفزعة هي الوقوف عند الحاجة وبدون دعوة وبدافع ذاتي إلى جانب ليس من تربطك به عصبة الدم أو النسب فقط، ولكنها النخوة المبذولة لكل من يحتاج العون وفي أشد الأوقات صعوبة أو إلحاحاً، فالمنقطع في الصحراء يحتاج إلى (فزعة) كل من يمكنه المساهمة في البحث عنه ونجدته وإعادته إلى أسرته وإنقاذ حياته، كذلك الغريق والحريق، وكل من يقع بضوائق الدهر التي يعجز عن مواجهتها منفرداً، ومن أجمل الجمل التي يقولها الإنسان الإماراتي في هذا قولهم «افزع خويك»، أي أسرع لتقديم المساعدة له فهو في أمس الحاجة إليها، ومن أجمل المديح قولهم: والنعم بفلان ما قصر فزع لنا، أي قدم مساعدته دون طلب. والفزعة ليست مستحدثة فهي فزعة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم لأصحابه المستضعفين، وكذلك فزعة المعتصم الشهيرة، وفزعة طارق بن زياد، وغيرهم الكثيرون في تاريخنا العربي المشرف، ومن تاريخنا المحلي لا ينسى أهل الإمارات فزعة الشيخ سعيد بن طحنون الأول لأهل ليوا، وفزعته لسلطان عُمان أيضاً، والكثير الكثير غيرها لشيوخنا الكرام وعلى رأسهم باني هذه البلاد ومؤسسها المغفور له- بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - الذي لم يدع زاوية من زوايا هذه البسيطة إلا وكانت له بصمات واضحة من الفزعة التي قدمها للدول والأمم في العالم، ومن أروع الأمثلة فزعته للعرب في حرب عام 1973 بعد أقل من عامين من قيام دولته، فقام بواجبه العروبي والإنساني بالوقوف إلى جانب الحق وتقديم الفزعة لأمته العربية في حربها، في وقت لم يكن لديه ما يمكن تقديمه، فأقدم على الاقتراض لكي يقوم بذلك الواجب، دون أن يعير التهديدات والتحذيرات أي اهتمام أو تردعه عن القيام بما يمليه عليه الواجب والحق، فكانت فزعته مضرب الأمثال وستبقى، وعلى هذا النهج سار أبناؤه من خلفه، الذين لم يتوانوا عن تقديم فزعاتهم التي يُشار إليها بالبنان لكل محتاج في هذا العالم.

وهاهي الفزعة تستمر إرثاً حضارياً وتراثياً وثقافياً على مرّ الأجيال، وليس أجمل من أن يفزع المرء لنصرة بلاده وقيادته ومن يستجير به، وفي عهد قريب من التاريخ الحديث مازلنا نذكر الفزعة الكبرى التي قام بها شباب الوطن جميعهم على مختلف مشاربهم لنصرة الكويت وردّ العدوان عنها، حتى فزع أهل الإمارات لنصرة أهلنا في اليمن، ناهيك عن الفزعة لنصرة الإنسانية في لبنان وكوسوفو وأفغانستان والكثير غيرها من البلدان في العالم، والتي لم تقتصر على الوقفة العسكرية الحازمة فحسب، ولكن امتدت لتشمل تقديم المساعدات الغذائية والدوائية العلاجية، وكذلك الفزعة لضحايا الكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات والأوبئة والأمراض.

إن الفزعة لهي الشرف الكبير الذي يستشعره الكريم في تقديم كل ما يستطيع من عونٍ لنصرة المستضعفين والمحتاجين في ساعة العسرة، وهي البذل الذي يجمع أبناء المجتمع الواحد

في بوتقة ينصهر فيها ليقدم أروع النماذج من البذل والعطاء، ولا يقتصر هذا المنح والعطاء على الأموال والفزعات العينية، ولكن يشمل ذلك الدعم المعنوي الذي قد يكون أكثر تأثيراً من المادي في أحايين كثيرة، لذا فإن الوقوف مع الجار في الشدائد والمحن وكذلك الأفراح والمناسبات السعيده، تكون ذات تأثيرات إيجابية كبيرة تمتد إلى الأجيال القادمة.

وقد نهل أهل بلادي من تراثهم العريق القيم الأصيلة لمبادئ فزعة الملهوف وإغاثة المستضعف ونصرة الحق، كما هي الحال في فزعة الصديق والأخ عند الحاجة وفي حالات الفرح والسعادة والمناسبات السعيدة، وقد ضرب لنا الأولون أروع الأمثلة في الفزعة والوقوف إلى جانب المحتاجين عند اللزوم، فكانوا يتعاونون في الأعمال كلها التي تتطلبها عمليات الزراعة وبناء المنازل والأعراس وكذلك عند الديّات والمطالبات، وعند المصائب كاحتراق المنازل أو غرق المحاصيل بالأمطار وغيرها من الأوضاع الصعبة، فكانوا كالجسد الواحد في مواجهة تلك الأزمات التي تمر بهم. وفي الوقت الماضي كان الناس يعتمدون على بعضهم لتوفير الأمن والحماية ضد إغارة الأعداء عليهم وسلبهم أموالهم، فكانوا يضعون أبراج الحراسة على الطرقات ومداخل المدن والقرى لتحذير الناس من الإغارة والهجوم عليهم، وكانوا يطلقون على مَنْ يطلق الإنذار (مصيّح) حيث يصيح بأعلى صوته أو يطلق النار تحذيراً لهم، كما يطلق الكثير من عبارات طلب الفزعة لصد الهجوم والعدوان.

وفي أيامنا هذه وبتوافر الأمن والأمان، تحوّلت الفزعة إلى تقديم العون للمحتاجين للمساعدات العاجلة، فليس مستغرباً رؤية

> إن الفزعة لهي الشرف الكبير الذي يستشعره الكريم في تقديم كل ما يستطيع من عون لنصرة المستضعفين والمحتاجين في ساعة العسرة، وهي البذل الذي يجمع أبناء المجتمع الواحد في بوتقة ينصهر فيها ليقدم أروع النماذج من البذل والعطاء

الجموع الكبيرة من المتطوعين عند حدوث الأنواء الطبيعية، أو القيام بالأعمال المجتمعية الخاصة بحماية البيئة وتنظيفها، وكذلك المسارعة في المشاركة في حملات التبرع بالدم التي تنظمها الجهات الصحية، باعتبارها من مظاهر الفزعة التي يقدمها عيال زايد لإخوانهم في البلاد، أو المجهودات الطبية في الخارج وتقديمها حسب الاقتضاء والحاجة أينما كانت.

لقد كان هذا المفهوم والقاعدة الحياتية التي تربى عليها الآباء، هي من أكثر السمات التي يفاخر بها أبناء وطني، والتي لا يتنازلون عنها أو يتغيرون عليها، فالمسارعة إلى تقديم العون دون تفكير أو روابط لكل محتاج، ستبقى أبداً سمة عيال زايد الخير ما بقي الليل والنهار، وستبقى الفزعة مصدر الفخر والاعتزاز ■

باحث وكاتب إماراتي

الفزعة الإماراتية:
بين الأصالة والقيم في التراث الشعبي

أحمد عبد القادر الرفاعي

الشعر النبطي صورة صادقة لعادات أهل البلاد وأخلاقهم الأصيلة وتقاليدهم الرفيعة، نستطيع من خلاله التعرف على واقعهم وانتمائهم وهوية سلوكهم وثقافتهم، وهو بالتالي ترجمة لهذه العادات والتقاليد بما تحمله من جذور الأصالة حيث الفخر والكرم والانتماء، وهو مصدر الفضائل والمكارم ومنبعهما، وليس أصدق منه في تصوير القيم المجتمعية ووصف المجتمع بتفاصيله كلها، وليس أوفى منه في حفظ تراث الشعوب وهويتهم المعرفية والفكرية فهو انعكاس لوعي المجتمع ومقومات الوجود من ثقافة ولغة وهوية وانتماء وأخلاق وعادات وغيرها، وقد كانت الفزعة بكل معانيها وأهميتها ظاهرة في الشعر النبطي في الإمارات تعبّر عن القيم النبيلة المتوارثة منذ قديم الزمان والمتأصلة في المجتمع الإماراتي، والتي أسهمت في التكاتف والتعاون والإخاء بين أبناء الشعب الإماراتي، وغرست في نفوس الأجيال الحالية روح النجدة لنصرة المظلوم وتقديم يد العون إلى خارج الدولة لتشمل إخوانهم العرب والمسلمين والأصدقاء في إطار الإنسانية، وقد حمل لنا أدب أهل الإمارات بأشكاله وتجلياته كلها هذه القيمة الأصيلة بأبهى الصور وأجمل العبارات، فالفزعة فضيلة من الفضائل الموروثة في أخلاق الشعب الإماراتي إلى جانب الكرم والسخاء والعطاء والجود والتكافل والتكاتف من أجل نصرة المظلوم وهو ما يبرز قيم الشجاعة وحب الخير للآخرين.

ومع هذا الثراء الاجتماعي في محتوى الشعر النبطي، تمكنت القصيدة من رسم صورة عميقة للعادات والتقاليد والأعراف والشمائل والقيم الروحية في المجتمع الإماراتي على الصعيدين الزماني والمكاني، وإبراز قيم الخير والعدل والحكمة، والحث على التمسك بهذه القيم وخاصة قيم تعاضد المجتمع وتماسكه وتمسكه بأصالته وهو ما يعرف بقيم «الفزعة» وهذا ما نجده في قصيدة للشاعرة «فتاة العرب» تقول فيها:

بالتماسك بينهم إيد بإيد
ما دخل فيهم دخيل ولا لدود
والقعايد لي لهن راي سديد
علمن لاولاد عادات الجدود
علموهم كيف ما ينشي الوليد
نشية الفتيان من صدق وصمود
من تراث وكل تاريخ مجيد
واستحس الطفل نفسه في صعود

الكرم والجود: صور من الفزعة

يقول الشاعر الإماراتي علي بن سلطان بن بخيت العميمي معبراً عن القيم والفضائل في المجتمع الإماراتي واصفاً العادات والتقاليد الأصيلة فيه بما فيها من أمهات الفضائل، وهي الكرم والجود والصدق والحمية:

لوّل يلا من عزم وشام
يطلب سبب رزقه بخصين
والناس في عرشان وخيام
وبيت الشعر في البر بانين

جمعة مسّوي عد ماثور
حق الذي بسيركشّات
ينا وسوّينالة انشور
وعليه عدّلنا بنيّات
يالله عسى تسقيه لمطور
ويعل امطره في كل ساعات

وفي معاني «الفزعة» المتعددة والمتأصلة في المجتمع الإماراتي نجد معاني مماثلة في قصيدة «شرفت ويلا الشرف سايل» للشاعرة موزة بنت جمعة المهيري، حيث جرت العادة أن يجتمع أهل الحي وأن يتفقد بعضهم بعضاً في مختلف الظروف والأحوال، وذات ليلة كان المطر قد هطل غزيراً على غير توقع الناس؛ فما كان من الشاعرة موزة إلا أن خرجت مبكرة في صباح اليوم التالي لتطمئن على جيرانها؛ وأدهشها ما رأت من أمر المطر، فقالت:

شرفت وإيلا الشِرف سايل
وأتحسّبه يْبَري مِ البطاح

وتعلقت الشاعرة موزة المهيري بجيرانها من سكان شرف كواكب، وأحبت فيهم الخصائل العربية الأصيلة وخاصة كرم

يمشون عا خطات وانظام
ع مستوى الحاله ممشين
على الصبر تتقزز أيام
وناس صبرهم طول اسنين
ناس عزاز النفس واكرام
واهل العوايد ناس طيبين
للضيف بالمايوب جدام
وللضيف ساروا مستعدين
وإلهم على الربعه استفهام
كل شي معهم له قوانين
الجار نسعى له على اقدام
ونتعب لجل مرضاته الهين
على الطوي لو يكثر احيام
تلقى الدلايل في المعاطين

وقد تغنت الشاعرة موزة بنت جمعة المهيري بالكثير من العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية في المجتمع الإماراتي ومن هذه العادات نزوع الناس إلى الخير من خلال بنائهم الأمكنة ومراكز الخدمات العامة التي يستفيد منها المسافرون وأبناء السبيل والمتنزهون الذين كانوا يخرجون إلى بعض الوديان. ومن ذلك ما أشارت إليه في إحدى قصائدها من أن أهل الخير كانوا يحفرون الطويان (الآبار) ليرد عليها الناس، والبوش وسائر الحيونات، ومن ذلك ما نظمته أيضاً بمناسبة حفر أحد أحفادها طوياً في قرية غمض، وقد رُفعت الأعلام في الطرق والدروب التي تقود إليه ليستدل الناس عليه، ودعت له بالمطر والسقيا على عادة الشعراء القدماء، تقول:

الضيافة، فقالت في مدحهم والثناء على صنيعهم والدعاء بالسقيا لديارهم:

ايعـــل ذاك الشـــرف سحـــاب
ومـــن السمـــاء يـــا رب هلـــه
لـــي ساكنينـــه عـــرب وأنيـــاب
متحـــذرٍعـــن كـــل خلـــه
ودلالهـــم مـــن صنـــع الأذهـــاب
والبـــن فيهـــن بنعملـــه
وإن ييـــت ضيـــف لا تهـــاب
يديرونـــه فـــي المحلـــه
نـــاس يثنـــون الترحـــاب
يبـــرون روح مستعلّـــه

ويقول الشاعر محمد بن صبيح الفلاسي داعياً إلى صداقة الكرام والتطبع بطباعهم للوصول إلى المكانة العالية:

مـن رابـع الأجـواد يفعـل فعلهـم
وفـلان يعـرف مـن ربعتـه فلانـا
ومن رابـع البخّـال يـومٍ تبخـل
ومـن رابـع الشينيـن لا شـك شانـا
ومـن سـار في درب المعالـي توفـق
واحتـل في روس المعالـي مكانـا

ويمتدح الشاعر خليفة الدرمكي ما ساد المجتمع من صفاء النفوس ونقاء القلوب والتراحم الموصول:

اعصـــور حلـــوة ليـت تنـــدار
وتعيـــد ذاك الوقـــت بالفـــور
يـوم الخـوي مـا فيـه لكـدار
نظيـف قلبـه مـا بـه اكـدور
يـوم الرحـم كـل يـوم ينـزار
واليـوم ع الشهريـن بيـزور

وينقل لنا الشاعر سعيد بن عتيج الهاملي احترامه للمواقف النبيلة وكرم الكرماء الذي كان وراء بعض قصائد المديح التي في حياته. منها قصة مرضه «يقال قرحة في المعدة» ومبادرة خلف العتيبة بأن يرسله على حسابه الخاص إلى البحرين للعلاج. ذلك الموقف بقي في ضمير الهاملي وهو يشرح حالته ويصف الظرف الذي كان عليه أثناء مرضه، وكيف أن العتيبة أنقذه من الموت. في ذلك يقول:

عيبـت مـن همـي ومـن عبراتـي
واشـوف دنيايـه غـدت عبـراتِ
وعينـي تهـل الدمـع مـن عبراتـي
وش ذا الزمـان اللـي كذيـه مسيـره
والحمـد للـه يـوم جينـا صوبـه
لـي سمعتـه عنـد المـلا منصوبـه
عسـى أن لـه عيـن الرضـا منصوبـه
عنـد الـذي مـا مـن إلـه غيـره
شـروى خلـف مـا ريـت مثلـه حـد

الشعر النبطي صورة صادقة لعادات أهل البلاد وأخلاقهم الأصيلة وتقاليدهم الرفيعة، نستطيع من خلاله التعرف على واقعهم وانتمائهم وهوية سلوكهم وثقافتهم، وهو بالتالي ترجمة لهذه العادات والتقاليد بما تحمله من جذور الأصالة حيث الفخر والكرم والانتماء

لـي بالكـرم مـا لـه قيـاس وحـد
يوصـل بعـزم وماضيـات الحـد
يثقـل ومـن ثقلـه يثقّـل غيـره
الفخـر يشريـه الفتـى طايـل البـاع
اللـي على الشـدات مـا بـه ارتياعـي

وفي هذه المقاطع الثلاثة من قصيدة الهاملي يصور معاناته من المرض ومساعدة العتيبة له ويسأل الله أن يجعل أعماله الخيرة في ميزان حسناته، فهو يعطي ويصل المحتاج بل ويثقل له بالعطايا، والأبيات تمثل وصفاً واضحاً لطبيعة الناس المتراحمين في جو من التكافل الاجتماعي المعروف حتى اليوم.

ويقول الشاعر راشد بن محمد بن عبلان الكتبي مصوراً الكرام بصور بيانية جليلة تظهر قدرته على إصابة المعنى والقدرة على التعبير بأبهى المعاني والصور والدلالات:

والايـواد شـروات الأشجـار الظليلـة
وشبـه البواسـق لـي لذيـذ رطبهـا
والانـذال شـروات الاشجـار الهويلـه
لا بهـا ثمـر ولا تنتفـع مـن حطبهـا
والانـذال شـروات الديـار المحيلـه
لـو أنبتـت مـا ترتعـي مـن عشبهـا

ويقول الشاعر مبارك العقيلي وقد أعطى الحق في الفخر والاعتزاز فقط لأصحاب الفزعة والجود والكرم:

درت المـلا م لقيـت للفخـر مبتـاع
مـن حيـث دون الفخـر سـم الأفاعـي
الفخـر مـا يشريـه للمـال جمـاع
حاشـا ولا مـن هـاب يـوم اجتماعـي

الطمع والبخل: تناقض بين العقل والفطرة

ويقول الشاعر راشد بن محمد بن عبلان الكتبي محذراً من البخل وداعياً إلى الكرم:

لا خيـر في مـال تحـت إيـد لبخيـل
ولا ينفـع النـاس البخـالا بخلهـا

ويقول الشاعر ابن محين الشامسي محذراً من الطمع فهو لا يجتمع مع العقل والفطرة السليمة كما لا يجتمع ضدان:

والطمع ضد العقل ما يرث خير مثل ما أنّ العقل ضد اليتان

وفي المعنى ذاته تقول الشاعرة فتاة العرب:

والكـف لـي ينقطـع وش عاد لانسانـي

يعـــود كالطيـــر لـي مالـه جناحيـني

وكذلك يقول الشيخ سعيد بن ثاني آل مكتوم مؤكداً:

مـــا ينثنـــي والعـــود يابـــس

يـــا قابـــض فـي كفـك العـــود

ومـــا ينرجـــي مـــن غيـــر لابـــس

ثـــوب الكـــرم إن كـــان منشـــود

ومـــا ينحـــزم بالصعـــب جالـــس

إن كـــان تنـــوي منـــه مـــردود

وما يصدقـــك بالقـــول هامـــس

إن كـــان يشنـــي غيـــرك بكـــود

ويقول الشاعر راشد الخضر وهو يضرب المثل للذي يقصد صاحب الخلق الحسن، ومن يتصف بصفات المروءة، ولا يخشى الرجوع عنه خائباً، وإنما يؤمن إيماناً مطلقاً، بأنه سوف ينال ما يتمناه، وتنقضي من خلاله الحاجات، أما من قصد ضيقي الصدر، وأصحاب الصفات الرديئة، فلن ينال منهم سوى الأذى، والرجوع خائباً، محملاً بأثقال المهانة، لأن أبوابهم دائماً موصدة:

من ضـــوى الأكـــرام ما حاتـــا العشـــا

ومن ضـــوى الأبخـــال خلّـــوه محقـــور

ويقول الشاعر كميدش بن نعمان وهو يضرب مثلاً للرجل الشريف، صاحب الهمة العالية، الذي لا يوجد إلا في مجلس السؤدد والعزة، مجانباً لمواطن السوء والوضعاء، أياً كانت الظروف قاسية عليه، فإنه لا يرضى إلا بالطيب من كل جنس، سواء بالمأكل أو الملبس أو المجلس، لأنه جُبل على نفس حرة، تتوق دوماً للمعالي:

لي مـا شـرب مـن علقـم الحـب كاسـات

هيهـــت للطيـــب يـــذوق المنافيـــع

الفزعة في الأمثال الشعبية الإماراتية

وتزخر الأمثال الشعبية في الإمارات بالقيم المرغوب فيها في المجتمع مثل: التكافل، والتعاون، والمساعدة، والتوادد والتراحم، وكلها تجسد مفهوم «الفزعة» والتطوع وهي تظهر جلية في المثل المنتشر على ألسنة الناس، ومنها:

الناس بالنَاسْ والكِلْ بالله.

يدعو المثل الفرد إلى أن يمد يد المساعدة إلى الآخرين من أجل إعانتهم على تجاوز ما يمرون به من أزمات، فإن مثل هكذا عمل يؤدي إلى تعزيز قيم التعاون والمحبة والتماسك بين أفراد المجتمع. ويقابله من الأمثال الشعبية العربية: عيني واعينك، شيلني واشيلك.

يدٍ واحدهْ ما تِصفِّق.

الدعوة إلى التعاون في إنجاز الأعمال، وضرورة أن يمد الفرد يد المساعدة إلى الآخرين، وبخاصة إذا واجه المجتمع مشكلة طارئة، فلا يمكن الانفراد في حلها دون مساعدة الآخرين، لأن الجميع معنيون بصيانة المجتمع، وتكافله، والتعاون في مواجهة الظروف الطارئة.

إذا شاخْ بِنْ عَمّك شِلْ اِنعالهْ.

شل: احمل

الدعوة إلى مد يد العون إلى الأهل إذا ألمّ بأحدهم مصيبة، أو حادثة أقعدته عن العمل ولم يعد قادراً على مواجهة الظروف الصعبة والقاسية.

قومٍ تعاونَوا ما ذَلّوا.

إن تعاون أفراد المجتمع يؤدي إلى المزيد من التماسك، كما يؤدي إلى مواجهة المواقف الصعبة والتغلب عليها، فالمجتمع المتعاون يظل دائماً قادراً على تجاوز المحن، وقادراً على أن يوفر لهذا المجتمع العزة والكرامة والفخر.

طِقْ الخشم تِدْمع العينْ.

طق: اضرب.

الابتعاد عن إيذاء أي فرد من أفراد المجتمع، لأن هذا الفرد مكون أساسي في بنيان المجتمع، تماماً كمكونات جسم الإنسان، يتفق مع الحديث الشريف، فعن النبي ﷺ أنه قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

شو خانهْ ما تْظَلّل على أهَلْها.

شو خانة: ما فائدة؟

شيرة: شجرة.

يشبه المثل توادد المجتمع وتعاونه بالشجرة التي تلقي بظلالها على من يطلب ظلها والوقاية من وهج الشمس، فالشجرة التي لا ظل لها، هي شجرة غير نافعة، وهكذا هم الأهل والأصدقاء، عليهم أن يمدوا يد العون إلى ذويهم في أوقات الشدة، ليظل التراحم عنواناً يجمع ولا يفرق، يصون ولا يبدد.

حد لو ما بيلك يعيض في أهاليك.

بيلك: تربطك به قرابة.

يُضرب المثل في بعض الأشخاص الذين يقومون بتقديم المساعدة والعون للآخرين، علماً أن هؤلاء لا يمتون بصلة قرابة إلى الذين يقفون إلى جانبهم، ويقدمون لهم العون، وبالتالي: إن المثل يحث أفراد المجتمع على التعاون والتكافل

الفزعة في الحكايا الشعبية الإماراتية

وللحكاية الشعبية في الإمارات دور كبير في ترسيخ صفات التطوع ومساعدة الآخرين، فالحكاية الشعبية ترتبط بالحياة الاجتماعية وتنقل منها وتؤثر فيها، والحكاية الشعبية الموجهة للطفل في الإمارات تحمل الكثير من قيم الخير والعطاء وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم والكثير من المعاني السامية ومنها على سبيل المثال لا الحصر مساعدة الصغير للكبير كما في حكاية «بديحة بديحوه»، حيث نقرأ في بدايتها: «يحكى فيما مضى أن فتاة جميلة تسمى عُويشَ، كانت تعيش مع والدها الصياد الفقير وتعمل معه في الصيد، يخرجان باكراً في الصباح ولا يعودان إلا في آخر النهار». وفيها معنى طاعة الوالدين، حيث يساعد الأبناء الآباء في طلب الرزق منذ القديم في البيئة الإماراتية، ونجد الكثير من المعاني المماثلة في حكايات «الراعية والنمر»، «أم الهبان» وهو ما يؤصّل لقيم الانتماء إلى هذا المجتمع بما فيه من خير وعطاء ■

كاتب وباحث من سوريا

المصادر والمراجع:

1 . القيم الاجتماعية في الأمثال الشعبية الإماراتية، دراسة تحليلية، عبد الله سليم عمارة، ط 1، 2015.

2 . مختارات من الحكم والأمثال في الشعر الشعبي الإماراتي، فهد علي المعمري، ندوة الثقافة والعلوم، ط 1، 2016.

2 . ديوان موزة بنت جمعة المهيري، تحقيق: د . فايز القيسي، شيخة الجابري، عذيجة الخيلي، فاطمة الظاهري، مركز زايد للتراث والتاريخ، ط 1، 2004.

3 . سعيد بن عتيج الهاملي/ فروسية الحب والشعر، مؤيد الشيباني، مؤسسة سلطان بن عويس الثقافية، ط 1، 2020.

4 . القيم الاجتماعية، عبد الله بن دلموك، مركز حمدان بن محمد لإحياء التراث، ط 1، 2022.

5 . القيم الأخلاقية والتربوية في حكاية الطفل الشعبية في دولة الإمارات العربية المتحدة، عائشة علي الغيض، مركز حمدان بن محمد لإحياء التراث، ط1، 2023.

«الفزعة» سنع إماراتي وثّقه الشعر النبطي

الأمير كمال فرج

الفزعة سمة أصيلة في المجتمع البدوي، «والفزعة» في التراث الإماراتي تعني المبادرة لتقديم العون والمساعدة، و«راعي الفزعة» هو الرجل الذي يفزع للناس ويهرع لعونهم، ويتسم بشيم عديدة منها: الكرم، والإيثار، والحرص على غوث الآخرين ومساعدتهم.

ويتضمن منهج السنع الإماراتي 70 قيمة أخلاقية، وفي المحور الثالث ومن الصفات الموجودة[1] فيه: الكرم، والفزعة، والإيثار، والعفو، والصفح، وهو ما يؤكد أن الكرم صفة أصيلة في المجتمع الإماراتي.

وقد عبّر الشعر النبطي عن الكرم والفزعة والتطوع، كفضائل عربية أصيلة تحضّ عليها مكارم الأخلاق. وهاهو «مبارك الحجيلان» يمتدح راعي الفزعة الذي يسارع إلى مؤازرة الصديق، ويستقبل الناس بكلمات ترحيبية مثل هلا وابشر وتمّ وحاضر، يقول:

«يعجبني الطيّب سريع الفزعه
اللي ليا جاه الحمل.. يشتاله
ويتعبني من سوى جميلٍ فيني
لا شفت وجهه ثم ذكرت أفعاله
الطيب يبقى لصاحبه ما يفنى
يكتب له التاريخ ضمن رجاله
ما حب طاري واحدٍ ما ينفع
وافزّ للي سيرته شعّاله
وافرح على شوف الكريم الشامخ
أبو اليمين الديمه الهمّاله
راعي هلا وابشر وتمّ وحاضر
راعي وفا والنايفه منزاله»[2]

ويرى «مهدي بن مسفر» أن الفزعة التي لا تكون في وقت الحاجة لا داعي لها، وأن المؤازرة الحقيقية في أوقات الشدائد والمحن. يقول:

«الفزعة اللي ما تجي وقت اللزوم
أقسم برب البيت ما ودّي بها
في ذمتي ما ينفعك غير القروم
أهل الوفا وقفاتها من طيبها»[3]

ويؤكد «أسامة الدليمي» أن الفزعة في وقت الضيق صارت قديمة، وأن قومه يفزعون للناس في الظروف والأحوال كلها. يقول:

«الفزعه بوقت الضيق صارت قديمه
ربعنا ماتنشاف بس بالعزيمه»[4]

أما «ضاري البوقان»، فيؤكد أنه شخص قنوع يكتفي بما رزقه الله، ولكنه لا يرغب في رؤية من لا يفزع للناس، يقول:

«يا وقت ماني زين لو هاجسي زين
ولا أحب اشوف اللي تردّى بمسعاه

متحف القصر القديم في العين، الإمارات

رجال مايفزع ولا يقضي الدين
ماينتفض في وجه من جاه ينخاه
والله لو أسير لبعض الدواوين
والقاه حتى بالسلام اتعداه»[5]

ويعتزّ «رامي أبو الليث» بالقيم البدوية التي نشأ عليها، ومن بينها الكرم والطيب وحسن الضيافة، ويقول:

«أنا بدوي واكتب قصيدي بإحساس
أبيات شعري تنطق بالمعاني قويّه
على الكرم والطيب تربيت بنوماس
نشمخ فخر ودلالنا تفوح بالشاذليه
حنا بدو سلومنا على العين والرأس
نعرف المواجيب ولو الليالي شقيه
ما ننكر المعروف ونمشي مع الناس
واللي ينخانا يلقانا ولو كانت حميه
حنا البدو بعين العدو والكل حراس
خوتنا فالطيب والخوى يفدا خويه»[6]

وقال «الماجدي بن ظاهر» - أيقونة الشعر النبطي الإماراتي - في فضل الجود والكرم، مشيداً بكريم النفس ومنتقداً البخيل اللئيم:

«تعلا بالشجاعه عقيل طبقا
واصخاها واوفاها ذامامي
واحيا الله كل كريم نفسٍ
ولا أحيا البخيل ابن اللئامي»[7]

ويمتدح «علي بن رحمة الشامسي» حياة البدو والبادية، ويعدّد

خصالهم، فهم أهل كرم وجود، وقناعة، وعزة نفس، قلوبهم واسعة، يرحبون بالضيف، ويحرصون على أداء الواجب في السراء والضراء. يقول:

«ريت البدو من ناس طيّبين
وقلوبهم للصاحب وْساع
لو زرتهم كل ساعة وحين
تسمع بكلمة مرحبا الساع
الضيف له معهم قوانين
والجار له عادات وسْناع
في كل واجب مستعدّين
يوم الخوي يشرى ولا يباع

على السرى والدوب ضارين
ماهمّهم دنيا ولا طْماع
تفرح بهم إن يوك عانين
يوم الخصيم يُبات مرتاع
أهل الكرم والجود باجين
والمدح في الطيبين ما ضاع»[8]

أما «سعيد بن كلفوت بن مهيلة» فيوصي أولاده بمراعاة حقوق الجار، وطاعة الوالدين، والحرص على صلة الرحم، والكرم، يقول:

«وع اليار ما وصّيكم
واليار له مداراه
حتى النبي أوصى له
وعلى الأخوْ بدّاه
والوالدين أصغوا له
ثم حاولوا في رْضاه
والرحم ما تقطعونه
مكسب وأجرٍ وراه
لا يخيب ظنّي فيكم
ترك الرحم معصاه
والكرم لا تنسونه
ما دمتوا في الحياه»[9]

الكريم والبخيل

كما امتدح الشاعر النبطي الكريم، انتقد البخيل، وعقد المقارنات بين الاثنين، وفي ذلك تأكيد للمعنيَيْن الإيجابي

والسلبي، ومن الأبيات التي سارت بها الركبان في الجزيره العربية، والتي تؤكد أن الدنيا دوّارة، وأن المعسر يمكن أن تتغير حالته فتنقضي حاجته في يوم، وفي المقابل يمكن للميسور أن يتحول إلى محتاج، يقول شاعر:

«عسى المعسر اللي حاجته ردّها الإحـراج
ما يصبح عليه الصبـح وايديـه محتاجــه
وعسى الميسّـر اللي ما يفرج على المحتاج
تحدّه ظروف الوقـت ويجرّب الحاجـه»[10]

ويقارن «حمدان المري» بين البخيل الذي يمتنع عن العطاء رغم أنه يملك الملايين، والكريم الذين يقترض من أجل إكرام ضيفه، يقول:

«جعل البخيـل اللـي رصيــده ملايين
اللـي إلــى جـاوه العـرب مـا تكلــف
إفـدا الكريـم اللي عسـر حالــه الديـن
اللـي لاجــاه الضيـف راح وتسلــف»[11]

ويبدع «مرزوق السلمي» في التعبير عن الكرم، ويقدم صورة واقعية طريفة، فهو في حالة خصام دائم مع المال، مؤكداً أنه ليس معتاداً على إغلاق الأبواب. يقول:

«بين الريال ويمينـي ياجماعــه خصــام
إن لزمهـا فكّهـا وان لزمتــه فكتــه
ماني بـ «حاتــم» لكنــي مـا علـي ملامـه
الباب مانـي متعــود علــى صكتــه»[12]

وفي بعض الأحيان تكون المقارنات بين الكريم والبخيل ساخرة، تكشف عن إبداع شعري، وروح ساخرة مرحة، ومن ذلك وصف «وصل العطيّاني» البخيل من شدة بخله بأنه لا يعطى حتى من ذنوبه! يقول:

«الكريم اللي عطي كنّه ما يعطي من حلاله
لو طلبته ثوبـه اللي لابســه يعطيك ثوبـه
لعن أبو جد البخل واللي يحطّه راس مالـه
البخيل بخيل ما يعطيك حتى من ذنوبه»[13]

وبالروح الشعرية الساخرة نفسها، يقدم «عبد الرحمن بن محمد العتيبي» صورة كاريكاتيرية للبخيل الذي يحسب التكاليف على الآلة الحاسبة قبل أن يذبح الخروف، ويقول:

«جعل البخيـل اللي قبــل يدبح خــروف
يحسـب تكاليفـه على الآلــه الحاسبـه
يفدي الكريــم اللــي مقــرن للضيــوف
بمناسبــــه ولا بــــدون مناسبــــه»[14]

التقليد والإبداع

مع أهمية الفكرة في آلية الإبداع، أي فكرة ستصبح في يوم ما قديمة، ولعل ذلك ما دفع عنترة بن شداد إلى أن يبدأ معلقته بالقول: «هل غادر الشعراء من متردم»، وهنا يبرز دور الشاعر في صناعة فسيفساء الصور الجديدة المبدعة من الفكرة تقليدية. وفيما نجح شعراء العصر الجاهلي - من خلال أغراض

الحكمة والمدح والفخر - في ابتكار صور فنية عن الكرم خلّدها التاريخ، نجح الشعراء النبطيون في العصر الحديث في تجديد فكرة الكرم التقليدية، وتقديم صور فنية جديدة عن الفزعة، لعبت على المفارقة بين الشيء وضده، الجيد والسيئ، الكريم والبخيل، وأضفوا على قصائدهم الروح الساخرة التي أكدت المعنى من ناحية، وأضافت الفكاهة من ناحية أخرى، والأمر اللافت للنظر أن معظم الشعراء الذين أبدعوا في هذا الاتجاه هم من الشباب.

وذلك كله يؤكد أهمية طرح القيم المتوارثة كالفزعة والجود والعطاء والكرم لتكون مادة للكتابة والإبداع، بذلك نحرث الأرض ونحرّك المخيّلة، ونحفّز الشعراء لتقديم رؤى فنية جديدة نابضة بالحياة ■

صحفي وباحث مصري

الهوامش والمصادر:

(1) راجع كتاب النشاط 2021 - 2022 الصف الثاني مادة السنع الإماراتي. شوهد في 13 / 5 / 2024.
(2) مقاطع شعرية: www.youtube.com. شوهد في 13 / 5 / 2024.
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) المصدر السابق نفسه.
(5) المصدر السابق نفسه.
(6) شعر نبطي للشاعر رامي أبو الليث، مدونة شخصية: www.facebook.com . شوهد في 13 / 5 / 2024.
(7) «الماجدي بن ظاهر شاعر القرن العاشر»، سعد الحافي/ صحيفة الرياض، 2008م، العدد 14565.
(8) ديوان نسيم الخليج «علي بن رحمة الشامسي»، د. راشد المزروعي، نادي تراث الإمارات، أبوظبي، 2010، ص 304.
(9) ديوان بن مهيلة «سعيد بن كلفوت بن مهيلة الشامسي»، د. راشد أحمد المزروعي، نادي تراث الإمارات، مركز زايد للدراسات والبحوث، أبوظبي، 2008، ص 131.
(10) شاعر مجهول: أجمل أبيات عن الكريم في الشعر النبطي، د. صدام بن كده: www.youtube.com . شوهد في 13/ 5 / 2024.
(11) المصدر السابق نفسه.
(12) المصدر السابق نفسه.
(13) المصدر السابق نفسه.
(14) المصدر السابق نفسه.

الفزعة الإماراتية..
ملحمة تاريخية ملهمة للأجيال القادمة

فاطمة سلطان المزروعي

عرف المجتمع الإماراتي منذ بدايته الود والاحترام والتلاحم والتماسك، نستلهم ذلك من كلمات المغفور له – بإذن الله تعالى - الوالد الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - حينما قال: (أعتبر نفسي رب عائلة كبيرة هي الشعب، وأن واجب رب العائلة أن يرعى شؤون أفراد عائلته ويعمل على سعادتهم ورفاهيتهم) من هذه الرؤية تستلهم دولة الإمارات العربية المتحدة رؤيتها وانطلاقاتها الواثقة نحو مستقبل التلاحم الأسري والمجتمعي كونها أحد أهم المرتكزات في الأجندة الوطنية التي تضع المجتمع كمؤشر مركب يقيس مدى تمتع أبناء المجتمع بالمبادئ والقيم المرتبطة بالهوية الوطنية والتكافل الاجتماعي والشراكة المجتمعية بين جميع مكونات المجتمع ولا شك أن التماسك الأسري هو سر التلاحم والمشاركة والدعم بين أفراد الأسرة والعائلة في جو يسوده التفاهم والاحترام والمساواة.

الفزعة في مناسبات الزواج

ولما كانت الأسرة هي النواة فإن الزواج واحد من المناسبات المفصلية في حياة الفرد وأسرته وهو من المناسبات التي تتبدى فيها (الفزعة) بصور متعددة عبر المشاركة في الأفراح وتقديم المساعدات سواء أكانت عينية أم مادية، في المقابل كان المعرس (العريس) هو الذي تقدم له (العينية) أي الإعانات والهدايا من أهله وجيرانه، فهذا يقدم مقداراً من المال وبعضهم يقدم ماعزاً أو غنماً لذبحها يوم العرس عند إعداد الطعام وآخر يقدم مؤونة مثل: الطحين، والأرز، والقهوة وغيره من احتياجات الاستعداد للعرس وهذا العون لم يكن إلزامياً بل عادة اجتماعية تمثل إحدى صور التكافل الاجتماعي غير أن هذه الإعانات يجب على العريس أو أهله ردها لمن قدمها في مناسبات مماثلة، وكانت النسوة يشتركن في تجهيز ما يلزم للطبخ احتفالاً بالعرس، ويكون طبخ الطعام أمام بيت أهل العروس أو قريباً منه ثم يسهم الجميع في توزيع الطعام على الأهل والجيران وكان الكل يشارك عن طيب خاطر فهذا يساعد في الطبخ وآخر في ذبح المواشي وآخرون يرتبون المكان وغيرهم يشاركون في الغناء والفنون الشعبية، كما

يقدم الجيران ما ينقص أهل العروس من حاجيات مثل أدوات وألحفة ومخدات ومساند وتشارك النساء في الحناء وتجهيز ملابس العروس وحاجياتها، كذلك الفرق الشعبية كان أفرادها من أهل (الفريج) الحي يشاركون بلا مقابل والأمر نفسه بالنسبة إلى الطباخين.

الفزعة والتنشئة في المجتمع الإماراتي

ارتبطت الولادة في المجتمع الإماراتي منذ القدم بالتعاضد والتكاتف والتعاون وكان يبدأ منذ ظهور أعراض الحمل ومعاونة نساء الأسرة والحي للمرأة المنجبة وكانت الأسر تعتني بالطفل منذ صرخته الأولى عناية فائقة وتستخدم كل ما توفره البيئة من أدوية وأعشاب وعطور في حمايته والمحافظة على صحته، وتبدأ عملية التنشئة الاجتماعية للأطفال في كنف الأسرة الممتدة ليتحرك الطفل في وسط مجموعة أكبر تتعدد فيها الأعمار وتشمل اختلاف النوع، كما أن أفراد هذه المجموعة من إخوان وأخوات وأبناء عمومة وغيرهم يمثلون وحدة اجتماعية مترابطة ومتجانسة كما ينقل كبار السن خبراتهم ومعارفهم ومشاعرهم للصغار في أسلوب تربوي أصيل على امتداد المجتمع الإماراتي وتكليفهم ببعض الأمور المنزلية كالالتفات إلى الإبل أو الرعي وتدريبهم في البادية الصحراوية والجبلية على الرماية والزرع والاعتناء بالإبل والرعي والحطابة والتعامل مع مياه الأودية والأفلاج والينابيع وصخور الجبال ومساعدة والده وأسرته في جوانب الحياة جميعها وكان ينضم إلى قافلة الجمال والحمير المحملة بالمنتجات الزراعية

الموسمية والعسل والسمن، حيث تنطلق القافلة فجراً في رحلة البحث عن الرزق الحلال وقد تمتد هذه الرحلات إلى أكثر من أسبوع لتصل إلى أسواق المدن الساحلية وتقطع رحلتها ذهاباً وعودة في دروب جبلية ووديان وكثبان رملية في صحاري قاحلة بهدف تسويق منتجاتها الزراعية، في تلك الحقبة وعلى الرغم من قساوة الطبيعة كان الناس كالجسد الواحد جيراناً وأخوة وأنساباً تجمعهم الأماكن وتفرقهم لتعود لتجمعهم مرة أخرى.

ولا تزال تلك القيم الأسرية التي توارثتها الأجيال في مجتمع الإمارات موجودة، وعلى الرغم من التطور الكبير الذي تشهده دولة الإمارات العربية المتحدة في نواحي الحياة، فإن هذه الحداثة ظلت متصلة بأسباب رسوخها الاجتماعية متمثلة في القيم والعادات والتقاليد الأصيلة، وهو الدور الذي تضطلع به مؤسسات الدولة المختلفة في ترسيخ هذه القيم وعلى رأسها مؤسسة التنمية الأسرية التي ترأسها أم الإمارات الشيخة فاطمة بنت مبارك، حفظها الله.

الفزعة في المجالس الإماراتية

عرف المجلس بأنه منتدى اجتماعي تبرز من خلاله ملامح الحياة الاجتماعية ومظاهر التكافل والتواصل بين أفراد المجتمع وهو عادة إماراتية راسخة في معاني التواصل والترابط والتكافل الاجتماعي العام يناقشون يومياً فيه شؤونهم ويتناقلون الأخبار والحكايات ويسمى مجلس الشيوخ (البرزة) حيث من حق جميع أفراد المجتمع أن يحضروا المجلس ويدلوا بآرائهم في الشؤون الاجتماعية واليومية وجرت العادة أن يتم بناء مجلس الشيخ قرب منزله أو في منتصف الفريج وتتعدد أشكاله على حسب البيئة الموجودة فيها وله دور كبير في استقبال الضيوف وإكرامهم وفي التشاور والمناقشة وحل مشكلات الحي، ولكن المجالس كان دورها الأشمل في استقبال الضيوف والزوار فهي رمز للكرم والضيافة وقد عرفت مساكن بعض العائلات الكبيرة في المجتمع مجالس عدة في بيت واحد إلى جانب المجالس أو الحلقات الجماعية التي عرفتها المساجد للتدارس والتعليم، لقد كان للمجالس أثر إيجابي في حل المشكلات والخلافات بين أفراد المجتمع وخلق مزيد من الوئام بين المتنازعين بالطرق السلمية وكانت بمنزلة المدرسة التربوية للأبناء حيث كانوا يشاركون آباءهم في حضور اللقاءات الجماعية، فكانت مجالس الشيخ زايد الأول مقصداً للعلم من الإمارات يتوافد عليها العلماء فيجدون عند الأب مؤسس الدولة وبانيها الكرم والتقدير في مجالسه، وكان يقابل الشخصيات التي كانت تفد عليه سواء في قصر الحصن في أبوظبي أو في محل إقامته في واحة العين وكان اهتمامه برعيته واضحاً ووصف مجلسه بأنه كان ملتقى عاماً فتحت أبوابه للجميع. لقد ظلت مفردة التطوع حاضرة بأشكالها كلها في المجتمع الإماراتي، وكانت الفزعة موجودة بما تجود به النفس سواء في وقت الرخاء أو الشدة مما يقوي الترابط الاجتماعي وعادة ما يتحلى راعي الفزعة بشيم عديدة تكون الحافز الرئيسي لعملية التطوع، مثل: الإيثار، والشهامة، والكرم، والشجاعة، وكانت دوافع الناس للفزعة تتمثل في ثلاثة محاور رئيسية أهمها: شح الموارد، وعدم ضمان الدخل، وغياث من يحتاجون للغوث؛ ولهذا كان الناس يتقاسمون هذه الموارد الشحيحة. ولذلك انتشر مفهوم الفزعة في المجتمعات فكانت هناك الهبة الجماعية التي استطاعت أن ترسخ مبادئ الإيثار في نفوس المجتمع. فالغواصون كانت تتجلى هذه الروح في عملهم الشاق في غياهب البحار بحثاً عن اللؤلؤ، والصيادون كذلك. ويتعدى ذلك إلى المهن التي يتعاون فيها أبناء الفئة الواحدة على أداء عملهم بما تقتضيه الروح الجماعية إلى مشاريع النفع العام التي تعود فائدتها على مجتمع الفريج والقرية والمدينة بأسرها، وكانت أشكال الرعاية والخدمات الاجتماعية في مجتمع الإمارات التقليدي طواعية وأهلية ومحدودة، ونابعة من تراث ومأثورات شعبية ومبادرات إنسانية، فقد كان الناس يقدمون مساعداتهم في تلك الأعمال التي تحتاج إلى الكثير من الأيدي العاملة مثل: الزراعة، وبناء البيوت، وصناعة القوارب، وشباك الصيد وغيرها، وأوجه التعاون في مجتمع الإمارات التقليدي كانت تتم تحت ظلال تكافل الجماعات وقوة العلاقات الاجتماعية، وقد اتخذت الرعاية الاجتماعية في مجتمع الإمارات قبل الاتحاد ممارسات غير منظمة، أهمها نظام التكافل الاجتماعي الذي يستند إلى تعاليم الدين الحنيف وتعدد الوسائل في تحقيقه، مثل: الزكاة، والصدقات، وإسعاف الجائع والمحتاج، والإيثار، وبالوصية، والهدية، أو الهبة، والإعارة، والوقف، والضيافة إلى جانب الفزعة وهي إحدى أشكال التعاضد الاجتماعي التقليدية السائدة في المجتمع التقليدي كأحد أشكال التكافل المادي والتضامن الاقتصادي الأسري والقبلي عبر تقديم مختلف أشكال المساعدات الاجتماعية والنقدية، ونجد كذلك الشوفة

وهي المساعدات التي كانت أفراد القبيلة تقدمها بشكل طوعي بحسب مقدرة كل فرد في حالات معينة مثل إقامة الأفراح في المناسبات الدينية والاجتماعية وفي حالة غرق السفن أو حوادث أخرى وذلك لتعويض الأفراد عن الخسائر التي قد يتعرضون لها.

فزعة أبوظبي في الترحيب والتلاحم المجتمعي

لماضي الحياة في دولة الإمارات العربية المتحدة ولمن عاشها في السابق استطاع أن يعيش ويشاهد ذلك التعاضد وإكرام الضيف والفزعة في شؤون الحياة اليومية، فعندما حل شيوخ بني ياس في جزيرة أبوظبي وحفروا البئر وبنوا الحصن واتخذوها حاضرة لهم لم يستأثروا به وحدهم، وعلى الرغم من أنهم الأوائل الذين بنوا ووضعوا لبنات الحياة المستقرة فإنهم آمنوا بحق العيش المشترك.

والعمل لم يكن مقتصراً عليهم وحدهم بل بسطوا أيديهم لجميع مَنْ في محيطهم الصحراوي ليتوافد عليهم الكثير من البدو وأهل البحر في مرحلة قادمة عنوانها التسامح والترحيب بالضيف والتعايش مع الآخر، لقد أسهب الرحالة الأجانب في وصف مشايخ البادية وفي ليوا والإمارات، لقد عدد ثيسجير في عام 1946 سبب محبة البدو للمغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - وأرجع ذلك لكرمه ومودته وقوة شخصيته وفطنته وقوة بنيته الجسدية وغيرها من الصفات التي أهلته لتلك المحبة من شعبه، اتسمت حقبة المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - بحرصه عبر مجالسه المعروفة على ترسيخ قيم التلاحم بين أفراد مجتمعه فقد كان (زايد رب أسرة) والأسرة كانت في

البداية أسرته الصغيرة وفي عام 1946 أصبحت أسرته هي سكان المنطقة الشرقية كلهم، ثم في عام 1966 أصبحت أسرته أبناء إمارة أبوظبي جميعهم، ثم في عام 1971 أصبحت أسرته دولة الإمارات العربية المتحدة كافة.

فزعة الإمارات: من تحرير الكويت إلى الخدمة الوطنية

لقد أثبتت دولة الإمارات العربية المتحدة أنها على أهبة الاستعداد لنجدة جيرانها عندما شاركت قوات الإمارات كقوة مؤثرة في حرب تحرير الكويت عام 1990 وسقط شهداؤها في ميدان الشهداء وهم يُقتلون من أجل تحرير الكويت، تلم المواقف التي عبّرت عن سياسات المغفور له –بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان – طيّب الله ثراه - عندما فتح أبواب التطوع والانخراط في معسكرات التدريب العسكري التي استمرت أسابيع وتلقوا خلالها الكثير من التدريب على أنواع الأسلحة والتخصصات العسكرية كان من بينهم الطالب والموظف والتاجر والمهندس والطبيب والقاضي حتى المرأة شاركت لترسم صورة ناصعة التلاحم ثم تسابق الشعب لاستضافة العائلات الكويتية التي وفدت على وطنها الثاني في دولة الإمارات العربية المتحدة وتقديم

صور الرعاية وتلبية احتياجاتها من مختلف الخدمات وأنواع الرعاية كافة، وقد شهدنا دخول المرأة في ساحة الميدان العسكري وانضمامهن إلى مدرسة خولة بنت الأزور ووقوفهن جنباً إلى جنب بجانب الرجل وقد جاء قانون الخدمة الوطنية والاحتياطية رقم 6 لسنة 2014 ليحدد آليات وضوابط تجنيد شباب الوطن وفتياته لنيل شرف الخدمة الوطنية والمساهمة في الدفاع عن الوطن.

ومنذ تأسيس الدولة عام 1971 استطاعت دولة الإمارات العربية المتحدة أن تقوم بدورائد في تعزيز التضامن الإنساني وتبوأت مكانة متقدمة ضمن منظومة القوى في العالم، وجاء قانون الخدمة الوطنية رقم 6 لسنة 2014 ليحدد آليات وضوابط تجنيد شباب وفتيات الوطن لنيل شرف الخدمة الوطنية والمساهمة في الدفاع عن الوطن حيث استطاعت تعزيز القدرات الدفاعية والعسكرية للدولة في مواجهة الأزمات والكوارث وأسهمت في تعزيز الحس الأمني لدى المواطنين وسعت إلى تحصينهم من الأفكار الهدامة وحمايتهم من التهديدات الأمنية التي تحدق بوطنهم داخلياً وخارجياً.

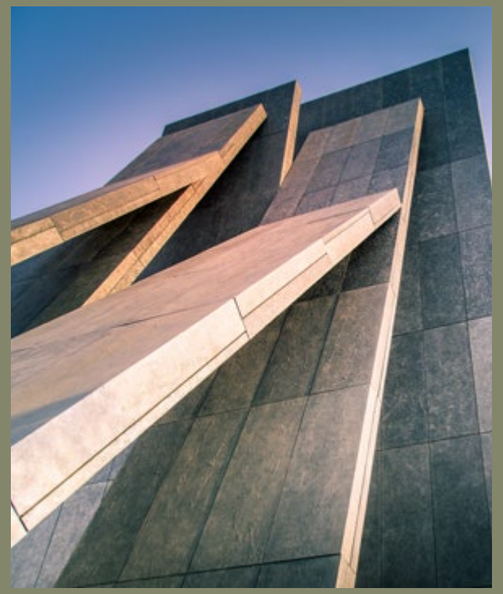

فزعة الإمارات في العمل الإنساني والتنمية العالمية

لقد استطاعت دولة الإمارات العربية المتحدة أن تقدم الكثير من المساعدات التنموية والخيرية منذ تأسيسها وتنوعت مشاريعها التنموية ما بين بناء الجسور والمجمعات السكنية والطرق وتوليد الطاقة وغيرها، لقد أسس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - صندوق أبوظبي للتنمية ليكون عوناً للأشقاء والأصدقاء في الإسهام بمشاريع التنمية والنماء وخلال أكثر من 40 عاماً استطاع الهلال الأحمر أن يحجز موقعاً بارزاً على خريطة العمل الإنساني والإغاثي وبناء سمعة عالمية طيبة في ميدان العطاء الإنساني لقد تصدرت الإمارات قائمة الدول الكبرى صاحبة الإنجازات الملموسة في مجال إغاثة اللاجئين والنازحين وضحايا الحروب والكوارث الطبيعية، لقد شاركت القوات المسلحة في عهد الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - بالعديد

من المشاركات والمساهمات ففي عام 1976 شاركت في لبنان ضمن قوات الردع العربية، وفي عام 1991 ضمن قوات درع الجزيرة لتحرير الكويت وانضمامها مع قوات الأمم المتحدة في إعادة الأمل للصومال في عام 1992 وقدمت القوات المسلحة الكثير من المساعدات للمشردين والمحتاجين في إقليم كوسوفو عام 1999 إلى جانب إيوائهم في معسكرات مجهزة بالكامل تسد رمق جوعهم وكان لها الدور الأهم في تطهير الأرض في الجنوب اللبناني من الألغام عام 2001. وفي عهد المغفور له الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان - طيّب الله ثراه - تواصل دور القوات المسلحة بمد يد العون للشعب الباكستاني خلال زلزال عام 2005 وفي عام 2008 كان لها دور بارز في إغاثة المنكوبين في اليمن نتيجة الظروف الطبيعية العنيفة والكوارث والسيول التي ضربت المنطقة وتسببت بأضرار جسمية للسكان، كما شاركت القوات الإماراتية في عملية إعادة الأمل ضمن التحالف العربي بقيادة المملكة العربية السعودية وهي عملية انطلقت في 26 مارس 2015 ضد المتمردين على الشرعية. ومن منطلق حرص الشيخ خليفة بن زايد - طيّب الله ثراه - على تخليد ذكرى شهداء الوطن لما قدموه من تضحيات أمر رئيس دولة الإمارات صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان - حفظه الله - بإنشاء نصب تذكاري للشهداء في مدينة أبوظبي لتظل ذكرى شهداء الوطن البواسل وبذلهم وتضحياتهم بأرواحهم الغالية، وأمر صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان بإنشاء مكتب في ديوان ولي عهد أبوظبي يعنى بشؤون أسر شهداء الوطن ويجسد هذا النهج معاني التلاحم بين شعب الإمارات وقيادته التي فتحت الأبواب للشباب للتطوع في جميع الميادين على اختلافها في هذا المجال الذي يركز على أهمية التعاون والتكافل في منظومة تصب في صالح المجتمع وتكاتفه ■

المصادر والمراجع:

1. الفزعة، عبد الله عبد الرحمن، هيئة أبوظبي للسياحة، أبوظبي، ط 1، 2017.
2. القوة الناعمة العمل التطوعي والعطاء الإنساني على خطى زايد، عادل الشمري، مركز الإمارات والدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط 1، 2019.
3. الخدمة التطوعية بدولة الإمارات العربية المتحدة، الواقع والطموح، دراسة ميدانية، وزارة الثقافة وتنمية المعرفة، ط 1، 2019.

الفزعة في الأدب الإماراتي ...

كيف وثق الإبداع موروثاً قيمياً كان دستور القبائل وقانونها؟

نشوة أحمد

لفترات طويلة من التاريخ كانت القبيلة مكوناً أصيلاً للمجتمعات العربية، لا سيما في مجتمعات البادية، التي تآلفت مع الصحراء، وتمكنت من التعايش مع قسوتها، إذ كانت العشيرة بمثابة النواة، التي شكّلت تلك المجتمعات. وعلى الرغم مما لحق بها في العصور الحديثة من تحوّل، قادها من المفهوم العشائري، إلى مفهوم الأمة الواحدة: فإن الكثير من قيم القبيلة وخصالها ظل ينتقل من جيل إلى جيل، ويحرص الآباء على غرسه في أبنائهم، وتوريثهم إياه، لا سيما قيم الكرم، والشجاعة، والوفاء بالعهد، والحلم، والحكمة، واحترام كبار السن، والنساء، والبيوت. ومن هذه القيم جميعها تشكّلت الفزعة، بما تحيل إليه من معاني النجدة، ونصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف عند وقوع المصائب والبلايا. وهناك الكثير من الحكايات التي حفظها ووثّقها التراث العربي، والتي تشي بأهمية الفزعة، كتشريع رئيسي في دستور القبائل العربية، فكان الرجل يفزع لمن لاذ به. وكان إذا وعد أو أؤتمن، ضحى بالنفيس فداء لوعده، وحفظاً لأمانته. وقد وثّق التراث العربي أمثلة عديدة على الفزعة في الجاهلية، وبعد الإسلام. كما وثّق حرص المجتمع الإماراتي على التمسك بهذه القيمة، التي رسخها الأجداد والآباء، لتستمر سمة أصيلة له، جيلاً بعد جيل. ولكون الأدب مرآة المجتمعات، وذاكرتها الحية النابضة، استدعت كثير من الأعمال الأدبية الإماراتية؛ الفزعة كمكون أصيل من تراث المجتمع، ومن حاضره أيضاً، وإن تبدلت مسمياتها، وما يدل عليها من مفردات.

إغاثة الملهوف

في رواية «ظبية الجواء» استدعى الكاتب علي أبو الريش خصلة الفزعة، فوظف بعض أحداث الرواية في إبراز قيمة هذه الخصلة، ومكانتها بالنسبة إلى أهل الصحراء، مهما كلفهم الأمر من تضحيات، فعلى الرغم من سعي البطل المضني في الصحراء القاحلة، للتحايل على قسوة الطبيعة وشحها، من أجل إعالة عائلته، وإطعامها فإنه تجاهل مقصده، وفزع لإنقاذ امرأة لا يعرفها، وحرص على صيانة كرامتها، بعد أن فاجأها المخاض في القفر، وتحمّل عبء إعادتها إلى ديارها على دابته، مؤثراً سلامتها على سعيه للرزق.

«شاهد أبو عايض امرأة تتلوى مسندة ظهرها على جذع شجرة غاف ... سار باتجاه المرأة يستطلع الأمر... لمحها تدخل يدها تحت عباءتها وتخرج مدية وتستلها لتقطع حبل السرة، تدارى بعيداً ملتفتاً إلى الوراء كي لا يكشف ستر المرأة، ولما فرغت... اقترب أبو عايض مخفضاً رأسه، مسبلاً جفنيه إلى الأسفل، طلب مساعدة المرأة... وقال برفق: هل أستطيع مساعدتك يا أختاه؟ المرأة تحت وطء الحاجة استجابت بخجل وقد ذبل

وجهها وبدا جفناها مثل ورقة الغاف المنهكة تحت ضربات الشمس».

وفي رواية «زمن السيداف»، أبرزت الكاتبة الإماراتية «وداد خليفة» قيمة الفزعة، وأهميتها في الموروث الإماراتي، وكيف كانت القبائل تفزع لنصرة المظلومين، لا سيما إن كانوا من أبنائها، فعندما أُختطف أبناء حمدة، سارعت إلى شيخ قبيلتها، الذي سعى من فوره لإغاثاتها، وأرسل رجاله لإنقاذ أبنائها.

كما استدعت الكاتبة موروثاً من العادات، كان شيوخ القبائل يحرصون عليها، لضمان تحقيق غاياتهم في نصرة المظلومين، مثل عادة حرق طرف رسالة بعد كتابتها، ما ينم عن عدم قبول رد الطلب الذي جاء فيها.

دخلت حمدة المجلس بخطى متعثرة، متجهة حيث جلس الشيخ، وطاحت عليه: دخيلك يا شيخ، شفتك وشفت السلامة، ترى عيالي شلّوهم.. أجابها مطمئناً إياها بصوت رقيق: اهدئي يا حمدة، وصلت عند عشيرتك وسندك... أنت بنتنا واللي يصيبج يصيبنا».

الشيوخ وقانون الفزعة

وقد نقلت الكاتبة عبر تقنيات الوصف؛ سمات وملامح أشراف وسادات القبائل، الذين رسخوا قيمة الفزعة كدستور ينظم حياتهم، فهم كما رسمت شخصياتهم، وكما ذكرتهم كتب التاريخ - موسوعة القبائل العربية / محمد سليمان الطيب - كانوا دائماً ما يمثلون صوت العقل والحكمة، يتسمون بالحلم، ويبثون الأمن والطمأنينة فيمن حولهم، ويسعون بالسلم والود لإطفاء نيران الحرب، وإنهاء الصراعات بين القبائل.

كما كانوا يدفعون من أموالهم طوعاً ديات القتلى؛ حقناً للدماء، وإفشاء للسلام. ويفزعون عبر سلوكهم هذا للتخفيف عن ذوي العسرة من أبناء قبائلهم، بل إنهم كانوا يتنافسون في ذلك، ويعتبرونه آيات للفخر، وعلامات للشرف والسيادة.

وارتبطت الفزعة، ودور شيوخ القبائل في ترسيخها؛ بالمجالس التي تعد مظهراً أصيلاً من مظاهر المجتمع الإماراتي، تاريخاً وحاضراً. وقد نقلها الأدب الإماراتي عبر العديد من النصوص الروائية، ونقل ما كان يجري خلالها من تباحث أبناء القبيلة في أمورهم الحياتية، وفي مشكلاتهم من أجل إيجاد حلول لها، وكذا للتضامن بعضهم مع بعض في النوائب، وفي المسرات أيضاً، كما في رواية «الخوف من شيء ما» للكاتب علي أبو الريش» في اليوم التالي حضر الجميع واجتمعوا على حل المسألة بود. وكان شاهين يجلس في مقابل سلطان وكأن

شيئاً لم يحدث، حيث أقبل سلطان دون مقدمات، وهمّ يقبل رأس صاحبه، ويبدي له الاعتذار ..... انشرحت صدور الرجال.... تبادلوا أطراف الحديث حول الجلل الذي أصاب العالم ... كان الرجال يحاولون إخراجه من سطوته عن طريق إثارة النكات والأحاديث الهزلية بغية التفريج عن صاحبهم».

وفي كتابه في أدب الرحلة «الخروج من ليوا يليه في ديار الشحوح» رصد الكاتب «أمجد ناصر» سمات المجتمع الإماراتي، التي تعد امتداداً لموروثه من قيمة الفزعة، في مواجهة المشكلات، وإنهاء الصراعات عبر القوانين القديمة ذاتها، التي تُعلي من أهمية علاقات النسب والدم وقوتها، وتعتمد على الكلمة التي تتضمنها عهود الرجال، في تطييب الخواطر وحل المشكلات. وهو ما سمّاه الكاتب بـ «قانون الصحراء».

مهن قوامها الفزعة

عمدت نصوص عديدة من الأدب الإماراتي إلى توثيق بعض المهن التراثية، التي اندثرت ولم يعد لها وجود في عصرنا هذا، وكانت الفزعة قوام تلك المهن، مثل مهنة اقتفاء الأثر، إذ كان مقتفي الأثر يفزع مستخدماً مهاراته لإغاثة الملهوفين، الذين فقدوا أبناءهم في الصحراء، أو فقدوا متاعهم وحيواناتهم، حتى يتمكن من إعادة ما فقدوه. كذلك برزت مهنة المطوع في كل الأعمال التي أفردت مساحات منها للتراث، فبرز في روايات مثل «الخوف من شيء ما» لمؤلفها علي أبو الريش، ورواية «في فمي لؤلؤة» لميسون صقر، ورواية «رسائل عشاق» لفتحية النمر، وغيرها من أعمال رصدت تنوع المسؤوليات التي يتحمل أعباءها المطوع، ومن بينها الإصلاح بين المتخاصمين، والتوسط

لإتمام الزيجات، والربط بين الميسورين والمحتاجين، والعمل على وصول أموال الزكاة إلى من هم أكثر احتياجاً. وفي تلك المسؤوليات كلها، تحضر الفزعة كقيمة تم تطويعها، فباتت لب هذه المهنة وجوهرها.

ومن صور الفزعة التي رصدها الأدب أيضاً، ما ميز المجتمع الإماراتي من تضامن في الأفراح والأتراح، وما حرص عليه أفراده من تكافل وتراحم، لا سيما في أوقات القحط، وضيق العيش. فكانوا يمدون بعضهم بعضاً بالطعام، وقد ظهرت هذه العادات التي تعبّر عن الفزعة في روايات عديدة، مثل رواية «سيف» للكاتبة الإماراتية فتحية النمر: «كان أبناء الحي لا يبخلون عن رد الجميل للأسرة في غيابه. زوجة عبد الله تجتهد في إزالة الموانع من طريق الجارة الشابة، التي تقضي غالب أيامها وحيدة بين جدران أربع، يصغر فيها الخواء بألا تستحي من طلب المساعدة أياً كانت، وغالباً طبخات تتقنها الجارة الخبيرة بشؤون الحياة كلها، تجيبها وهي تلمس أنفها المرتفع والمحمر: فالك طيب، ما طلبت».

كذلك أبناء المجتمع يفزعون لتجهيز العروس، ولسداد دين المتعسر، وبرز حضور هذا الشكل من الفزعة في العديد من الأعمال الروائية، لا سيما الأعمال التي تناولت زمن الغوص، حيث كان الغواصة يعانون مواسم صعبة، يقل فيها الرزق ويزداد فيها الدين، فيفزع لهم أبناء جلدتهم، ويقدمون كل ما يتسنى من المال والجهد، من أجل التخفيف عن المعسرين ■

كاتبة وصحفية مصرية

سوسيولوجيا القيم في المجتمع الإماراتي

الفزعة وقيم البطولة والمروءة ونجدة الملهوف

رواية «ساحل الأبطال» نموذجاً

محمد فاتح صالح زغل

جاء في الدراسات المتخصّصة أن: «القيم أحكام مكتسَبة من الظروف الاجتماعية، يشعر بها الفرد ويحكم بها، وهي تحدّد مجالات تفكيره، وتحدّد سلوكه، وتؤثّر في تعلّمه، فالصدق والأمانة، والشجاعة الأدبية، والولاء وتحمّل المسؤولية، كلها قيم يكتسبها الفرد من المجتمع الذي يعيش فيه، وتختلف القيم باختلاف المجتمعات».

والرواية الإماراتية، شأنها كشأن غيرها من الروايات العربية، درجت على توظيف التاريخ بأحداثه ووقائعه على نحو طاغٍ رغم اختلاف أسلوب المعالجة والتوظيف من رواية إلى أخرى ما جعل بعضها يكتسب صبغة الرواية التاريخية.

ينحو الروائي علي محمد راشد منحى آخر في روايته «ساحل الأبطال» حين يتجاوز المقدمة، ويدخل في سرد الأحداث المتعلقة بجانب من تاريخ رأس الخيمة مباشرة من خلال الشخصية الرئيسية صالح. ويعالج الكاتب في هذه الرواية محاولات بريطانيا احتلال رأس الخيمة وإخفاقها في ذلك لسنوات، متتبعاً المراحل التي مرت بها إلى أن تمكنت من ذلك إثر الحملة العسكرية التي قادتها في عام 1819 التي أدت إلى القضاء على قوة القواسم البحرية والبرية. ولعل اسم الرواية كذلك يحيل هو الآخر إلى بُعد تاريخي مهم، فمن المعلوم أنه من بين التسميات التي كانت تطلق على الإمارات خلال تلك المرحلة إمارات الساحل المتصالح والساحل المهادن فجاءت تسمية الرواية متماهية مع تلك التسميات، ومستحضرة الصفة البطولية التي لازمت سياق الرواية وتوجهها العام.

هذه الرواية تعد من أهم الروايات الإماراتية ذات النزوع الواضح للتاريخ وتوظيف أحداثه ووقائعه في السرد رغم اختلافهما في البنية السردية، وأسلوب التوظيف والمعالجة للنص التاريخي المعروض في حلة روائية، وهي تجسد قيم البطولة والفزعة والمروءة والشهامة.

يقول في الرواية: «مرت أربع سنوات طويلة ثقيلة على أهالي رأس الخيمة بعد الحملة البريطانية، ولكنهم لم يستسلموا، أعادوا بناء مدينتهم وجندوا كل إمكانياتهم لبناء الحصون وبناء السفن، واستطاعوا خلال فترة قياسية تعويض كافة ما فقدوه من سفن وأنشؤوا أسطولاً بحرياً يليق باسمهم كقوة بحرية يحسب لها ألف حساب، أقضت مضاجع الإنجليز في بومباي وبوشهر، حتى إن هؤلاء القادة أطلقوا على قوات القواسم البحرية صفة «القراصنة»، ولكنهم في الحقيقة طلاب حق وأصحاب أرض وصقور البحار، يا له من زمن غريب!.. من

يدافع عن وطنه وحريته يوصم بالعدو، ومن يدافع عن مياهه يسمى قرصاناً، لا وألف لا، إنما القرصان من يتعدى على ممتلكات غيره ويسلب الآخرين حقوقهم.. لقد قلبت الآية واختلطت المسميات».

وما من شك في أن إشادة الكاتب ببطولة القواسم وبحقهم في الذود عن حياضهم أمر مشروع، وقد عبّر عن أفكاره من خلال الأفعال والشخوص والمواقف الروائية الفنية التي تشكّل معادلاً موضوعياً لتلك الأفكار.

وفي الفصل الأول من الرواية يسترجع «النوخذة صالح» ذكرى إقلاعه منذ ثمانية أشهر بسفينته من ميناء رأس الخيمة، حيث كان بانتظاره البحارة والمسافرون والمودعون، ثم يعود من الماضي إلى الحاضر مستفيقاً «من ذكرياته وهو يرى نور الفجر يداعب عينيه».

وثمة أسئلة عبر تيار الوعي يطرحها متأملاً:

«لماذا أتى الإنجليز إلى هنا؟ ماذا يريدون منا؟ هل يريدون حقاً أخذ أرضنا وأرض أجدادنا بالقوة؟

لماذا يغزون أرضنا؟ هل يريدون قتلنا؟ وماذا سيستفيدون من قتلنا؟

هل نحن ذهبنا إليهم في بلادهم وقاتلناهم حتى يأتوا إلينا لينتقموا منا ويأخذوا بثأر قتلاهم؟».

وفي الفصل السابع يعبر «الكولونيل سميث» عن دهشته وهو يراقب معركة حامية بين جنوده والقواسم:

«هكذا... هكذا وببساطة ينسحب رجالي في أول لقاء، لم يكن يخطر بذهني أبداً أن نلقى مقاومة منهم كهذه».

إن الكاتب في مثل هذه المواقف لم يكن حريصاً على وصف بطولات القواسم بأسلوب مباشر، ولكنه آثر اللجوء إلى هذا الأسلوب الفني الذي يصف آثار تلك البطولات في معسكرات الأعداء.

أما تقنية التصوير غير المباشر (وصف الصدى)، فإنها تتراءى في وصف بطولات القواسم من خلال وصف هلع الإنجليز وخوفهم من مقاومتهم وتهديداتهم المستمرة.

ويرى الناقد عزت عمر أن رواية «ساحل الأبطال» تدور أحداثها ضمن الأجواء التاريخية التي وضعتنا بها رواية «الشيخ الأبيض» لصاحب السمو الدكتور الشيخ سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، أي مرحلة الدول الاستعمارية للسيطرة على طريق التجارة الهندي وإقصاء السفن التجارية العربية، وأثر هذه المساعي على الحياة الاجتماعية والاقتصادية لسكان المنطقة عموماً.

مركز أحداث هذه الرواية هي إمارة رأس الخيمة، أما السرد فيتمركز على الشخصية المحورية الربان (صالح بن علي) الذي كان عائداً إلى رأس الخيمة بعد غياب ثمانية أشهر في سفرة تجارية ويرى ازدياد عدد السفن الإنجليزية في مياه الخليج، الأمر الذي خلق هاجساً قوياً لدى السكان بأن هذه السفن تسعى للقضاء على اقتصادياتهم وخصوصاً على مهنتهم الأساسية التجارة مع الدول المجاورة عبر أسطول السفن التي يملكونها، لتنحو الرواية بعد ذلك منحى سردياً مؤثراً، يعكس المأثرة النضالية لسكان رأس الخيمة وهم يواجهون أعتى قوة استعمارية في العالم آنذاك، حيث قُصفت المدينة مرات عدة، وأُحرق أسطولها، إلا أن إرادة أهلها لم تنهزم أمام العدو، وبذلك فإن النص سيكون بمثابة تحية لأولئك المناضلين الذين بذلوا دماءهم رخيصة في سبيل الحرية، وفي الوقت نفسه بمثابة تأريخ روائي لهذه المرحلة الخطيرة من حياة أبناء دولة الإمارات العربية المتحدة.

إن علي محمد راشد كاتب شفاف وواعٍ لرسالته، فهو حينما يكتب يتجه بكل مشاعره نحو مساندة فكرة المحافظة على الهوية الوطنية، باتجاه تغليب مصلحة المجموع على مصلحة الفرد. لقد تنبه الكاتب علي راشد إلى هذا الجانب، بالإضافة إلى مناقشته للكثير من القضايا الإنسانية ما بين مرحلة النفط وما بعدها، لقد كان الواقع الوطني أحد روافد كتاباته وموضوعاته.

إن استرجاع وقراءة التاريخ التي محورها الإنسان في هذه المنطقة وكيف تصدى الإماراتيون لمحاربة أعدائهم بوازع ديني ووطني وقومي وقيم أصيلة هي قيم الفزعة والمروءة والنجدة والشهامة مما يمكن الاعتبار أن الروائي علي محمد راشد في هذا الإطار يعد نقطة تحوّل سواء على مستوى الأسلوب أو جماليات التصوير إلى جانب فهمه الواضح لرسالة الكتابة في ارتباطها بالمجتمع والإنسان ■

أكاديمي وباحث في التراث الإماراتي

ثمرة من ثمار ما زرعه «زايد» رائد العطاء والعمل الإنساني

«غيـث»
فزعة إماراتية تجبر خاطر الإنسانية

أماني إبراهيم ياسين

اقترن اسم المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - بالعطاء، فقد حرص على مدّ جسور المحبة وتعزيز قيم التعايش والتآخي بين البشر، وتقديم العون لكل محتاج بصرف النظر عن دينه أو عرقه، وهو ما جعل دولة الإمارات العربية المتحدة منارة للتسامح، تتصدر دول العالم في العمل الإنساني.

وقد حرص حكّام هذه البلاد على مواصلة هذه المسيرة المشرفة، فأصبح العطاء منهجاً ثابتاً في السياسة الإماراتية، وأصبحت الإمارات نموذجاً للإيثار والعطاء والشهامة والنجدة والفزعة، وقد ترجمت هذه الرؤية إلى العديد من المشاريع التطوعية التي عبرت الحدود لتصل إلى بقاع عديدة في العالم.

واعتزازاً بهذه القيمة، تحتفي الإمارات، في الـ (19) من رمضان من كل عام بـ «يوم زايد للعمل الإنساني»، بالتزامن مع ذكرى رحيل المؤسس المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - للاحتفاء بسيرته، واستلهام تجربته الرائدة في العطاء والتسامح.

زار غيث أكثر من 21 دولة عربية وآسيوية

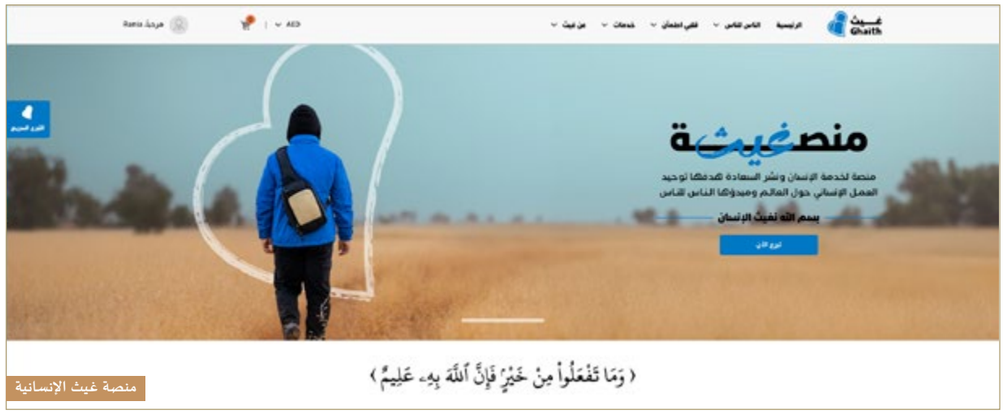

قلبي اطمأن

«قلبي اطمأن» إحدى المبادرات الإماراتية في العطاء، وهو برنامج تلفزيوني، حقّق شهرة واسعة، حتى أصبح أيقونة برامج العمل الخيري في العالم العربي. عُرض لأول مرة في 13 مايو 2018، على قناة أبوظبي، وحقق نسبَ مشاهدةٍ عالية، وأصبح من سمات شهر رمضان المبارك.

وعلى مدى سبع سنوات، زار «غيث» أكثر من (21) دولة من الدول العربية والآسيوية، حيث التقى بالكثير من الفقراء والمهجَّرين واللاجئين المتضررين جراء الحروب والاضطرابات، وأسهم في تغيير حياة الكثيرين. يلتقي «غيث» الذي يخفي وجهه في كل حلقة مع أحد المحتاجين، ويتعرف على قصته، ويوفر له حاجته من مال، أو سكن، أو علاج، أو مشروع يعيش منه أو دراسة للأبناء، فيساعده على الحياة الكريمة، ويعيد له الأمل من جديد، وبذلك حقق البرنامج أمنيات الآلاف. ويقف وراء البرنامج فريق عمل كبير يستقبل رسائل الحالات من مختلف الدول، ويقوم بمسح ميداني حول كل حالة، ويتأكد من معطياتها واحتياج أصحابها للمساعدة والعون والإغاثة.

وتجاوز البرنامج الحلول الفردية، ليقدم في بعض الأحيان حلولاً عامة، كتأهيل القرى، والمجتمعات الفقيرة، ودعم متضرري الأعاصير، وتوفير عشرات القوارب كفرص عمل لمن يمارس مهنة بيع المواد الغذائية في الأسواق العائمة، وتأهيل وتحسين أوضاع العاملين في المناجم، بتوفير أجهزة لوحية تسهم في تعليم الأحداث عن بُعد، وكرسي طبي لعلاج الأسنان، وتأهيل مكان للترفيه والألعاب، وتأهيل الإصلاحيات والسجون.

قيم زايد

يقتفي البرنامج قيم ووصايا الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - في تقديم العون لكل محتاج بصرف النظر عن الدين، أو العرق، دون مقابلٍ، أو منٍّ أو مباهاةٍ، وهذه سمة أصيلة في التجربة الإماراتية، ويبدو ذلك المنهج في كلمات «تتر» البرنامج التي تقول:

«حين أعطى دون أن أدري لمنْ
فلا مقابل أرتجي منهم ولا حتى الثمنْ
ذقتُ السعادةَ حينها
روحي سمت بعطائها
قلبي اطمأن
عش في الحياةِ مسافراً
دمْ للسعادةِ ناشراً
لا شيءَ يبقى كما ترى
إلا بما قد تُذكر
كنْ خيّراً
عِشْ للقلوب مبادراً
كُنْ ملهماً ومؤثراً»

وحقق البرنامج شهرة واسعة في العالم العربي، وأصبحت كلمة «غيث» من أكثر الكلمات بحثاً في محركات البحث، وغدت مقابلة «غيث» حلم الكثيرين، ولعل أحد الأدلة على نجاح البرنامج ارتفاع عدد المشتركين على «يوتيوب» إلى نحو 4.56 من الملايين من المشاهدين. ويحظى البرنامج بدعم العديد من الجهات الرسمية، في مقدمتها الهلال الأحمر الإماراتي، وعدد من المؤسسات مثل شركة أدنوك ومصرف أبوظبي الإسلامي.

ويكشف البرنامج دور الإمارات المتميز في العملين الخيري والإنساني، ويقدم - عبر حلقاته - الكثير من قصص الكفاح والقيم الإنسانية لدى الشعوب العربية، ويعلي من قيم العمل الخيري، فلم يقتصر دوره الآن على مجرد المساعدة وتقديم العون، ولكنه ألهم وشجّع الكثيرين على المشاركة، ليكون العطاء تياراً اجتماعياً أساسياً ينشر التراحم والتكاتف في المجتمعات.

شخصية غيث

تعتمد فكرة البرنامج على «غيث» وهو شخصية إماراتية غير معروفة تجوب البلدان المختلفة، وتقدم المساعدات للفقراء والمحتاجين، يرتدي زياً رياضياً مزوداً بغطاء رأس، ويحمل حقيبة ظهر، ويبدو العلم الإماراتي على ذراعه، وتعتبر هذه الشخصية بصوتها الغامض ومشاعرها الأخوية الحانية أحد المقومات الرئيسية لنجاح البرنامج.

وحرص البرنامج على إخفاء شخصية «غيث»، بوسائل عدة مثل غطاء الرأس، وزاوية التصوير التي تحرص على عدم إظهار وجهه، وكذلك نبرة الصوت التي خضعت للتعديل لإضفاء المزيد من الغموض على الشخصية. وحتّى تظل شخصية مقدم البرنامج سريّة، حرص القائمون عليه على استحداث تغييرات وإضافات في زيها، مع المحافظة على تيمة وروح وهوية الشخصية لتقليل احتمالات معرفة الجمهور لغيث خلال تنقله بين الدول.

وأثارت شخصية «غيث» العديد من التكهنات على مواقع التواصل الاجتماعي، وقدّم بعضهم توقعاتهم حول الشخصية، وقال غيث نفسه إن «المشاهدين أكدوا أن شخصية (غيث) يجب ألا تكشف وجهها، ومن المشاهدين من عرف هويته، ولكنه كان وفياً لرسالة غيث فحفظ سريته».

قصة البرنامج

وكشف «غيث» عن قصة البرنامج، قائلاً: «لأن الخير فطرة البشر، ولأن الإنسان لابد أن يبدأ بنفسه، بدأت فكرة (قلبي اطمأن)، وولد (غيث)، وهو رسالة ودعوة ليبدأ كل غيث ساكن فينا للالتفات إلى جاره، وصديقه، أو حتى لغريب في الشارع، ليقدم ولو مساعدة بسيطة، تؤكد أن الناس للناس، وأن الدنيا لا تزال بخير، فالمساعدة التي تقدمها لكل قريب أو بعيد، بغضّ النظر عن أصله وكينونته هي حق له علينا».

وأضاف أن «شخصية (غيث)، كانت تحدي عند رسم ملامح البرنامج، فحرصنا على التدقيق في تفاصيله، فغيث ليس بشخص يبحث عن الشهرة، إنما هو فرد حمل رسالة العطاء في حقيبة مملوءة بالسعادة والأمل، ليجوب العالم، محاولاً التقرب من المحتاجين، ومفاجأتهم، وتفريج كربهم».

أصبحت مقابلة غيث حلم الكثيرين

طبيب الغلابة الدكتور محمد مشالي يحتضن غيث

وأوضح أن «فريق عمل من 15 شخصاً من الإمارات وخارجها، اجتمعوا عام 2018 ليشكّلوا هوية البرنامج، وتوجهه، وتفاصيله، وعملوا على ما يقرب من ستة أشهر حتى وصلنا إلى عرض أول الحلقات»، مشيراً إلى أن الجميع يحملون رسالة واحدة، يرجون منها أجراً من الله وإحسانه.

وأكد «غيث» أنه «بفضل الله، وبفضل تبنّي المشاهدين لرسالة البرنامج، استطعنا تحقيق أرقام مشاهدات ضخمة، ومازالت الأرقام في تزايد في وسائل التواصل الاجتماعي كلها، وهو ما تجاوز توقعاتنا، وهذا دليل على أن الناس من جميع أنحاء العالم وصلتهم رسالتنا، لأنهم بحاجة إلى مادة تصب تركيزهم على فكرة عمل الخير، والرغبة في المساعدة، بغض النظر عن الشخص الذي يقدمها».

وعن العقبات التي واجهها فريق البرنامج، قال غيث: إن «من العقبات التي واجهها البرنامج التصوير، حيث اقتضت طبيعة البرنامج إخفاء الكاميرات، وكذلك استخدام سيارات مظللة، وتقنيات معقدة، وهو ما جعل الحلقة الواحدة تحتاج لساعات في التصوير». وبيّن مقدم «قلبي اطمأن» أن «غيث ليس ببطل خارق، ويجب ألا يكون صاحب أموال طائلة، أو أن تكون له أي صفة أو هيئة غير المحبة»، فكل إنسان يجب أن يكون من الدالين على الخير، وممن يساعدون الناس بمال، أو كلمة طيبة أو ابتسامة أو جبر خاطر، ليكون كل شخص غيثاً للآخرين، مشيراً إلى أن البرنامج فتح المجال للمشاهدين ليشاركوا في صنع السعادة للآخرين. وترحّم «غيث» على زايد الخير والعطاء وملهم المسيرة، مؤكداً أن هذا البرنامج أحد ثمار ما زرعه في أبنائه وشعبه، حيث كان العطاء من الثوابت الأصيلة، وهو ما يتجسد في الواقع حتى الآن.

منصة غيث الإنسانية

ومواكبة للنجاح الكبير لبرنامج «قلبي اطمأن»، أطلق القائمون عليه «منصة غيث الإنسانية» لتعزيز فكرة البرنامج في نشر قيمة العطاء، وتقديم المبادرات الخيرية والإنسانية في مختلف الدول. تهدف المنصة إلى توحيد العمل الإنساني، وتقديم حلول مبتكرة لتقليل الفقر في العالم تحت مبدأ «الناس للناس»، بما يشكّل فرصة لمُحبي الخير ليكونوا جزءاً من التغيير في حياة الناس، وبوابة لكل شخص للاستفادة والانتفاع من المشاريع، والمبادرات المعروضة على المنصة، وأبرز مشاريعها: برادات مياه، وقف شجرة، وقف مخبز، طرود، علاج، أيتام.

وأتاحت المنصة فرصة للتبرع، تتضمن مجالات عدة مثل «التمكين»، وهي مشاريع مستدامة لتمكين القرى والمجتمعات من توفير حياة أفضل للإنسان، و»الهدايا»: وهي عبارة عن

هدية يرسلها المحسن لمن يحب، تدعم المشاريع الإنسانية وتترك أثراً في حياة الناس، و»درهم الغيث»: وهو درهم واحد يغيث الإنسان يمكّن المجتمعات وينشر الخير، و»المبادرات»: وتتضمن مبادرات فردية تغيّر حياة الناس، وتنمي المجتمعات.

التبرع بالمشاركة

وكشف غيث مقدم برنامج «قلبي اطمأن» بموسمه السابع في فيديو شاركه عبر «إنستغرام»، عن فكرة جديدة تقوم على «التبرع بالمشاركة»، تحت شعار «كل بدوره بطل.. وكل بمشاركته بطل»

وأوضح أن «هذه فرصة للمساهم لاختيار أي مشروع موجود، ويرسله أو يشاركه في أي وسيلة من وسائل التواصل الاجتماعي، وانتشار هذا المشروع ووصوله للناس سيحفزهم ويتبرعون فينفذ المشروع».

وأضاف أن «المساهم يمكنه الدخول إلى حسابه في المنصة ليرى عدد المتبرعين بسببه، والنقاط المترتبة على ذلك، والتي تتحول لمبالغ مالية في حسابه، يمكن من خلالها أن يتبرع للمزيد من مشاريع المنصة».

إغاثة غزّة

في إطار جهوده لدعم المحتاجين في فلسطين، وبالتنسيق مع عملية «الفارس الشهم 3» التي أطلقتها دولة الإمارات العربية المتحدة لإغاثة الشعب الفلسطيني، نجح البرنامج في الموسم السابع في دخول غزة، وتقديم العون للكثير من أهلها.

وفي هذا الإطار، أطلقت منصة «غيث» مجموعة من المبادرات بعنوان «بسم الله نغيث غزة» تتضمن: الكفالات، والتعليم، والعلاج، والدعم النفسي، والطرود الغذائية، ومن خلال صفحة تفاعلية في المنصة، أعلن «غيث» عن مبادرة لكفالة أيتام غزة كافة الذين تجاوز عددهم 25 ألف يتيم، لتمكين أي شخص من كفالة يتيم بشكل شهري على مدار العام، والمساهمة في شراء احتياجاته الأساسية، بالإضافة إلى الألعاب والملابس وأكثر، مشيراً إلى أنَّ المبادرات كافة ستنفذ بأيادي الفلسطينيين القادرين على إيصال المساعدات إلى مستحقيها في القطاع ليكونوا هم سفراء الغيث في غزة.

وأطلق «غيث» مبادرة «الخيام الملوّنة» التي أطلقها شباب وشابات غزة لتقديم خدمات الدعم النفسي، ووجّه نداءً لإيجاد بدائل تعليمية تضمن استمرار الأطفال في الحصول على حقهم في التعليم لحين إعادة إعمار غزة وتأهيل المدارس، بعد تضرر أكثر من 70% من المؤسسات التعليمية في القطاع، وانعدام فرص التحاق الأطفال في مدارسهم.

وضمن إحدى عمليات طيور الخير؛ شارك غيث في إحدى عمليات الإنزال الجوي للمساعدات الإنسانية والإغاثية للفلسطينيين في غزة، وعرض أنواع الطرود والسلال الإغاثية التي يتم إدخالها إلى غزة، والتي تغطي جميع احتياجات الأسر والنساء والأطفال. كما زار المستشفى الميداني الإماراتي في منطقة رفح، والمستشفى العائم في العريش، وتحدث إلى كل المرضى والمصابين، والكوادر الطبية العاملة، بالإضافة إلى المتطوعين.

رمزية «غيث»

كان اختيار اسم «غيث» لمقدم البرنامج موفقاً إلى حدٍّ كبير، فهو يتفق مع الدور الذي يمارسه وهو غوث المحتاجين، فالغوث في اللغة: الإعانة والنصرة عند الشدة، يقول ابن فارس - أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي: «الغين والواو والثاء كلمة واحدة، وهي الغوث من الإغاثة، وهي الإعانة والنصرة عند الشدة».

ولا شك أن نجاح «قلبي اطمأن»، وامتداد نطاق عمله إلى بلدان كثيرة، ومصداقيته في خدمة الناس أياً كانت جنسياتهم وأديانهم جعل لـ «غيث» رمزية خاصة، ويمكن استقراؤها فيما يلي:

1. قدّم البرنامج صورة دولة الإمارات العربية المتحدة الحقيقية المعطاءة المتسامحة، التي تعلي من قيمة الإنسان، وتقدّم العون والمساعدة للجميع دون النظر إلى جنسياتهم وأعراقهم ومذاهبهم.
2. نجح البرنامج في تحويل العمل التلفزيوني الموسمي إلى رسالة مستمرة طوال العام، وتحويل رسالة الخير من الدعم الفردي أو المجتمعي المباشر إلى فكرة عامة يمارسها، ويشارك فيها الجميع.
2. أصبح البرنامج بفكرته وعنوانه وشخصية مقدمه الغامضة نموذجاً للتجديد والابتكار في العمل الخيري، وهو أمر لابد من دراسته وتعميمه، حيث يتطلب العمل الخيري - مثله مثل أي عمل -الابتكار في المحتوى والمضمون.

غموض الشخصية

وأسهم غموض الشخصية في نجاح «غيث» وتحوله إلى حديث الناس، وأسهم ذلك في تأصيل مبدأ أساسي وهو العطاء في الخفاء، وذلك للأسباب التالية:

1. العمل الخيري من سماته الإيثار والتواضع، والبذل والعطاء دون مباهاة، وإخفاء الشخصية يضمن ذلك.
2. التوجيه الديني بعمل الخير في السرّ، عن أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم: سبعة يُظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه.. فذكر الحديث، وفيه: «ورجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها، حتى لا تعلم شمالُه ما تُنفق يمينه». متفقٌ عليه.
3. غموض الشخصية جعل «غيث» أشبه بالشخصيات الأسطورية التي وردت في التراث العربي والعالمي، مثل «مصباح علاء الدين» الذي يحقق الأحلام، أو «بابا نويل» الذي يزور الأطفال عشية عيد الميلاد ويقدم لهم الألعاب.
4. إخفاء الشخصية أضفى نوعاً من الغموض، وضاعف من التساؤلات حول صاحبها، وهو ما أضفى المزيد من الإثارة والفضول على البرنامج، وهو ما أسهم في ترويجه.
5. إخفاء وتحييد شخصية المقدم، ساعد في تركيز الحلقة على الحالة الإنسانية، التي كانت في كثير من الأحيان أشبه بقصة درامية مؤثرة، تثير تفاعل المشاهدين، وتحفّزهم على العطاء.

برنامج «قلبي اطمأن» أحد نماذج العطاء الإماراتية، ويمكن القول إنه «فزعة» إماراتية تجبر الخواطر، وتؤكد القيم الإنسانية التي جُبل عليها شعب الإمارات، وهي نفسها قيم «زايد» التي تحفظها الأجيال ■

تجاوز غيث الحلول الفردية ليقدم حلولا للعديد من المشكلات الجماعية

مبادرات متعددة لغيث في غزة

جسد غيث الشخصية الإماراتية المحبة والمعطاءة

الفزعة.. أيقونة الشعب الإماراتي في التلاحم لمواجهة الأزمات

خالد بن محمد مبارك القاسمي

تعد الفزعة واحدة من أهم القيم التي جُبل عليها المجتمع الإماراتي منذ القدم، وتمثل دوراً تطوعياً مهماً يعكس التلاحم المجتمعي، ويسهم في تماسك المجتمع وقوة ترابطه، ولاسيما في أوقات الأزمات.

معنى الفزعة

الفزع في مجمل معانيه يعني الخوف والذعر، كما يعني الغوث والمساعدة، فهو من الأضداد، وجاء في لسان العرب: الْفَزَعُ: الْفَرَقُ وَالذُّعْرُ مِنَ الشَّيْءِ، وَالْمَفْزَعَةُ، بِالْهَاءِ: مَا يُفْزَعُ مِنْهُ. وَفُزِّعَ عَنْهُ أَيْ كُشِفَ عَنْهُ الْخَوْفُ. وَالْمُفَزَّعُ: الَّذِي كُشِفَ عَنْهُ الْفَزَعُ وَأُزِيلَ. وَفَزِعَ إِلَى الْقَوْمِ: اسْتَغَاثَهُمْ. وَفَزِعَ الْقَوْمُ وَفَزَعَهُمْ فَزْعًا وَأَفْزَعَهُمْ: أَغَاثَهُمْ. يُقَالُ: أَفْزَعْتُهُ لَمَّا فَزِعَ أَيْ أَغَثْتُهُ لَمَّا اسْتَغَاثَ[1]. وتعد «الفزعة» من التراث الإماراتي وتعني، المبادرة لتقديم العون والمساعدة، وهي من القيم الإماراتية الأصيلة التي تعتز وتفتخر بها دولة الإمارات العربية المتحدة، وكان أهل الإمارات، وما زالوا، يفزعون ويهبّون للمساعدة في أوقات الرخاء والشدة مما يقوي الترابط الاجتماعي وعادة ما يتحلى راعي الفزعة بشيم عديدة تكون الحافز الرئيسي لعملية التطوع ومنها: الإيثار، والشهامة، والكرم، والشجاعة[2].

وللفزعة ظهورفي الأمثال الشعبية الإماراتية، ومنها المثل القائل: «ينفعك لي في الضيق يِفزعك». ويعني المثل أن الصديق الوفي هو الذي يهرع عند الشدائد ويقدم لك المساعدة المطلوبة[3].

إنشاء دولة الإمارات لمؤسسات العمل التطوعي

وإدراكاً من دولة الإمارات العربية المتحدة لأهمية الفزعة والعمل التطوعي، فقد عملت الدولة على إنشاء العديد من المؤسسات لهذا الغرض، وتعد الإمارات من أكثر الدولة نجاحاً في عملية مأسسة العمل التطوعي حيث تحتضن العديد من الجهات والمؤسسات والبرامج المعنية في هذا المجال مثل منصة «متطوعين.إمارات»، وهيئة الهلال الأحمر الإماراتي، وأكاديمية الإمارات للتطوع في أبوظبي، والبرنامج الوطني التطوعي لحالات الطوارئ والأزمات والكوارث، وبرنامج دبي للتطوع، وصندوق الوطن، ونظام حاضنات التطوع وغيرها الكثير[4]. وأطلق مركز أبوظبي للتعليم والتدريب التقني والمهني مبادرة أطلق عليها اسم «فزعة»، وهي مبادرة استراتيجية بالمشاركة مع هيئة أبوظبي للثقافة والسياحة، وهي عبارة عن برنامج للعمل التطوعي وخدمة المجتمع وتعمل هذه المبادرة وفق آلية محدودة على دمج الشباب في الحراك الثقافي الفاعل في عموم أرجاء الدولة، وذلك للمساهمة في بناء جيل الشباب من خلال عملية التطوع التي تعُدّ جزءاً من ثقافة دولة الإمارات العربية المتحدة.

وتتمثل أهداف «فزعة» في الآتي:

تنمية ولاء الطلاب، ووطنيتهم، وقدرتهم على التعلم. إعداد وتدريب المواطنين من أجل لعب دور إيجابي وفعال في المجتمع، والمساهمة في تنمية شخصية الطالب، وشعوره بالمسؤولية وتعزيز الوعي الاجتماعي لديه، وتكوين أخلاقيات العمل، والقيم الاجتماعية، وتطوير مهارات التعاون لدى الطالب، وبناء الجيل الإماراتي الصاعد على العادات والتقاليد التراثية الأصيلة[5].

الفزعة ومواجهة جائحة كورونا

كشفت جائحة كورونا «كوفيد19» عن معدن الشعب الإماراتي، وقوة التلاحم الإماراتي الأصيل، حيث كانت الفزعة منذ بداية تطبيق برنامج التعقيم الوطني، ليسجل المتطوعون إلى جانب الفرق الحكومية صوراً مشرفة من العمل والالتزام، وصولاً إلى دورهم في مراكز المسح والتعقيم كأحد جنود أبطال خط الدفاع الأول في القضاء على الفيروس، مؤكدين أن ما يقومون به يعد جزءاً أصيلاً من الثقافة الإماراتية التي يكتسبها كل من يعيش على أرضها الطيبة، مناشدين أفراد المجتمع القيام بدورهم في الحفاظ على سلامتهم وحماية عائلاتهم للوصول إلى بر الأمان[6].

> تعد الفزعة واحدة من أهم القيم التي جُبل عليها المجتمع الإماراتي منذ القدم، وتمثل دوراً تطوعياً مهماً يعكس التلاحم المجتمعي، ويسهم في تماسك المجتمع وقوة ترابطه، ولاسيما في أوقات الأزمات

فخلال أزمة كورونا «كوفيد19-»، قامت وزارة الصحة ووقاية المجتمع الإماراتية بتدريب المتطوعين لدعم المنظومة الطبية في دولة الإمارات العربية المتحدة. كما أطلقت المؤسسة الاتحادية للشباب مبادرات وطنية عدة لرفع جاهزية الشباب الإماراتي في التعامل مع الأوبئة. كذلك أطلقت المؤسسة أيضاً بالتعاون مع وزارة تنمية المجتمع الدليل الإرشادي للاعتناء بكبار المواطنين أثناء انتشار الأوبئة. كما اعتمد مجلس الوزراء بدولة الإمارات تشكيل اللجنة الوطنية العليا لتنظيم «التطوع خلال الأزمات»، وذلك بهدف تطوير منظومة متكاملة ومستدامة للعمل التطوعي في الدولة أثناء الأزمات، وبالتعاون مع الأطراف المعنية بالعمل التطوعي كافة في الدولة من أفراد ومؤسسات. وتشرف اللجنة على عمل الجهات التطوعية كافة على مستوى الدولة خلال الأزمات، وتفعيل منصة «متطوعين. إمارات» كمنصة رئيسية لاستقبال واعتماد طلبات التطوع وقت الأزمات، والإشراف على المتطوعين وقت الأزمات وضمان صحتهم وسلامتهم وتقديم جميع الدعم اللازم لهم، بالإضافة إلى التنسيق مع الجهات المحلية الحكومية وشبه الحكومية لتوحيد الحملات التطوعية خلال الأزمات[7].

الفزعة ومواجهة الكوارث الطبيعية

أسهمت جهود فرق الإنقاذ التطوعية في تنفيذ عمليات إخلاء السكان من إمارة الفجيرة والمناطق الشرقية المتضررة من السيول والأمطار - التي ضربت البلاد في شهر يوليو 2022 - بالتوازي مع تحرك فرق الطوارئ والإنقاذ من مختلف الإمارات القريبة والتابعة لوزارة الداخلية لدعم عمليات الإنقاذ في المناطق المتضررة من الأمطار. وبرز من بين فرق الإنقاذ التطوعية فريق «إنقاذ الإمارات»، الذي حرص أعضاؤه على التحرك الفوري من مختلف إمارات الدولة صوب إمارة الفجيرة والمنطقة الشرقية للمساهمة في إنقاذ السكان المتضررين، لاسيما الأطفال والنساء وكبار السن[8]. ونظراً لهذه الجهود، فقد كرَّمت هيئة الهلال الأحمر الإماراتي، المتطوعين الذين شاركوا في إيواء ومساندة المتضررين من تلك السيول والأمطار، وذلك تقديراً لدورهم في تعزيز استجابة الهيئة الإنسانية تجاه المتأثرين والوقوف بجانبهم حتى انجلت الظروف المناخية التي تأثرت بها أسر عديدة في تلك المناطق[9]. وخلال حالة

عدم الاستقرار الجوي التي تعرضت لها دولة الإمارات في شهر إبريل 2024، سجل المواطنون والمقيمون في دولة الإمارات أسمى معاني التكاتف والعون جنباً إلى جنب مع طواقم الأجهزة الشرطية والأمنية والبلديات والدفاع المدني وغيرها، واستطاعوا بذلك أن يجسدوا باقتدار نهج المغفورله - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - في جعل العمل الإنساني ثقافة ومنهج حياة، إلى أن باتت دولة الإمارات مثالاً يُحتذى به في العطاء والتسامح، وعززت مكانتها في مقدمة سباق الخير من خلال استجابتها لكل نداء إنساني[10].

باحث في تاريخ الخليج العربي

الهوامش:

1. ابن منظور: لسان العرب، ط. 3، دار صادر، بيروت، 1414هـ - 1993م، ج 8، ص 252 - 253.
2. فزعة: مركز أبوظبي للتعليم والتدريب التقني والمهني، على الرابط التالي: https://www.actvet.gov.ae/ar/Initiatives/Pages/Fazaa.aspx
3. القِيم الاجتماعية في الأمثال الشعبية الإماراتية (دراسة تحليلية)، عبد الله سليم عمارة وآخرون: مركز حمدان بن محمد لإحياء التراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ط 1، 2015. ص 92 - 93.
4. متطوعو الإمارات.. قصص بطولية في العطاء والتفاني: وكالة أنباء الإمارات (وام)، بتاريخ 29 يوليو 2022، على الرابط التالي: https://wam.ae/ar/details/1395303070440
5. فزعة: مركز أبوظبي للتعليم والتدريب التقني والمهني، على الرابط التالي: https://www.actvet.gov.ae/ar/Initiatives/Pages/Fazaa.aspx
6. متطوعون: جائحة «كورونا» أكدت التلاحم المجتمعي الأصيل في الإمارات: موقع صحيفة البيان، بتاريخ 15 مايو 2021، على الرابط التالي: https://www.albayan.ae/uae/news/2021-05-15-1.4163875
7. التطوع لمواجهة فيروس كورونا المستجد (كوفيد - 19): البوابة الرسمية لحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة، على الرابط التالي: https://u.ae/ar-ae/information-and-services/justice-safety-and-the-law/handling-the-covid-19-outbreak/volunteering-to-fight-covid-19
8. متطوعون لإخلاء العالقين والمتضررين من الأمطار: موقع الإمارات اليوم، بتاريخ 29 يوليو 2022، على الرابط التالي: https://www.emaratalyoum.com/local-section/other/2022-07-29-1.1654078
9. الهلال الأحمر يكرم المتطوعين المشاركين في إيواء المتضررين من الأمطار والسيول الأخيرة في الإمارات الشمالية: وكالة أنباء الإمارات (وام)، بتاريخ 22 سبتمبر 2022، على الرابط التالي: https://2u.pw/TqMxKVHw
10. المواطنون والمقيمون يسجلون أسمى معاني التكاتف: موقع صحيفة البيان، بتاريخ 21 إبريل 2024، على الرابط التالي: https://www.albayan.ae/uae/news/2024-04-21-1.4858715?itm_source=parsely-api

الفزعة والتطوع
من السنع الإماراتي الأصيل

محمد نجيب قدورة

لا بدّ من العلم لتصويب المعاني، حيث المعروف أن الفزعة مرتبطة بالخوف سواء من الشيء أو بالشيء حسب المثل العربي: «يا له من فزعة! كم من مرّة رأيناه يختبئ أو يهرب» لكن الأصل الاجتماعي أن الفزعة كلمة عربية تعني الإغاثة والنجدة وهو المعنى المستخدم خليجياً فيكون محققاً لأسلوب العرب القديم في التعاون لإنجاز الأعمال مجاناً حتى لو كانت بناء بيت، فالفازع هو المغيث، ومنها في أمثالنا الشامية (فزعة عرب) كمؤشر للتماسك الاجتماعي كما نراه في المثل المقول في أهمية الفزعة للشاعر مهدي بن مسفر الحبابي:

(الفزعـــة اللـي مـا تجي وقـت اللـزوم
أقســـم بـرب البيـت مـا ودّي بهـا)
فـي ذمتـي مـا ينفعـك غيـر القـروم
أهـل الوفـا وقفاتهـا مـن طيبهـا
وشريحـــة الجـــوّال مليانـه ارقـــوم
لكـــن بعضهـــا قـــل اللـــه صيبهـــا

والمثل الآخر:

الفزعـــة اللـــي مـا تجـــي حزّة الضيـــق
الفزعـــة اللـــي مـا تشيـــلك مـــن القـــاع

قالت نفسي: ما دمنا مع فزعة الطيب فلا بأس أن يكون هذا الكلام مفتاحاً لباب الفكرة.

قلت: الفزعة والتطوع توأمان لفرقدين ما لهما انفصال كأنهما من صالح الأعمال في كل طريق يسهّل الدخول إلى الجنة أليس من تطوع خيراً ممن اكتفى بحرفية العمل وزاد عليه.

شفافية المعاني

أذكر أولئك الرجال الأشاوس الذين فزعوا لي ولا أنساهم في مواقف تسعد لهم القلوب والأرواح، تخيل يا رعاك الله أنك في وضع يرثى له، سواء أكان حادثاً أم مرضاً أم حاجة أم تنويراً بفكرة ونصيحة.. ستقول عندها: أنا عاجز عن شكرك، بالطبع لأنك فهمت معنى قول الشاعر الإمام الشافعي حيث الناس بالناس في الهبّات:

وأحســـــن النـاس فـي أخلاقـــه رجـــل
تقضـــى علـــى يـــده للنـاس حاجـــات

لقد رأيت الفزعة لبشر وحيوان، فقلت في نفسي: لا بدّ أن وراء هذا السلوك مصفوفة من القيم التي امتزجت بلحام الجسد فتشكلت صهارة مشاعر تتحكم في حركة النفس كهمة وفاعلية... ونحن هنا نتحدث عن فزعة الخير والعمل النبيل ولا نتحدث عن فزعة تارات جساس بن مرة الذي هبّ للانتقام من زوج أخته بعد سماع صوت خالته البسوس وهي تصرخ في مشهد دموي كان فيه السهم يضرج جسد الناقة الغافلة وجسد حامي الحمى وائل بن ربيعة (كليب).

نعم يا قوم الفزعة مقرونة بالنخوة، والنخوة هبة لعمل طوعي نابع من الذات دون حفز أو تحريض وقد يكون بهما معاً، لكن الأعراف الاجتماعية والدينية رسمت الطبائع وشرّعت الشرائع التي تحضّ على ما يوافق الفطرة الخيّرة النيّرة وتحول دون الانزلاق إلى الاتجاه المعاكس الذي يسمّى التهور والإسراف والثوران ... من هنا كان علينا واجب فهم معاني الفزعة والتطوع بشفافية أبعد ما تكون عن الطيش وفورة الدم. بل نحن نتحدث عن همم أهل البلاد في التآلف والتراحم سعياً لشدّ عرى المحبة وانسجام الطباع، فكما تدين تدان.

> لطالما وعينا من تراث المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - رحمه الله تعالى - أن الأخ عون لأخيه وهو يتمثل تعاليم الشرع متجاوزاً بأعماله الخيرية الإنسانية جمعاء، لقد فزع للأرض وإصلاحها، فصار بطلاً للأرض، وفزع للكوارث والنكبات فغدا رمزاً للإنقاذ

الفزعة والتطوع في مدرسة زايد الخير

لطالما وعينا من تراث المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - رحمه الله تعالى - أن الأخ عون لأخيه وهو يتمثل تعاليم الشرع متجاوزاً بأعماله الخيرية الإنسانية جمعاء، لقد فزع للأرض وإصلاحها، فصار بطلاً للأرض، وفزع للكوارث والنكبات فغدا رمزاً للإنقاذ، وتطوع هو بنفسه لإعادة النفوس المتنافرة إلى جادة الصواب، فهل عجيب أن نحسّ ونستوعب أثر زايد

الخير في نسيج الروح الفزعية والتطوعية منذ الاتحاد إلى ترميم فلج الصاروج وتحقيق حلم العبور على جسر المقطع وصولاً إلى حلم أكبر في أن يتطبع أهل الإمارات بأسناع أجدادهم في مجالسهم وديراتهم واستيعاب سيل الوافدين إلى الإمارات بحسن المعاملة والقدرة على تجاوز العقبات وتعدد الجنسيات، والانطلاق إلى العالمية في السجايا العربية، كلما اشتكى مكان فيه أو حيوان أو نبات، ولا غرابة في هذا (فالرزق رزق الله والخلق خلق الله) كما هي أقوال زايد الخير وأفعاله المستدامة كإرث سلوكي إماراتي محمود.

كيف نتقاسم الهموم

هذا هو التوجيه في مثل «الصديق وقت الضيق» وقول الشاعر:

صديقـــي مـــن يقاسمنـــي همومـــي
ويرمـــي بالعـــداوة مـــن رمانـــي
وينصرنـــي إذا مـــا غبـــت عنـــه
وأرجـــوه لنائبـــة الزمـــان

لقد تحوّلت الأشعار إلى تربية سلوكية وأنشودة إنسانية، فإذا تابعنا قول الشاعر اتسعت دائرة الفزعة والروح التطوعية بقوله:

ويحفـــظ حبـــه ويفيـــض ودي
بحـــب الخيـــر مفتـــاح الأمانـــي

إنها كلمات رائعة يتمثل بها كل (فزّاع) و(متطوع) ففي المصطلحين مبادرة اجتماعية تمتن الروابط التضامنية كمثل ما كان يقول وما يقوم به رجل من الإمارات نموذجاً حيث امتشق فهمه لفكرة الفزعة والتطوع في سياق آخر، ألا وهو الغيرة على اللغة العربية فهب بروح وقّادة عاشقاً للعمل الطوعي ليصلح ذات البين ويقوم بالوفاق الأسري ويحرص على الحياة السعيدة والفضائل الحميدة وفي كل ذلك لم يكشف عن مستور ما يفعل إلا ما عرفناه من آثار يديه وكلماته المثقفة فكان المتطوع علي الدباني ابن الإمارات البار مشروع فزعة ووثيقة تتطوع تذكرها مشاريع العمل الخيري، وكان - رحمه الله - يقول لي وأنا أجالسه في مكتب مصنعه وفي بيته المجاور لي: إذا كان ما أصنعه حميداً عند الناس فكيف سيكون عند الله، هذا ولا أنسى الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان عندما حضر عرس ابن الدباني في إشارته إلى الدباني: هكذا هم الرجال، أقول: ليس هذا بمستغرب على رجال الإمارات، فالفزعة في الأحوال الطارئة غدت محور اهتمام الدولة، والأعمال التطوعية صار لها مؤسسات ترعى الفعاليات الاجتماعية والثقافية في مبادرات (كلنا شرطة) و(ساند) و(تكاتف) و(معاً) ولا شك أن هناك برامج وطنية لإدارة الطوارئ والأزمات والكوارث ومنصات راعية كالهلال الأحمر الإماراتي، بما في ذلك مراكز في كل إمارة للتطوع وفي قمتها «أكاديمية الإمارات للتطوع» في أبوظبي. قالت لي نفسي: تعني أن مجالات الفزعة والتطوع مفتوحة بلا حدود؟ قلت: مساعدة الأشخاص والصيانة وجمع النفايات أدناه، ثم نرتقي إلى سلم الاحتياجات الخاصة والفنون والدورات المجانية وتعويد الأطفال على مساعدة الكبار في حمل الأغراض وربما جمع أوراق الشجر المتساقط لنخرج جميعاً بشعار التطوع بناء أفضل للأجيال القادمة... وصدق الله العظيم (فمن تطوع خيراً فهو خير له) بل هو واجب في الفزعات عند سدّ أي نقص أو طارئ لا تتم السلامة المجتمعية إلا به ■

أديب وباحث فلسطيني

الفزعة الإماراتية..
أصالة وتراث وتكافل اجتماعي

عبد الرزاق الدرباس

تعتبر الفزعةُ تقليداً شعبياً مشهوراً في معظم المجتمعات، وإن تعددّت أسماؤها، ففي بلادِ الشام يسمونها (عِينة) من العون، وهي مشاركةٌ طوعية في عملٍ أو مناسبة بدافع الجيرةِ أو القرابة، بطلبٍ أو دونَ طلب، وفي مصر يقولون (إيدك معايا، افزع لي) أي بادر لمساعدتي، وفي المغرب العربي يدعونها (الغَوثة)، ومهما تعددت أسماؤها فلها الهدفُ النبيلُ نفسه، غير أن للفزعة في تراث الإمارات شأناً مهماً، يأتي من الماضي العريق ويستمر في الحاضر، ويتعلمه الأطفالُ ليحافظوا على استمراره في المستقبل، وفي هذا المقام سنبسطُ القولَ في الفزعة الإماراتية، من جوانبها التاريخية والتراثية والمجالاتِ والمظاهر التي تشملها، من نافذة التراثِ الوطني والتقاليد الشعبية.

وكلمة الفزعة جاءت من الجذر الثلاثي (ف، ز، ع)، والمعنى القريب لها شدّة الخوف، واضطراب الاتجاه، وخطورة الموقف، والمفزوع هو من حلّ به الفزعِ والخوف، والفازع من لبّى نداء الاستغاثة على وزن اسم الفاعل، وصيغة المبالغة الدالة على الكثرة منه (فَزوع، فَزّاع، مِفزاع)، والكلمة وردت في معجم المعاني ثنائية المقصد، مثل كلمة مُحتلّ، حيث تدل على مَن قامَ بالاحتلال، ومَن وقع عليه الفعل، وكذلك كلمة الفَزعة فهي تدل على من يحتاجُ الغوثَ ويرجو النجدة، وتدل على من يقدّم ذلك الغوثَ وتلك النجدة، وتلك خاصية لبعضِ الألفاظِ في لغتنا العربية الخالدة. ومن قديم ذِكر الفزعة في تراثِنا الشعري قولُ الشاعرِ الجاهلي زهير بن أبي سُلمى في ممدوحيه الذين يسارعون لنجدة المستغيث دون تقصير أو تسويف:

إذا فزِعــوا طــاروا إلــى مُستغيثِهــــم
طــوالَ الرِّمــاحِ لا ضعــافٌ ولا عُــزْلُ

أما في القرآن الكريم فقد جاءت في مواقع عدة بالمعنى الآخر الذي هو الخوف الشديد، فقال تعالى مبيّناً حالَ المؤمنين الذين يأمنون الخوف يوم القيامة: (مَنْ جاءَ بالحَسَنةِ فَلَهُ خَيرٌ مِنها، وَهُم مِن فَزَعٍ يَومَئذٍ آمِنون) «النمل 89».

وفي التراث الشعبي لدولة الإمارات العربية المتحدة لم تبتعد الفزعة عن مفهومها في الثقافة التاريخية للكلمة، إذ تدل على المسارعة للنجدة وتقديم العون مبادرةً وليس أمراً، ويكون هذا العمل طوعياً دون انتظار الأجر المادي المقابل، ويكفي أن تذكرَ كلمةَ الفزعة حتى يخطرَ في بالك مفردات موازية مرادفة، مثل: (النُّبل، والجود، والأصالة، والنجدة، والعطاء، والمُبادرة، والتطوّع، والغَوث، والكرَم..)، ومن الماضي الإماراتي العريق نرى مظاهر تلك الفزعة بين الأقارب ضمن (رابطة القبيلة)، أو بين الجيران ضمن (رابطة الفِريج)، أو زملاء العمل ضمن (رابطة المهنة)، وبتوسيع تلك الروابط لعصرنا الحالي نرى

الدائرة تكبر، لتشمل رابطةَ المدينةِ فالدولةِ فالعروبةِ فالإسلامِ فالإنسانية جمعاء.

وإن كانت الفزعة سابقاً عوناً في بناء بيت أو زواج فقيرٍ أو إعفافِ أسرة، أو مساعدةِ قاصدِ الحجّ، أو تكافلاً مع من غرقَ مركبُه أو حلّ بداره حريقٌ، فإن هذا المعنى ترسّخت جذورُه من هذه الأعمال الفردية البسيطة والعفوية في تنفيذها، إلى فزعة كبرى تقوم بها جهاتٌ ومؤسسات، يرعاها شيوخ القبائل وكبار رجال الأعمال والحكّام، حتى ترسّخت قيمةُ الفزعةِ في المجتمع الإماراتي، عبر تطوره الاجتماعي من حياةِ البساطةِ إلى قمّة التمدّن الحضاري، وتغيّر طبيعةِ المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمركب، ورغم ذلك بقي المفهومُ الإيجابي راسخاً في النفوس الطيبة والأيادي الكريمة، وذلك يأتي من دوافع كثيرة للفزعة، يمكن تجميعُها في ثلاثة محاور:

الأول - الدافع التراثي الاجتماعي: فقد ترسخ في الوجدان

الجماعي للمجتمع الإماراتي نبل الأخلاق وتقليد الأجداد في أعمال الخير، والتعاون، والعطاء، وصارت الفزعة قيمة أخلاقية يعلّمها الآباء للأبناء كجزء من (السّنع) العائلي والاجتماعي المتوارث من غابر الأزمان، وبقي مستمراً حتى الآن على الوتيرة نفسها من المبادرة والنخوة والسخاء دون مَنٍّ أو أذى.

الثاني - الدافع الديني: فقد حضّ القرآنُ الكريم على مساعدة الآخرين وإغاثة الملهوف ونصرة المستضعفين، وتقديم العون للمحتاجين، مع احتساب الأجرِ والثواب على الله تعالى في الدنيا والآخرة، وأكد نبيّنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، على تلك السجيّة المحمودة في سيرته وأقواله وأفعاله، فكانت الفزعة الإماراتية إسلامية الهوية، نابعةً من الإرث التاريخي لمجتمع الإمارات المسلم الذي يحفظ للقيم الإسلامية استمرارها في الأجيال عَبْر الأزمان.

الثالث - القدوة السياسية: حيث رسّخ المغفور له - بإذن الله تعالى - الوالد المؤسس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيّان - طيّب الله ثراه - وإخوانه الحكام، مفهومَ الفزعة رسمياً، بمدِّ يد العون للدول والمجتمعات الشقيقة والصديقة، والوقوف معها في المحن والنكبات والكوارث، من خلالِ مبادرات إنسانية قلّ نظيرها، ويمكننا اعتبار تلك الأعمال توسيعاً لمفهوم الفزعة من نطاقِها المحلي المحدود إلى الفضاءِ العربي والعالمي الأوسع، ولا أحدَ إلا ويذكر فزعةَ دولة الإمارات لفلسطين واليمن ومصر وسوريا والمغرب والبوسنة وأفغانستان وباكستان والهند وتركيا وغيرها، خلال فتراتِ الجفاف أو الحروبِ أو الفيضاناتِ والزلّازل.

وهناك تسمية (فزعة) لإحدى مجموعات التطوع الأكثر فعالية في المجتمع الإماراتي، حيث يبادر الشباب وشرائح المجتمع كافة للانخراط في أنشطة الفزعة طوعاً دون مقابل، كمبادرة لتقديم الخبرة والجهد في سبيل إنجاح الأعمالِ والملتقيات والفعاليات الوطنية.

ومن مظاهر رسوخ الفزعة في الوجدان الشعبي والتراث الوطني لدولة الإمارات العربية المتحدة وجود بعض الأمثال الشعبية التي تحضّ عليها وتمدح فاعلَها، ومن ذلك:

الناس بالناس والكل بالله: ويؤكد على أهمية التعاون والمساعدة بين الناس لأنهم جميعاً عباد الله.

البعد بعد القلوب هب بعد الدروب: ومعناه أن الابتعاد المكاني لا يمنع من الحبّ والمساعدة.

الزبيبة ما تشبع لكنها تطيب الخاطر: وهذا يؤكد على أهمية العطاء وإن كان قليلاً.

عطية الشبعان على الجوعان بطيّة: وفيه تأكيد على المسارعة وعدم التمهّل في تقديم الفزعة.

لو تبا العون انظر في اللون: لأنّ سمات أهل الفزعة في وجوههم فانظر ممّن تطلب العون.

بيت الطين ما يخلا من الطحين: ويضرب للدلالة على وجود الخير رغم شح الظروف.

وفي دولة الإمارات العربية المتحدة وبرعاية من الجهات الرسمية العليا في الدولة، تم إطلاق بطاقة تحمل اسم (فزعة) كمساعدة لحامليها، في التخفيف من أعباء التسوق خاصة على الفئات الاجتماعية قليلة الدخل، وهذه البطاقة تحمل في اسمها معانيَ الفزعة التراثية الاقتصادية الشاملة للناس، بدعم ورعاية من ولاةِ الأمر والجهات الاقتصادية الداعمة لهذه المبادرة.

وختاماً نخلص إلى نتيجة مفادها: إن ثقافة الفزعة إرثٌ إماراتيّ أصيل، وقيمة اجتماعية دينية راسخة، أكدّها حكام الإمارات، وحرصوا على استمرارِها الإيجابيّ في نفوس الناس، من خلال القدوة الحسنة في العطاء والتعاون والتكافل، فأصبحتْ ركيزةً

أساسية من ركائزِ الاجتماعي، وصفة بارزة غالبة على النفوس، وعملاً منظّماً بمنهجية وطنية عالية الهمّة نبيلةِ المَرامي، والتي تضع في حسبانها الإيثار والنخوة والسخاء والمبادرة والعون بأسرع ما يمكن، مستمدّة أصالتها ورقيّها من تراثٍ عربي إسلامي أصيل، أصبح تقليداً اجتماعياً ومنهجاً تراثياً عابراً للأجيال خلال استمرارها الزمني، حيث أكّده الوالد المؤسس المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - حين قال ما يؤكد الفزعةَ في أنبلِ مظاهرها وأعلى درجاتها، وأرقى أهدافها الإنسانية:

«إننا نؤمن بأنّ خيرَ الثروةِ التي حبانا اللهُ بها، يجب أن يعمّ أصدقاءَنا وأشقاءَنا» ■

شاعر وأديب سوري

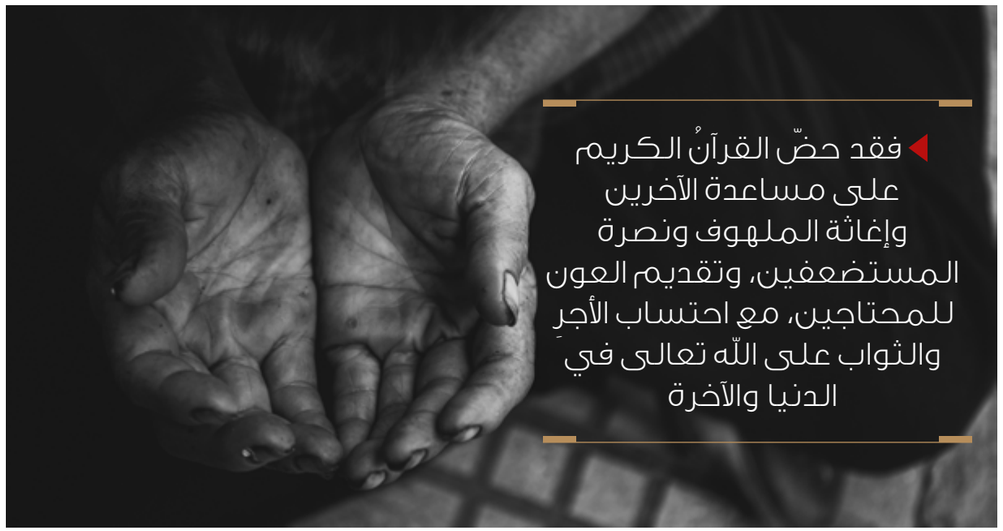

الطريق نحو التسامح

الفزعة الإماراتية وطرائق التطوع على الصعيد العالمي

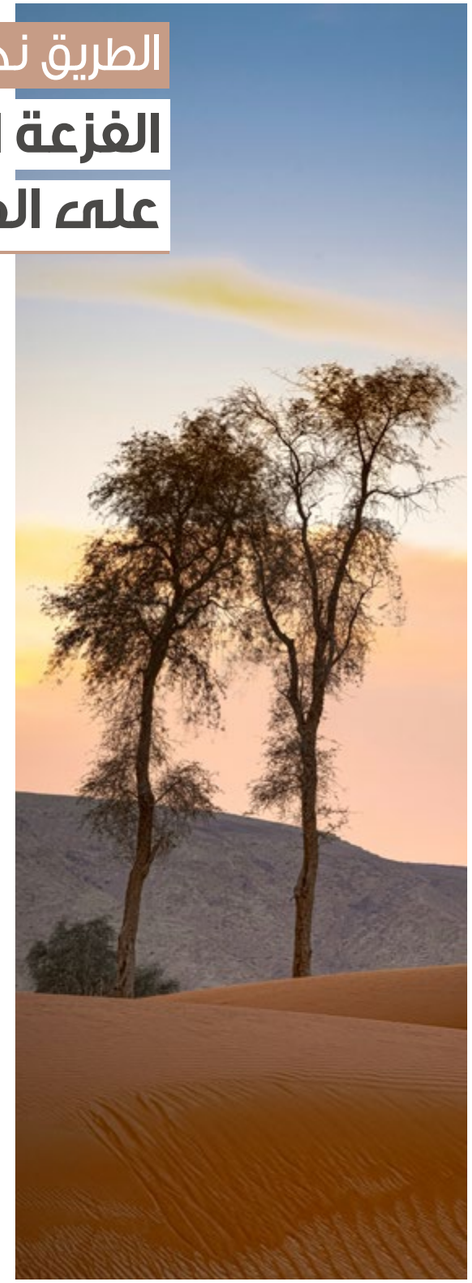

صديق جوهر

تسعى هذه المقالة لاستطلاع تقاليد (الفزعة) في المجتمع الإماراتي من منظور معاصر من أجل التأكيد على أن الفزعة عبر العصور قد شكّلت نموذجاً فريداً للعمل التطوعي والإغاثي الذي سبق ظهور العديد من طرائق التطوع على الساحة الدولية. تاريخياً تعد تقاليد الفزعة من القيم العريقة التي تغلغلت في النظام الاجتماعي للمجتمع الإماراتي منذ الأزل وتلعب هذه التقاليد الأصيلة - التي تقوم على التضحية وإيثار الغير ومد يد العون للمحتاجين - دوراً محورياً في ترسيخ تماسك المجتمع وتلاحمه ولا سيما في أوقات الشدائد. علاوة على ذلك أسهمت الفزعة سواء على المستوى الشخصي أو الأسري أو القبلي أو المجتمعي على تنمية العديد من القيم الأخلاقية الحميدة - خاصة التطوع والتسامح - التي جسدت نزعة الانتماء للوطن وعكست طبيعة الشخصية الإماراتية المتحضرة منذ القدم. لقد اتخذت الفزعة أنماطاً شتى في المجتمع الإماراتي القديم وتعددت طرائقها بعدما وضع الآباء المؤسسون اللبنات الأولى للدولة الإماراتية المعاصرة. وتعتبر الفزعة الأساس الذي انطلقت منه الأعمال التطوعية داخل المجتمع الإماراتي وخارجه، حيث يتيح العمل التطوعي فرصة رد الجميل للوطن ويدعم التواصل مع المجتمع وجعله مكاناً أفضل للحياة. والعمل التطوعي طريق ذو اتجاهين يستفيد منه المجتمع والمتطوعون الذين يوسعون من آماد علاقاتهم ويعززون مهاراتهم الاجتماعية. ويعد العمل التطوعي طريقة رائعة للقاء أشخاص جدد، خاصة إذا كنت جديداً في منطقة ما، وهو يساعد على تقوية الروابط المجتمعية. إن مساعدة الآخرين من خلال الأعمال التطوعية يؤدي إلى الشعور بالسعادة والرضا لدى المتطوعين وفق العديد من الدراسات الحديثة ومن بينها بحث قامت به كلية لندن للاقتصاد حيث تم فحص العلاقة بين العمل التطوعي ومقاييس السعادة لدى مجموعة كبيرة من البالغين.

تقاليد الفزعة: إرث حي ومساهمة حضارية

من ناحية أخرى فقد أسهمت تقاليد الفزعة في تقوية الجبهة الداخلية في الإمارات إبان الحقبة الاستعمارية حيث تكاتف أهل البلاد ضد السياسات الاستعمارية وبعد زوال الاستعمار تحوّلت الفزعة إلى تقليد محلي يهدف لتدعيم روح التلاحم المجتمعي. في هذا السياق ارتبطت تقاليد الفزعة بالواقع العالمي ولا سيما بعدما غيّرت الحرب العالمية الأولى المشهد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لأوروبا بشكل كبير بالمقاييس كلها تقريباً. وانتهت الحرب ببنية أمنية جديدة لأوروبا، تم إنتاجها خلال مؤتمر السلام الذي استمر لمدة عام في فرساي بفرنسا. لكن الحرب انتهت بدفعة قوية لمختلف الحركات السلمية أيضاً، المبنية على توقعات إيجابية تجاه عالم خالٍ من النزاعات. وبالنسبة إلى بعض الناس على الأقل، كانت هناك حاجة إلى اتخاذ إجراءات عملية للتأكيد على الحاجة إلى المزيد من التضامن والتفاهم والتسامح بين الناس والأمم كأداة قوية لمنع الصراعات في المستقبل. في سياق متصل تمخضت تقاليد الفزعة عن بداية للتطوع المحلي والعابر للحدود الوطنية الإماراتية حيث أسهمت المؤسسات الخيرية والتطوعية الإماراتية في تقديم الدعم اللوجيستي والمعونات الإغاثية للشعوب المتضررة من الكوارث الطبيعية مثل البراكين والزلازل والفيضانات والحرائق والمجاعات،... إلخ. وعلى المستوى العالمي فقد أدت الأعداد الكبيرة والمجموعة

الواسعة من المبادرات التطوعية و"التبادل" للمتطوعين عبر حدود الدول إلى خلق الحاجة إلى مساحة مشتركة لمختلف منظمات العمل التطوعي الوطنية ويمكن النظر إلى ذلك على أنه حاجة متزايدة للاعتراف بالعمل التطوعي باعتباره جانباً مهماً ومفيداً للحياة الاجتماعية بما في ذلك الأفراد والمجتمعات وكذلك المتطوعين أنفسهم. وفي النصف الثاني من أربعينيات القرن الماضي، بدأت المناقشات داخل «اليونسكو» حول طرق تنسيق وتشجيع الجهود التطوعية المختلفة. وفي إبريل 1948، انعقد المؤتمر الدولي لمنظمات معسكرات العمل وتم إنشاء اللجنة التنسيقية للمخيمات الدولية التطوعية تحت رعاية «اليونسكو». في الواقع لقد سبقت تقاليد الفزعة الإماراتية مثيلاتها من تقاليد العمل الإغاثي والتطوعي في جميع أرجاء العالم. تاريخياً بدأ التطوع في أوروبا - كحركة اجتماعية فاعلة في أوائل القرن العشرين تحت مظلة التعليم التنويري والتعليم الديني والتعافي من الكوارث - كرد فعل على الأضرار والدمار الذي سببته الحرب العالمية الأولى حيث كانت تحركات معسكرات العمل والخدمة التطوعية المبكرة أول تعبيرات عن طرائق الإغاثة على نطاق واسع. وفي عشرينيات القرن الماضي، تم إنشاء معسكرات العمل الدولية وتكوين فرق المتطوعين كبدائل سلمية للحروب، وتأسست إحدى أقدم مؤسسات الخدمة التطوعية الدولية، وهي منظمة الخدمة المدنية الدولية، في عام 1934 لتعزيز التفاهم الدولي وإعادة إعمار المناطق التي دمرتها الكوارث والحروب.

خلال عصر التنمية الذي أعقب إنهاء الاستعمار، أرسلت الدول والمنظمات الاجتماعية عبر الوطنية متطوعين لمساعدة المناطق المستعمرة السابقة بهدف مساعدتها على التطور اقتصادياً. طوال ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، نمت معسكرات المتطوعين حيث قامت المنظمات غير الحكومية بتعبئة الشباب لتقديم المساعدة الطارئة والإغاثة الاقتصادية للبلدان المستقلة حديثاً. وفي إطار نظام التعاون الدولي ذي الصلة بدأت معظم منظمات التعاون التطوعي الدولية التي ترعاها الحكومات الغربية في الظهور على الساحة الدولية، وأدى العمل المدني من أجل السلام العالمي والحركات المناهضة للحرب في أواخر السبعينيات إلى زيادة الوعي العام بالشؤون العالمية، بما في ذلك رغبة العديد من الشباب في الانخراط في الخدمة التطوعية العابرة للحدود الوطنية. ومن بين المنظمات التطوعية ذات الانتشار العالمي «منظمة أطباء

بلا حدود» - التي تأسست في عام 1971، و«منظمة المواثل من أجل الإنسانية» - التي تأسست في عام 1976، وهما من المنظمات التطوعية غير الحكومية الكبيرة (في الولايات المتحدة وألمانيا والمملكة المتحدة وفرنسا واليابان والدول الاسكندنافية) التي ظهرت خلال حقبة السبعينيات من القرن المنصرم. وبحلول عام 1981، كان هناك 125 منظمة تم الاعتراف بها لإرسال المتطوعين خارج الحدود وكان العديد منها منظمات غير حكومية. في كثير من الأحيان دفع المتطوعون في هذه البرامج جزءاً كبيراً من نفقاتهم الخاصة وبحلول عام 1982، كان أكثر من 55000 متطوع مسجل يخدمون عبر هذه المنظمات. من ناحية أخرى تم إنشاء برنامج متطوعي الأمم المتحدة في عام 1971 لحشد المتطوعين المؤهلين للمشاركة في مشاريع الأمم المتحدة الإغاثية. وبحلول أواخر الثمانينيات، أدت الإصلاحات النيوليبرالية إلى تقليص عام في المساعدات الإنمائية الرسمية ما أدى إلى زيادة الاهتمام بدور المجتمع المدني ومشاركة المواطنين؛ لذلك ابتكرت برنامج متطوعي الأمم المتحدة والحكومات الراعية له أساليب جديدة لتعزيز المشاركة الشعبية التطوعية والمساعدة الذاتية والمشاركة المحلية في التنمية والعمل التطوعي الوطني. ومع زيادة اعتماد الحكومات على القطاع التطوعي لتقديم الخدمات، أصبح المتطوعون الدوليون أكثر أهمية باعتبارهم جهات فاعلة يمكنها تقديم المساعدات بشكل مستدام خاصة في المناطق التي تتعرض للكوارث.

الفزعة الحديثة: تطوع إماراتي لخدمة الوطن والعالم

مع بداية القرن الحالي أصبحت الأهداف الإنمائية التابعة للأمم المتحدة وفي إطار الحد من الفقر المرتبط بها هو التوجه المركزي الذي يستخدمه برنامج متطوعي الأمم المتحدة وغيره من منظمات التعاون الدولي ذي الصلة. ففي عام 2001، سلط برنامج الأمم المتحدة للعمل التطوعي الضوء على الأعمال التطوعية كافة باعتبارها استراتيجية عملية للحد من الفقر ومنع الكوارث وإعادة البناء بعد الكوارث، وتسهيل التكامل والاندماج الاجتماعي، وعلى الرغم من أن قدراً كبيراً من التركيز كان على العمل التطوعي المحلي والوطني، فإن أصحاب المصلحة أيضاً أولوا اهتماماً أكبر للعمل التطوعي الدولي. وفي ظل انتشار الابتكارات في مجال الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات خلال بداية القرن الحادي والعشرين تم تطوير أدوات تعتمد على الإنترنت لتوظيف ودعم الأشكال التقليدية للعمل التطوعي الدولي وتطوير أشكال جديدة للأعمال الإغاثية. كما أحدث توفر تكنولوجيا الإنترنت ثورة في قدرات التدريب والاتصال لدى برنامج الأمم المتحدة التطوعي وسهلت الحملات عبر الإنترنت على المتطوعين الدوليين الدفاع عن القضايا العالمية والمشاركة في جهود التنمية العالمية، حتى دون مغادرة أوطانهم. في عام 2000، بدأ برنامج متطوعي الأمم المتحدة برنامج المتطوعين عبر

الإنترنت كوسيلة للمتطوعين للمساهمة في مشاريع السلام والتنمية باستخدام تكنولوجيا الإنترنت كما سهلت الشبكات الاجتماعية على المتطوعين البقاء على اتصال ومواصلة عملهم مع المنظمات الشريكة بعد العودة إلى ديارهم. في الإمارات وامتداداً لتقاليد الفزعة العريقة قامت المنظمات الحكومية وغير الحكومية في الدولة باستقطاب متطوعين محليين من ذوي المهارات العالية للاستفادة من خبراتهم ومهاراتهم من خلال تقديم الخدمة التطوعية في الإمارات وخارجها حيث تعمل العديد من المؤسسات الإغاثية الإماراتية مثل الهلال الأحمر الإماراتي على تقديم يد العون للمتضررين من الكوارث الطبيعية والحروب والنزاعات المسلحة في جميع أنحاء العالم حيث تمكنت شبكات الخدمة التطوعية الإماراتية ذات الانتشار واسع النطاق على الساحة الدولية من تقديم أنشطة وبرامج إغاثية أسهمت في تضميد جراح السكان في المناطق المنكوبة وتحقيق أهداف الأمم المتحدة في التنمية المستدامة في الدول الفقيرة خاصة منذ الركود الاقتصادي في عام 2008 بعدما تقلصت المعونات التي تقدمها العديد من البلدان المانحة في ظل تراجع الدعم الموجه تجاه العمل التطوعي الدولي. وفي هذا السياق تتبوأ دولة الإمارات العربية المتحدة مركزاً مرموقاً على الصعيد العالمي بين الدول المانحة التي تقدم دعماً سخياً للمنظمات التطوعية والإغاثية وتعتبر هذه السياسة نتاجاً عصرياً لتقاليد الفزعة المتجذرة في تاريخ وتراث المجتمع الإماراتي منذ القدم ■

خبير الترجمة في الأرشيف والمكتبة الوطنية - أبوظبي

محاورة مع الباب

عبد الفتاح صبري
روائي وناقد مصري

«يالباب قلّ لي»

هذه قصيدة نبطية للشاعر محمد بن راشد الشامسي من ديوانه «ديوان الشامسي»، والشاعر هنا يسير على نهج الشعراء الذين يبحثون عن المشاعر الإنسانية في الأشياء وفي الجماد الذي يؤنسنه من أجل الوصول إلى دفء التواصل مع الآخر، والبحث في مكامن العلاقات الإنسانية الحاكمة والرابطة بين البشر في المكان الواحد، من أجل تنميتها وتأملها والاستمتاع بهذه العلاقات التي تتماشى والسنع الحميد الذي ينشده المجتمع وتسير عليه الخلائق، من أجل مجتمع دافئ ومتماسك ومتعاضد في زمن صعب تعملقت فيه المادة وسلوكيات المجتمع الاستهلاكي والمادي الذي كرسته الحداثة وأفكار التوحش المادي. ورأس المال الباحث فقط على الربح والمكسب على حساب الإنسان وقيم الترابط والتعاون والمحبة والإيثار من أجل الجماعة والمجتمع وأهل الفريج.

الشاعر هنا يتخذ من الباب الذي يعترف بوظيفته نديماً وصديقاً حين يقول:

«يالباب قلّ لي ليش صكوك»

إذاً الوظيفة الأساسية للباب هو الإغلاق والقفل على الداخل للوقاية والستر والحفظ، ولكن الشاعر المستنكر يعظم دور الباب لهذا الإغلاق، لأنه إغلاق دائم وطال أمده فاستشعر بحدسه الخيفة والقلق.. لأن العادة الباب يغلق ويفتح بعد أمد قصير لا يطول.. وإن طال هنا مكمن الريبة والشك والقلق، فالبحث يبدأ عمّن بالداخل، لأن الشاعر بالتأكيد أو الراوي أو القائل يبحث عن سكان المكان خلف هذا الباب الموصد باستمرار، ربما أهل، ربما جيران، ربما أقارب، ربما أحباب، ومن هنا مشروعية البحث والسؤال والحوار مع الباب من أجل سؤاله عن هؤلاء السكان، الأحباب هنا حالة إنسانية دافئة تفتح لمحاورة الباب واعتباره إنساناً سيتجاوب بالرد عن أسئلة القلق عن مكانة أهل المكان:

«وين الذي في البيت سكان»

أيها الباب أين سكانك الذين أغلقوك هذا الأمد الطويل، وتخلوا عن مكانهم ورحلوا.. الشاعر يتخذ من الباب محاوراً له وينطلق من تلك المحاورة إلى التحدث والتأمل مع باب من خشب جماد ويحول حديثه إلى مشاعر إنسانية وحالة وجد إنساني باحثة عن أهل وخلان كانوا ملء المكان ورحلوا، ولا يدري السائل الباحث إلى أين؟ ويستنكر هذا الرحيل الذي حرمه من هؤلاء:

«وين إرحلوا عنك وخلوك
يذريك كوس، الريف ذنان»

هذا التعجب والاستنكار من رحيل أهل المنزل وتركهم للمكان وللباب الحارس على المكان مغلق إمعاناً في إظلام المكان بخلوه من البشر الذين تركوه ورحلوا وغادروا إلى حيث لا يعرف، وتركوك أيها الباب تعبث بك في وحدتك ريح الكوس تضغط عليك لتحدث صرير الوحدة وصوت الاستغاثة وصك أخشابك.

ثم يفتح الشاعر من خلال الباب محاورة مع الدفء والوجد الإنساني مع هذا الآخر المفتقد، ويحاول تذكر وجودهم يوم أن كانوا ملء المكان وملء الحضور ويتذكرهم حين كانوا يدخلون ويخرجون من الباب نفسه المصمت الآن على نفسه والدار متعطشاً لهم بقوله:

«وين الأياد العاد فتحوك
كل ليلة وعصر المسيان»

ويتمادى في تصور أوقات دخولهم وخروجهم من الباب في الليل وفي أوقات بزوغ نجم بعينه من السماء. ويستمر في وصف حالتهم ساعة الدخول أو الخروج، وأثر وجودهم في المكان وحركتهم والتي وصفها بأن المكان يزداد نوره بهم ويزداد ألقه بهم، ويستمر الشاعر في شرح حالة الوجود العطشى والصب تجاه أهل الدار الذين غابوا عنه فاستحال وقته إلى قلق وبحث دائبين، ويستمر في محاورته للباب وسؤاله بعد غيابهم، إلى الآن خمسة أيام، وكأنها الدهر إن كان يعرف أين ذهبوا، أو أنهم أخبروه عن مكانهم، ويتوسله أن يعطيه أي إشارة أو دليل حتى يهدأ ويرتاح قلبه وفكره:

«قول الصراحة كان خبروك
عطني دلايلهم بعنوان»

وبدأ الشاعر في وصف حالته للباب الذي أنسنه وجعله نداً بشرياً ليحاوره ويستنطقه ويحادثه ويبثه لواعج نفسه تجاه هؤلاء الأحباء الذين فقدهم لرحيلهم عن الدار والمكان، غير مصدق لهذا الغياب، ويستحلف الباب إن كان يعلم أو يعرف أن يرد له الجواب والخبر، والباب الذي لن ينطق أصلاً سيبثه الشاعر خوالج النفس ولواعج القلب، وأنهم تركوه وابتعدوا دون إخباره ودون أن يشعروه، ودون أن يحسوا بكيانه ولوعته ومحبته، وكأنهم غادروا دون إعلامه بتعمد، ورغم ذلك فالشاعر المحب يدعو لهم بالسلامة والفرح، وأن يبتعد عنهم الحزن والأسى، وتستمر المحاورة كاشفة عن آلام وآمال الشاكي وحرقته بين الأمل والألم، وبين الود والنسيان، وأنه أبداً لم يهن، وأن حساده وعزاله لهم دور كبير في ما حدث له، وأنه رغم أي شيء على العهد والوعد، ويعاود إبلاغ الباب بهذا الوجد والصب والتعلق:

«قل للغظي الأحباب خصوك
سلامهم من قلب شقنقان»

ويختتم حواره مع الباب بصدقه القول عن مشاعره وعن حالته وعن انتظار لردهم.

«هذه صراحة وكلمه أعطوك
شرح وفي ومن دون نقصان
فتح طريج ويعّد الشوك
لحبيبك لا يموت حرمان»

الشاعر محمد بن راشد الشامسي اتخذ من الباب الذي أنسنه وأعطاه الروح والحيوية ليبث آلامه وأوجاعه وآماله من خلال الباب الذي تخيله موصداً على دار خالية من أحبته وطال غيابهم دهراً، خمسة أيام طوال، هم عمر طويل لمحب باحث عن الحبيب، والشاعر بخياله يجوب مع الباب محاورة ثرية بدفء المشاعر ونبل القصد وسؤال المودة والحب عن المحبوب الذي غادر وترك دون إعلام أو إعلان أو إشارة عن مكانه ودون أن يراعي مشاعر المحب الذي ينتظره على باب الدار المغلقة الفارغة من الدفء والتي سكنتها الظلمة والوحشة والقلق، وفي هذا الحوار يبرز بعض وظائف الباب المادية والمعنوية أيضاً تجاه أصحاب الدار، وتجاه الآخرين، فإن كان الباب وفق رؤية الشاعر هو صك وإغلاق ولكنه مسؤول عن مكانه الذي يحرسهم معنوياً حتى في حالة غيابهم أيضاً، وفي هذا يعطيه الشاعر وظائف معنوية متصلة بالعلاقة بين الباب والإنسان «يالباب قلّ ليش صكوك»؟ وهنا سؤال استنكاري يحيل أن على الباب دوراً وهو المعرفة بما له من صلة معنوية مع أهل الدار التي يحرسها، أو يقف بشموخ على مدخلها حارساً وأميناً..

ثم يستمر الشاعر في إبداء هذه العلاقة بين الإنسان والباب:

«وين ارحلوا عنك وخلوك
يزريك كوس الريق ذنان»

وهو هنا يثير المشاعر في الباب وكأنه بشر، كيف تصمت عن رحيلهم وقد تركوك في مهب الريح. كما أنه في مواقع أخرى من قصيدته يتخذ من الباب ستراً ووجاء يتخفى فيه ليبرز مشاعره وحنانه ووجده تجاه حبيبه، أي إنه ينشئ علاقة مع الباب ويتخذه درعاً لإفشاء حبه وولعه وولهه بالآخر الذي رحل من الدار وهو يقف محتاراً مذهولاً في وسط الباب منتظراً الأمل والرجاء والتحقق.

شعراء النبط أقاموا مع الباب علاقة مهمة للكشف عن مواهبهم ومشاعرهم، وأفاضوا في إعطاء صورة حية لعلاقة تتخطى مجرد باب من أخشاب مصمتة إلى باب له عيون وآذان ومشاعر، كي يفضح به حالة إنسانية جميلة بين البشر وما يتعلق بهم تدل على عمق العلاقات الإنسانية الرابطة حتى مع الجوامد في مجتمع يجلّ الترابط والتعاضد والمحبة.

الباب ليس مجرد خشب أو حديد، الباب يمتلك مشاعر وآذان يسمع بها وعيون يرى بها أيضاً فهو يصبح بها شاهداً على إنسان من لحم ودم يعيش خلفه ويحتمي به بحميمية ودفء يربط بينهما.

إنها عبقرية الحياة التي تجمع بين البشر والجماد وبين الأشياء والحيوات.. لتبرهن على عمق علاقة الإنسان بمن حوله، ولذا فإن شعراء النبط في الإمارات اتخذوا من الباب مدخلاً لكشف هذه العلاقات بين الإنسان والباب من ناحية، وبين الإنسان والإنسان في المكان الذي يكون فيه الباب شاهداً على عمق هذه العلاقات ■

برج بيليم أو برج سانت فنسنت على ضفاف نهر تاجوس (تيخو) - لشبونة

لشبونة: مدينة الضوء وسحر التاريخ

إعداد: ضياء الدين الحفناوي

مدينة لشبونة عاصمة البرتغال تحمل تاريخاً غنياً ومتنوعاً بحق، وقد عُرفت عبر العصور بمسميات مختلفة ترتبط بتاريخها وثقافاتها المختلفة وأشهرها مدينة الضوء، ويشير هذا اللقب إلى الضوء الطبيعي الفريد في لشبونة الذي يُضفي جمالاً خاصاً على المباني والشوارع ويمنح المدينة جواً ساحراً، فبفضل موقعها الجغرافي على المحيط الأطلسي تُعتبر لشبونة بوابة رئيسية بين أوروبا والعالم الجديد ما جعلها مركزاً تاريخياً للتجارة والثقافة، كما تُعرف بأسواقها المفتوحة التقليدية مثل سوق (فيريا دا لادرا) الذي يجذب الزوار بمنتجاته المحلية والتحف القديمة. أما عن موقع مدينة لشبونة في الجزء الغربي من البرتغال وتحديداً عند مصب نهر تاجة الذي يُعدُّ أطول نهر في شبه الجزيرة الإيبيرية، وشكّل النهر مع المدينة ميناءً طبيعياً كبيراً يتيح الوصول المباشر إلى المحيط الأطلسي. وبفضل هذا الموقع الاستراتيجي جعلها نقطة انطلاق للعديد من الرحلات الاستكشافية البرتغالية في عصر الاستكشافات.

تاريخ المدينة

يعتقد أن الفينيقيين أسَّسوا مستوطنة على موقع لشبونة الحالي في حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وكانوا يستخدمون المدينة كنقطة تجارية مهمة بفضل موقعها الاستراتيجي على نهر تاجة، وعلى الرغم من عدم وجود أدلة قوية على استيطان الإغريق في لشبونة فإنَّ القرطاجيين الذين خلفوا الفينيقيين عزَّزوا من أهمية المدينة التجارية.

وفي القرن الثاني قبل الميلاد أصبحت لشبونة تحت السيطرة الرومانية وأطلقوا عليها اسم (أوليسيبو) وازدهرت المدينة

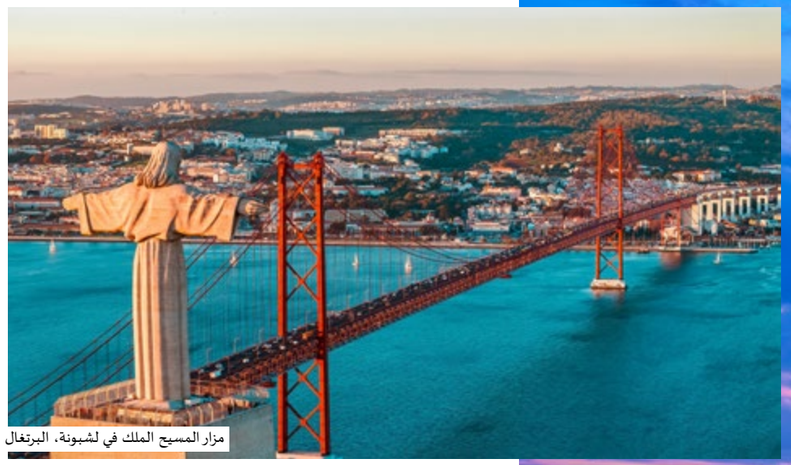

مزار المسيح الملك في لشبونة، البرتغال

تحت الحكم الروماني، وتمَّ تطوير البنية التحتية بما في ذلك الطرق والجسور والمباني العامة، وفي عهد الإمبراطور أغسطس حصلت المدينة على الاسم الكامل (أوليسيبو السعيدة) كما لقبوها، وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية استولى القوط الغربيون على لشبونة في القرن الخامس الميلادي ولكن فترة حكمهم كانت قصيرة نسبياً. وفي عام 711 ميلادي فتح المسلمون لشبونة وجعلوها جزءاً من الأندلس وسميت المدينة في وقتها (علشقبة)، وازدهرت كمدينة إسلامية مهمة، حيثُ تمَّ تطوير نظم الري والزراعة والتجارة تحت حكم الولاة المسلمين المحليين، وأصبحت المدينة مركزاً تجارياً وثقافياً مهماً واستفادت من شبكة التجارة الإسلامية التي امتدت عبر البحر المتوسط وصولاً إلى شمال أفريقيا والشرق الأوسط، وفي العصر الإسلامي ازدهرت في لشبونة العلوم والفنون وتمَّ ترجمة العديد من الأعمال اليونانية والرومانية إلى اللغة العربية كما تمَّ تطوير العلوم الإسلامية في مجالات الفلك والرياضيات والطب.

وبرغم أن الكثير من البنية التحتية الإسلامية قد تمَّ تعديلها أو هدمها خلال الفترات اللاحقة فإنَّ التأثير الإسلامي ظل ظاهراً في بعض الأنماط المعمارية والزخرفية في المدينة، فقد ترك الحكم الإسلامي بصماته على الثقافة المحلية بما في ذلك اللغة مع العديد من الكلمات البرتغالية ذات الأصول العربية والتقاليد والأطعمة.

قوس النصر لشبونة، البرتغال

وفي عام 1147، استعاد الملك أفونسو الأول (أفونسو هنريكس) لشبونة من المسلمين بمساعدة من الصليبيين وأصبحت لشبونة بعد ذلك جزءاً من مملكة البرتغال المسيحية، وفي القرنين الميلاديين الخامس عشر والسادس عشر أصبحت لشبونة مركزاً رئيسياً لعصر الاستكشافات البرتغالية، وانطلق منها العديد من المستكشفين المشهورين مثل فاسكو دي غاما الذي اكتشف طريقاً بحرياً إلى الهند، وقد ازدهرت المدينة اقتصادياً وثقافياً خلال هذه الفترة.

أحداث هزت لشبونة

في عام 1755 تعرضت لشبونة لزلزال مُدمّر تلاه تسونامي وحرائق ممَّا أدَّى إلى تدمير كبير في المدينة ومقتل آلاف الأشخاص، وأعاد رئيس الوزراء سيباستيا وجوزيه المعروف (بماركيز دي بومبال) بناء المدينة بتخطيط حضري حديث.

ومع الغزو الفرنسي سقطت المدينة في أيدي نابليون عام 1807 لكن تمَّ استعادتها من قِبل الإنجليز بقيادة الجنرال ويلينغتون، وبعد ذلك تمَّ كسر منظمة التخطيط الحضري في المدينة وبُدئ ببناء بعض المباني الأكثر رمزية في المدينة، بما في ذلك قصر أجودا، ودار أوبرا سان كارلوس، وكنيسة إستريلا، ومسرح دي ماري الثاني، وفي عام 1833 تمَّت استعادة الملكية الدستورية للبلاد واستمرَّت حتى إعلان الجمهورية في عام 1910. وفي بدايات القرن العشرين، بدأ شارع الحرية في تقديم نفسه كمحور للمدينة الجديدة، مع ظهور مبانٍ مهمة أخرى في المدينة، مثل: فندق بالاسيو، ومسرح إيدن، وسينما تيفولي، وفندق فيتوريا، وخلال الحرب العالمية الثانية، كانت لشبونة ملجأً للعديد من المنفيين من البلدان التي احتلها المحور أثناء العبور إلى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى. وفي عام 1932 تولى أنطونيو دي أوليفيرا سالازار السلطة وأنشأ ديكتاتورية استمرَّت حتى 25 أبريل 1974 عندما أنهى الانقلاب، هذا النظام المعروف باسم "ثورة القرنفل" وخلال هذه السنوات خضعت لشبونة لتغيير ديموغرافي وتوسُّعي كبير ومرَّت لشبونة بفترات من التحديث والنمو خاصة بعد انتهاء الديكتاتورية العسكرية وبدء فترة الديمقراطية في البرتغال وانضمت البرتغال إلى الاتحاد الأوروبي لاحقاً.

لشبونة الحديثة: اقتصاد وزراعة وثقافة وسياحة

اشتهرت لشبونة في العصر الحديث بالعديد من المجالات التي تشمل الاقتصاد والزراعة والثقافة والسياحة، حيث تعدُّ المدينة مركزاً ناشئاً للتكنولوجيا والابتكار مع وجود العديد من الشركات الناشئة والمراكز التكنولوجية، ويُعتبر القطاع المالي جزءاً مهماً من اقتصاد لشبونة، فتمَّ تأسيس البنوك والشركات المالية الكبرى، وتشتهر المدينة بالصناعات التقليدية أيضاً التي تشمل صناعة النسيج والملابس والأثاث، إضافة إلى صناعة السجاد والزجاج والخزف والزراعة كذلك، مثل: زراعة الكروم لصناعة النبيذ، فالمناطق المحيطة بلشبونة مشهورة بزراعة الكروم وإنتاج النبيذ، وعلى الرغم من أن لشبونة ليست مركزاً زراعياً رئيسياً فإنَّ هُناك اهتماماً متزايداً بالزراعة الحضرية والمزارع الصغيرة والمجتمعية التي تسهم في توفير المنتجات الطازجة للمستهلكين المحليين، وتعمل لشبونة على

نصب أفونسو دي ألبوكيرك في منطقة بيليم

تحسين بنيتها التحتية أيضاً لتكون مدينة ذكية مستدامة مع التركيز على استخدام الطاقة المتجدّدة وتحسين النقل العام والبنية التحتية البيئية.

معالم لشبونة الرئيسية

تُعرف لشبونة بمدينة «التلال السبعة»: كاستيلو، جراسا، مونتي، بينها دي فرانسا، ساو بيدرو دي الكانتارا، سانتا كاتارينا، وإستريلا. فلشبونة تشتهر بتضاريسها المميزة حيث بُنيت على سبعة تلال ممَّا يوفّر إطلالات بانورامية رائعة من مواقع مختلفة في المدينة وفي أعلى أحد هذه التلال بالضبط تظهر قلعة ساو خورخي وهو واحد من أكبر الشخصيات البارزة في تاريخ المدينة. وتم تصنيفها كنصب تذكاري وطني منذ عام 1910، ويقال إن الأسوار بنيت فعلياً ما بين القرن السابع عشر والقرن التاسع عشر. وإن التحصين الأول الذي تم بناؤه كان موجوداً قبل ذلك، ففي عام 1147 ومع غزو لشبونة من المغاربة على يد (أفونسو هنريكس) انتقلت

قلعة ساو خورخي

قصر أجودا الوطني لشبونة، البرتغال

قصر بينا في سينترا، لشبونة، البرتغال

قلعة ساو خورخي إلى أيدي مملكة البرتغال ثم كانت هناك فترة ذهبية استمرَّت حتى بداية القرن السادس عشر، ونظراً لماضيها وحاضرها فهي بالتأكيد واحدة من المعالم الأثرية التي يجب مشاهدتها في أي زيارة إلى المدينة. ومن أهم معالم المدينة أيضاً كاتدرائية لشبونة أو كنيسة (سانتا ماريا مايور)، وقد تم تصنيفها كنصب تذكاري وطني منذ عام 1910 فهذا المعبد الديني هو مقر بطريريكية لشبونة وأبرشيتها ويعود تاريخ بنائه إلى القرن السابع عشر وهو من أقدم الرموز التاريخية في المدينة... ومن الأماكن الرائعة في لشبونة المسرح الروماني، الذي يقع في قلب المنطقة التاريخية للمدينة. وتمَّ بناء المسرح في عهد الإمبراطور أغسطس في القرن الأول الميلادي، في عام 57 م. واليوم، يشكّل المسرح جزءاً من متحف لشبونة، ويعد واحداً من أهم المعالم الأثرية في المدينة والمناطق المحيطة بها. وهناك العديد من الأماكن التي تنتظر اكتشافها مثل قصر أجودا الوطني، وقد تمَّ بناء هذا المبنى من قِبل (دي جسوي) ومع ذلك اكتسب هذا القصر أهمية أكبر في عهد الملك لويس الأول حيثُ أصبح المقر الرسمي للعائلة المالكة البرتغالية حتى نهاية النظام الملكي، وتمَّ فتح قصر أجودا الوطني للجمهور كمتحف منذ عام 1968 وحالياً بالإضافة إلى كونه شاهداً على أزمنة الملكية فإنه يستضيف احتفالات الدولة لرئاسة الجمهورية البرتغالية أيضاً فهو أحد المعالم الأثرية الموجودة في لشبونة التي تستحق الزيارة والتأمل من قِبل الجميع. ويهيمن الطراز الباروكي على المبنى على الرغم من أن الجسم المركزي للواجهة يتميز بالطراز الكلاسيكي الجديد وتبرز قبتها ويوجد بالداخل مشهد ميلاد للسيد المسيح صممه (ماتشادو دي كاسترو).

وتشتهر لشبونة بالتقاليد الثقافية والتراثية التي تعكس تاريخها العريق وموقعها الساحلي ومن أشهرها موسيقى (الفادو) والفادو هو نوع من الموسيقى التقليدية في البرتغال، ويُعد من أبرز المعالم الثقافية في لشبونة ويتميز الفادو بألحانه الحزينة وكلماته التي تعبر عن الحنين والألم. ويمكن للزوار الاستمتاع بعروض الفادو في العديد من المطاعم والمقاهي التقليدية، ويعد مهرجان سانتو أنطونيو الذي يقام في شهر يونيو من كل عام هو أحد أكبر المهرجانات في لشبونة، ويتميز بالرقصات الشعبية والموسيقى والموكب التقليدي، بالإضافة إلى الشواء الكبير للسردين في الشوارع، فالأطعمة البرتغالية التقليدية تشكّل جزءاً مهماً من ثقافة لشبونة ومن أشهرها (باستل دي ناتا) وهو نوع من الحلوى الكريمية وطبق السردين المشوي الذي لابدَّ من تجربته عند زيارة المدينة ■

صحفي مصري

سائحون في نصب الاكتشافات في منطقة الواجهة البحرية في بيليم، لشبونة، البرتغال

الظمأ الأنطلوجي
للتعبير على لسان الحيوان

لولوة المنصوري
باحثة وروائية إماراتية

نحن مسكونون بسحرٍ غامض يشدنا للتعبير على لسان الحيوانات والطيور حتى على لسان الجن والوحوش الأسطورية، ذلك الشوق الروحي كان قديماً قِدم الإنسان الأول ومنذ حِقب بعيدة جداً في التاريخ البشري، وسواء كان ذلك بالتعبير عن الصداقة التي تجمعنا بالحيوان عبر التمثيل بالرموز والنقوش الصخرية في الكهوف وبين منعطفات الأودية في الجبال، أو من خلال الممارسات الطقوسية الدينية وعادة تقديس الحيوان ومنحه بعداً شفائياً وتواصلاً روحياً بالكون والملكوت، مثل: الطوطمية والأرواحية والحلول (حلول الإنسان في الحيوان المقدّس).

يتلون الفهم على الدوام وعبر الزمان بفضاء التعبير والحكي والمعارف، وتدريجياً نحو التأصيل في علوم الأسترولوجي والأبراج والمنافذ السماوية والفلك، حيث مُنِحت نجوم السماء ومراكز التحرك النجمي أسماءً حيوانية، كما أن التراث العالمي من ملاحم شعرية وميثيولوجيا وفنون ومنمنمات وتعشيق وموزاييك كلها تعد شكلاً من أشكال التعبير الإنساني الذي وُظِف فيها الحيوان بشكل مباشر أو بتخليد مؤطر - تأكيدي وإشاري - على مدى تحقق الارتباط الوجودي المبني على المعايشة والارتحال والحسية والاعتماد المتبادل بين الإنسان والحيوان.

رزت أبعاد ورود الحيوان في التراث الديني الإسلامي المعزز بالقصص الرمزية في القرآن الكريم، كما تجلت تلك الملامح في التصوف والروحانية كأبرز مثال في رسائل إخوان الصفا ومنظومة (منطق الطير) لفريد الدين العطار.

لاشك أن هناك أبعاداً أنطولوجية وتجربة جوانية متجذرة في الذات الإنسانية تدفعنا نحو الكتابة على لسان الحيوان، أبعاداً أكبر من كونها حلاً رقابياً اجتماعياً وسياسياً أو استعراضاً فلسفياً، وأبعد من كونها حمّالة لحلول وحكمة وموعظة، إن السؤال الجوهري الذي لابد منه: لماذا يستعير الكاتب / الراوي / الرسّام لسان الحيوان وشأن حياته ومجتمعه؟

قد تكون للعجائبية واللا واقعية والرموز الدلالية متعة تشويقية كامنة في سحر التأويل والمدلولات الحُرّة. إن مجرد وضع العظة والحكمة في مسار البحث عن تأويلات السرد والحكاية من شأنه أن يقتل الحكاية نفسها ويغلق المسار التخيلي القائم على الدهشة والترقب والسعة الدلالية. وقد تكون الكتابة على لسان الحيوان شكلاً من أشكال الحنين إلى الطبيعة والحياة الفطرية ومعايشة المخلوقات ومنحها أسماءً وصفاتٍ وأحوالاً، وخاصة في مجتمعات الأبنية والجدران والحدود، على اعتبار أن مجتمع الحيوان بلا حواجز (مادية) أو (فكرية عقلية)، الحواجز هي من صنع الفكر البشري، والحاجز أو الحاجب تفسير آخر لمدلول الخوف وعدم التوازن مع الطبيعة، وما تزخر به من ما ورائيات وأحداث مبهمة.

وثمة بُعدٌ روحيٌّ أيضاً؛ فالكتابة على لسان الحيوان تخفف من ثقل التجربة الإنسانية الموسومة دائماً باللوم والذنب والعار، تلك المشاعر التي ما انفكّت تؤثث الأرض على الصدمات والحوادث والخوف من الزمان والمصائر.. وتورث (هاجس البقاء) المبني على مخاوف العقل وأوهامه. بينما الحيوان حُرٌّ من كل ذلك، يعيش وفق التسليم التام و(غريزة البقاء) النابعة من الطبيعة نفسها. فقد يحن الإنسان لأن يعيش أحياناً وفق طبيعة (اللا عقل) ووفق شريعة التسليم التام الحُرّة من التخطيط والتعصب والتوترات والأوهام وسجون الذاكرة ■

غمغمات شاعر

شعر: الدكتور شهاب غانم

غـــداً يـا نسيـمَ الليـــلِ تأتي ونسهـرُ ... على الشاطـئ الفضّـيّ والليـــلُ مُقمـرُ
ونُصغـي لأمـــواجِ الخليـــجِ خريرِهـــا ... ويغمرُنـــا بعـد السنيـــن التذكُّـــرُ
رعـى اللـــهُ أيـامَ الصَّبـابةِ والصِّبـا ... وأحـــلامَ عُصفورَيْـنِ والعـودُ أخضـرُ
أرى ذلك الوجـــهَ الذي الحسـنُ كـلُّ ... تجمَّـــعَ فيـه فهـو شهـــدٌ وسُكَّـرُ
فيوحـي إليَّ الشعـرَ ليست تصوغـه ... أساطيـــنُ شعـرٍ في الغـرامِ تبحَّـروا
هنـاك علـى شـطِّ الجُميـرةَ ساعـــةً ... ولم ينْـمُ فيـه البـرجُ بعـــدُ ويظهـرُ
رعـى اللـهُ فنَّـــانَ البـروجِ فإنَّـــه ... سيخلـدُ في التاريـخِ دومـاً ويُذكَـرُ

أتذكـــرُ يـا مـاءَ الخليـجِ جميـعَ مَـــنْ ... أقامـوا على تلك الضفـــافِ وأبحـروا
أتذكـر مـن صـادوا وغاصـوا للؤلـؤٍ ... ومَن قد بنـوا فـوق الرمـالِ وعمَّـروا
أتذكـر من جـاؤوك مـــن عهـدِ آدمٍ ... ومن أحسنـوا أو أفسـدوا وتجبَّـروا
أتذكـــر أمَّ النـارِ.. دلمونَ.. بابـلاً.. ... وكيـف سَمَت آشورُ يوماً وسَوْمَـرُ
أتذكرُ قومـاً في الميـاه توضَّـؤوا ... وتحت ظـلالِ المشرفيّـةِ كبّـروا
ولمـا مشـوا فوق الرمـالِ بعـزةٍ ... تبخَّـرَ كسـرى في الهـواءِ وقَيْصـرُ
بلى كنـت مهـداً للحضاراتِ دائمـاً ... وسوف يعـودُ المجـدُ حتماً ويُزهِـرُ
ولكنهـا الأيـامُ تمضـي وتنقضـي ... إذا لـم يَصُنْهـا شاعـرٌ ومصـوِّرُ
يظنُّـون فـنَّ الشعـرِ نظـمَ سماجـةٍ ... وهلوسـةً والشعـرُ يَأبـى ويُنكـرُ

حنانيـكِ يا دنيـا إذا خـارتْ القُـوى ... ولـم يبـقَ إلا ساعتـانِ وأقصـرُ
لكم قد أضعنـا العمـرَ، كانت كُنُـوزُهُ ... لدينـا فأسرفنـا بهـا لا نوفِّـرُ
وها نحـن نخشى أن تضيـعَ دقيقـةٌ ... ونبخـلُ باللحْظـاتِ.. والعمـرُ يَعبُـرُ
ومـا هـي إلّا غمغمـاتٌ لشاعـرٍ ... تَشرَّبَ منـذُ الفجـرِ كيـف يُفجِّـرُ
وجاهـدَ في الدنيـا يكافـحُ للعُلـى ... وأيّامُـهُ تسخـو وطَـوْراً تُقتِّـرُ
فهـل يا نسيـمَ الليلِ ترجِـعُ حانيـاً ... تُذكِّرنـا مِـن أمسِنـا مـا تُذكِّـرُ

أعظم الاحتفاليات في القرن التاسع عشر

«رحلة الملوك»

إلى افتتاح قناة السويس 1869 م

جيستاف نيقولاس، ماريوس فونتان، رسوم: إدوارد ريو

محمد عبد العزيز السقا

أعظم الاحتفاليات في القرن التاسع عشر

«رحلة الملوك»
إلى افتتاح قناة السويس 1869 م
جيستاف نيقولاس، ماريوس فونتان، رسوم: إدوارد ريو

محمد عبد العزيز السقا

يصدق القول: إنَّ قناة السويس دليل على قوة البشر قبل أن تحل الآلة محل القبضة والساعد، نقطة فاصلة من التاريخ، صار بإمكاننا الآن أن نقطع المسافة من الشرق إلى الغرب دون الحاجة إلى الالتفاف حول أفريقيا من خلال طريق رأس الرجاء الصالح، مئات الأميال وعشرات الساعات والأيام تختصرها هذه القناة المائية الجزلة، فضلاً عن تجنيب السفن مواجهة المخاطر والأهوال وأذرع أخابيط القراصنة في المحيط، تأتي الرحلة التي بين أيدينا اليوم لتوثق «مشهد الاحتفال» بنجاح عملية جريئة وشاقة هدفت إلى وصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر في قهر واضح لصحراء مقفرة ظلت حاجزة بين البحرين منذ القدم، وعلى قدر جمال الاحتفال لا يمكننا أن ننسى عمداً أو سهواً فصول معاناة العمال والفلاحين المصريين والتضحية بآلاف العمال الذين أنهكهم العطش والانهيارات الرملية ثم توالى سقوط الآلاف منهم بسبب انتشار الأوبئة، وإجبار العمال على العمل في ظروف قاسية ليس معهم غير سواعدهم وفأس وقفة وحلم. لكن تبقى ثلاثة تواريخ هي الأهم في حياة القناة النابضة: 19 مايو 1855م عندما منح خديوي مصر محمد سعيد باشا[1] لصديقه الفرنسي فردينان دي ليسيبس حق تأسيس شركة القناة البحرية، و25 إبريل 1859م حيث أول ضربة فأس في بورسعيد، والثالث هو تاريخ حفل الافتتاح رسمياً في يوم 17 نوفمبر 1869م، والذي أرَّخت له الرحلة الحالية رسماً وكتابة وكان في عهد الخديوي إسماعيل[2] أي بعد عشر سنوات من تاريخ أول ضربة فأس، وبعد 14 سنة من تاريخ حق الإذن بالحفر.

الإمبراطورة أوجيني

كتاب إهداء، وكتاب رحلة، ولوحات:

أقدم إلى قارئ مجلة تراث الغراء اليوم حفل افتتاح قناة السويس، أحد أبرز الأحداث العالمية في القرن التاسع عشر، من خلال نسخة عربية بعنوان: افتتاح قناة السويس (رحلة الملوك) - جيستاف نيقولاس، ماريوس فونتان، ترجمة د.عباس أبوغزالة[3]، صادرة عن المركز القومي للترجمة بمصر. وهذه النسخة تتضمن كتابين، الأول هو «رحلة الملوك» لـ «جيستاف نيقولاس»، (Gustave) Nicolas، الذي كان أحد المهندسين الرئيسيين العاملين على مشروع قناة السويس، ويصفه بعضهم بالمؤرخ، قام بمساهمات كبيرة في تصميم القناة وتنفيذها، والثاني هو: «رحلة رائعة عبر خليج السويس» لـ «ماريوس فونتان» (Marius Fontane) الذي كان مهندساً فرنسياً وشريكاً في المشروع وقد عمل مع دي ليسيبس وفريقه الهندسي لتخطيط العمل وتنفيذه. والذي جرى ضمهما في النسخة العربية المترجمة وصدرت في كتاب يجمعهما لتخليد ذكرى احتفالات قناة السويس مع جزء مهم للغاية هو اللوحات التي رسمها بالألوان المائية الفنان العالمي الشهير الرسام «إدوارد ريو» (Édouard Riou)، الذي يدور حول عمله سؤال هل قام بالعمل لصالح الشركة البحرية أم بتكليف من الخديوي، ووفقاً لمحضر الشركة رقم 774 لعام 1869م، وعنوانه «رحلة ريو الفنية إلى مصر، والتسهيلات المقدمة من الشركة»، والذي يتضمن موافقة الشركة على طلب الرسام «ريو» بشأن السفر إلى مصر لرسم مناظر الورش الرئيسية، والمخيمات ومدن الخليج، وإرسال المشروعات المرسومة لمختلف الجرائد المصورة أولاً بأول، وفي الوقت نفسه إعداد الوثائق التي تتيح له عند عودته عمل طباعة فخمة عن القناة في دار «هاشيت» ولأن «ريو» لم يطلب شيئاً سوى سداد مصاريف السفر من باريس إلى مصر ذهاباً وإياباً، وافقت الشركة بسداد تكاليف السفر من باريس إلى القاهرة ذهاباً وإياباً على الدرجة الأولى مع مبلغ ألف فرنك مقابل مصاريف إقامته في مصر. وفي الوقت ذاته نجد أدلة أخرى تشير إلى أن الخديوي هو الذي كلفه بعمل اللوحات وتضمنها كتاب الإهداء الذي أمر الخديوي بإعداده، ولاحقاً وكل إلى الأمير ولي العهد محمد توفيق باشا مهمة تسليمه أثناء زيارته إلى أوروبا إلى الملوك والأمراء الذين حضروا احتفالات افتتاح قناة السويس.

الخديوي إسماعيل

يتضمن الكتاب معلومات عن مشروع حفر قناة السويس، ويسرد أقوال الرحالة والأفراد الذين عرفوا الخليج في الماضي،

وشهادات المعاصرين الذين حضروا أشغال القناة، ويستند إلى خطب المسؤولين بالشركة، ومداخلات المقاولين والمهندسين بشأن الاختراعات التي توصلوا إليها. وتصور لوحات ريو أيام الاحتفال الخمسة وعبور القناة من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر، أي من بورسعيد إلى السويس، وتوضح كيف ولدت المدن في تلك الصحراء الجرداء، وكيف قامت الورش، كما ترسم صورة عن نشاط السكان، وتبرز سطوره قانون المثابرة لتحقيق الإنجاز.

أولاً: كتاب رحلة الملوك

يستعرض الكتاب الأول كيف كان افتتاح قناة السويس للملاحة حدثاً عالمياً، وأراد الخديوي الظهور بمظهر العظمة أمام الملوك والأمراء والسفراء، واستدعى سمو الخديوي ممثلي الصحافة العالمية أيضاً، ورجالات العلوم والفنون والتجارة والصناعة، ليشاهدوا احتفالات افتتاح قناة السويس التي لم يسبق لها نظير في العالم في ذلك الوقت، ونجد من بين المدعوين عدداً من السائحين من ألمانيا وروسيا وإسبانيا، وعلماء وفنانين. تطلبت احتفالات افتتاح قناة السويس استعدادات ضخمة وكرّس الخديوي جهوده لتخليد ذكرى إتمام شق خليج السويس، وفتح طريق ملاحي جديد يربط بين الشرق والغرب، طلب الخديوي من «دي ليسيبس» أن يأخذ التدابير اللازمة لاستقبال الملوك والأجانب البالغ عددهم 6000 شخصية مهمة، وأقيمت العنابر والمهاجع في بضعة أيام لتستوعب 600 شخص، وجهرت موائد متجددة: فقد أحضر الخديوي 600 طباخ. و1000 خادم من إيطاليا (تريستا وجنوه وليفورن)؛ ومرسيليا. وبلغت تكاليف الحفلات والولائم مليوناً ونصف المليون جنيه تقريباً[4]. كان افتتاح القناة حدثاً كبيراً، حضره عدد من الشخصيات الملكية والشخصيات البارزة من جميع

افتتاح قناة السويس في عهد الخديوي إسماعيل

أنحاء العالم. من بين الحاضرين كانت الإمبراطورة أوجيني (زوجة الإمبراطور نابليون الثالث) وعدد من الملوك والأمراء. الرحلة تضمنت سرداً تفصيلياً من الاحتفالات والفعاليات على طول القناة، التي تمتد من البحر إلى البحر. وكان الاحتفال الديني قبل افتتاح القناة للملاحة - الذي بدأه رجال الأزهر بتلاوة القرآن الكريم، تلاه تسبيح رجال الدين الكاثوليكي - يبرز مشهداً من الوفاق والتسامح، وكان تنظيم هذا الاحتفال الديني بإيعاز من الخديوي إسماعيل.

الدعوات وتنظيم الاحتفال

في أغسطس 1868م سافر الخديوي إسماعيل على ظهر يخته «المحروسة» متجها إلى أوروبا لدعوة الضيوف ومعظمهم من ذوي الرؤوس المتوجة وأصحاب النفوذ والسلطان المالي والسياسي، وعبّرت إمبراطورة فرنسا عن رغبتها في أن تتصدر احتفالات فتح القناة. وصدر إعلان رسمي في جرائد العالم نصه: «سوف يتم افتتاح قناة السويس البحرية للملاحة الكبرى في 17 نوفمبر. وسوف يتم بمناسبة الافتتاح إعفاء السفن التجارية والدولية القادمة عند بورسعيد والسويس من الرسوم أيام الاحتفال. ولقي هذا الإعلان صدًى هائلاً وتدفقت طلبات السفر إلى مصر». ونجد في وثائق قناة السويس قائمة بأسماء من دعاهم «فردينان دي ليسيبس». مذيلة بتوصيات من شخصيات مؤثرة. وكانت الطلبات تصل إلى الشركة قبل الاحتفال بشهور عدة. لكن الخديوي احتفظ لنفسه حصراً بحق اختيار المدعوين. قبل شهر من الافتتاح جاءت بواخر الشركات البحرية مكتظة بالركاب بعضهم دعاهم كرم الخديوي اللا محدود، وآخرون جذبهم تلقائياً أبهة الاحتفال. يمكننا أن ندرك حجم التجهيزات من خلال ما كتبته الإمبراطورة «أوجيني» إلى

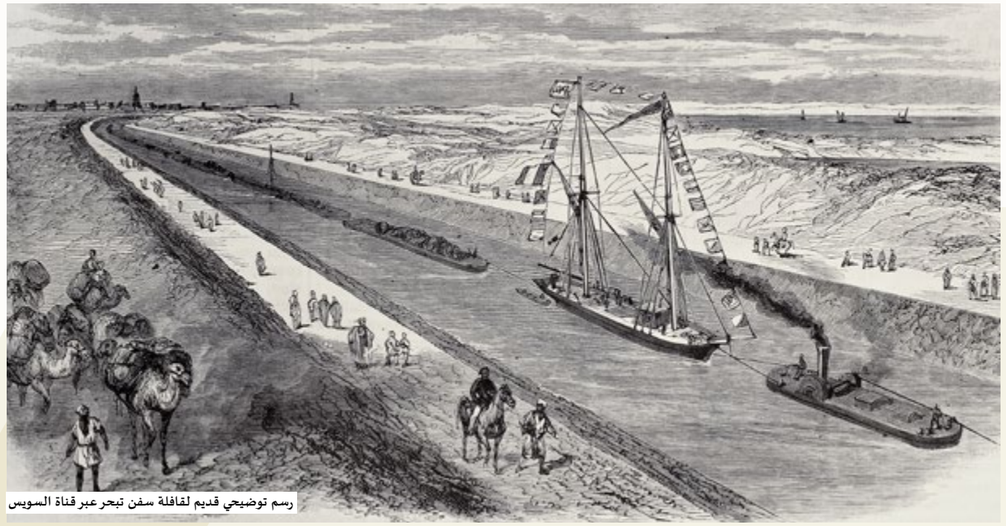
رسم توضيحي قديم لقافلة سفن تبحر عبر قناة السويس

زوجها الإمبراطور نابليون الثالث إمبراطور فرنسا معبرة عن دهشتها: «وصلت إلى بور سعيد بسلام، استقبال باهر لم أشهد مثيلاً له قط طوال حياتي». بداية شهر أكتوبر تم الإعلان في مصر عن أن جلالة فرانسوا جوزيف الأول؛ إمبراطور النمسا وملك المجر و«بوهيما» سيحضر الحفل، وهكذا يجتمع ولي عهد أسرة «هاسبورج» القديمة العظيمة وزوجة إمبراطور فرنسا في ظل ضيافة واحدة في بلاط حفيد محمد علي، وما لبث أن انضم للمدعوين فريدريك جيوم ولي عهد بروسيا، ثم أمير وأميرة هولندا بوصف بلدهما صاحبة تاريخ عريق في البحرية، وعن ملكة إنجلترا السير إليوت سفيرها لدى الباب العالي، وعن روسيا نيابة عن القيصر إسكندر الجنرال «إنياتيف» سفير روسيا في إسطنبول، فضلاً عن رئيس مجلس وزراء النمسا، ورئيس وزراء المجر.

يفرد الكتاب صفحات عدة للحديث عن الشخصيات الثلاث المؤثرة في العمل التنفيذي لمشروع القناة وهم دي ليسيبس. ورويسينار. ولافالي، ويرجع إلى «فردينان دي ليسيبس»

قناة السويس

المجد المزدوج في إعداد وتنفيذ هذا الحلم. ويستعرض بالتفصيل أيام الاحتفال في وصف حماسي ومبهر، مع لمسة أدبية وجمل لا تخلو من أسلوب يتكئ على روعة الوصف مع تمجيد أصحاب الإنجاز.

خمسة أيام للاحتفال

حان اليوم الكبير وبدأت الفعاليات بحفلة دينية بعد ظهر يوم 16 نوفمبر1869، وأقيمت ثلاث منصات خشبية كبيرة على شاطئ البحر مكسوة بالحرير والديباج ومزينة بالأعلام ومفروشة بأثمن السجاجيد ونشرت في أرجائها الرياحين والورود وصفت فيها الكراسي، فخصصت منصة الوسط للضيوف وعلى رأسهم مضيفهم خديوي مصر، وخصصت المنصة اليمنى للعلماء المسلمين في مقدمتهم الشيخ السقا والشيخ العمروسي والشيخ المهدي العباسي مفتي الديار المصرية، فيما خصصت المنصة اليسرى لأحبار الدين المسيحي ورجال الإكليروس وعلى رأسهم المنسيور كورسيا أسقف الإسكندرية والمنسيور باور الرسول البابوي. ونصب على الشاطئ الآسيوي خيالة بورسعيد وعلى الشاطئ الأفريقي المظلات البديعة للجماهير المدعوين.

ووقفت السفن بالمرفأ على شكل قوس وكان عددهم يفوق الثمانين إلى جانب خمسين سفينة حربية منها ست سفن مصرية وأسطول مصري مكوّن من ست سفن سوف تغادر بورسعيد إلى الإسماعيلية.

رسم توضيحي قديم لحفارة في بورسعيد تعمل في حفر قناة السويس

اليوم الثاني: من بور سعيد إلى الإسماعيلية، في يوم 17 نوفمبر، دخل أسطول الافتتاح إلى القناة وفي الساعة الثامنة صباحاً أبحر اليخت «إيجل» يخت إمبراطورة فرنسا أوجيني واتجه نحو القناة وافتتح المسيرة. وتلا «إيجل» يخوت إمبراطور النمسا، وأمير بروسيا والملوك الآخرين ولحقت بهم «بيلوزيوم»، ومثلها فرنسية واثنتا عشرة إنجليزية وسبع نمساوية وخمس ألمانية وواحدة روسية وواحدة دانماركية واثنتان هولنديتان واثنتان إسبانيتان.

اليوم الأول: في بور سعيد

وصل الخديوي من الإسكندرية إلى بورسعيد على يخته الرائع «المحروسة»، بصحبة شريف باشا ونوبار باشا وحاشية كاملة من المسؤولين المصريين لاستقبال أمير وأميرة هولندا على يختهما. وفي يوم 14 نوفمبر وصل «فردينان دي ليسيبس» وعائلته إلى بورسعيد وفي اليوم التالي دخل إمبراطور النمسا على متن بارجة حربية في الميناء وسط هتافات الملاحين وصوت طلقات المدفعية، وفي يوم 15 نوفمبر، دخلت سفن أخرى إلى بورسعيد وتلاحقت بسرعة؛ ومن بينها اليخت «بيلوزيوم» أجمل بواخر الإمبراطورية، وعندما دخل اليخت «إيجل» إلى الحوض الكبير الذي كان مزدحماً إلى درجةٍ تعذر معها إتاحة مكان لحشد القادمين الجدد، شاهد الركاب أمام أعينهم منظراً ضخماً وجليلاً لأكثر من ثمانين سفينة بينما ما يقرب من خمسين بارجة حربية قد اصطفت في الميناء ترفرف عليها جميع الأعلام الأوروبية تصاحبها طلقات المدفعية.

رسم توضيحي قديم لمخازن في بورسعيد أثناء حفر قناة السويس

وبعدها السفن الأخرى وعددها ثلاثون تشكل عشر مجموعات كل مجموعة تتكون من ثلاث سفن.

اليوم الثالث: الإسماعيلية، في يوم 18 نوفمبر صباحاً، تكوّن الأسطول من خمسين سفينة مصرية، وفرنسية، وإنجليزية، ونمساوية، وألمانية، وهولندية، وروسية، وإسبانية، وإيطالية، ونرويجية، وسويدية، كلها مزينة بالأعلام. وتصور بعض لوحات «ربو» أجمل المشاهد التي نالت إعجاب المستشرقين في القرن.

اليوم الرابع: من الإسماعيلية إلى السويس، في يوم 19 نوفمبر ترك الأسطول بحيرة التمساح متجهاً عبر القناة إلى البحيرات المرة، لتقضي السفن الليلة استعداداً لدخول مياه البحر الأحمر في اليوم التالي.

منارة بورسعيد التي تم بناؤها للتو أثناء العمل في افتتاح قناة السويس

اليوم الخامس: في السويس، في يوم 20 نوفمبر غادر يخت الإمبراطورة بحيرة التمساح، ودخل البحر الأحمر في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً، وتم العبور من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر مباشرة. وأثناء النهار ألقت خمسون سفينة جاءت من أجل الافتتاح مرساها في ميناء السويس وقد ارتفعت فوقها الأعلام.

الكتاب الثاني: ماريوس فونتان

أما الكتاب الثاني فهو رحلة رائعة عبر خليج السويس لـ «ماريوس فونتان»، وقد مال مؤلفه إلى التدوين بطريقة منظمة ينتقل فيها بين الفصول المعنونة، بدقة، في رحلة متكاملة الأركان، منحوتة بوصف المشاهدات والانطباعات، بدأها من بورسعيد: البحر نحو بيلوزيوم والميدان المسدود وبحيرة المنزلة وعبور بحر الوحل بلا بلل وأول ضربة فأس والرواد يصارعون الطبيعة، ثم ينتقل في الفصل الثاني إلى تشكيل بور سعيد: الرصيف وبداية الميناء والأحواض والنازحون ثم يعرض وصفاً لحركة الملاحة. وفي الفصل الثالث من بورسعيد إلى القنطرة واصفاً دخول بحيرة المنزلة والصيادين وسكان البحيرة والكراكات ثم يعرج على ماضي القنطرة والآثار الرومانية. ثم ينتقل إلى الفصل التالي من القنطرة إلى الجسر ومن الجسر إلى بحيرة التمساح وهكذا تمضي فصول الكتاب.

أما عن روعة وصفه فيمكننا أن نرى ذلك في مواضع عديدة، ومنها:

«.. تشق القناة المائية طريقها في مستنقعات خالية من المياه في رحلة عبر بحيرات البلاح حتى الفردان في مسافة تصل إلى

عشرين كيلو متراً. ومثلما بدأ العمل في القناة المائية خلال بحيرة المنزلة في مياهها الضحلة وبالإمكانيات نفسها استؤنف العمل في بحيرات البلاح، وبدأ الحفر هناك، وتحت أول طبقة من الرمال اكتشف العمال رصيفاً من الجبس المتبلور وعند تخليص هذا الجبس من كلوريد الصوديوم، فإنه وفر نوعية ممتازة من الجبس لأعمال البناء في بورسعيد. تبدو الحياة في بحيرة المنزلة رائعة تجذب النظر بمصايدها ومراكب الصيد الكثيرة التي تنشر أشرعتها في السماء، وكأنها عالم أسطوري يحلق في الفضاء أما في بحيرات البلاح، فلا تبدو أي مظاهر للحياة فهناك لا ترى طيوراً ولا مراكب لا شيء سوى المستنقعات الخاوية، ولم تصبح بعد الصحراء بتموج الرمال اللافحة وعزلتها المهيبة، ولا الخزان الذي تملؤه فيضانات النيل «حوض سمك الفراعنة» القديم، إنه القحط الأشد قسوة. من القنطرة إلى الفردان، تمر القناة عبر بعض تموجات أرضية وفي هذه الأجزاء فإن السيور الطويلة التي هيأت على الكراكات، لم تكن قابلة للتطبيق كان لابد في ذلك الوقت من آلة يمكن أن تلقي الأتربة من فوق الضفاف العالية. واستجابة لهذه الضرورة تم ابتكار آلة أطلق عليها الرافعة.

... من قمة الجسر إلى بحيرة التمساح تمتد الهضبة العليا واسعة ومتموجة، وتتجه على طول خمسة كيلو مترات ثم تتوقف فجأة، وتعطي القناة والبحيرة منحدراً صخرياً حقيقياً، تسيطر هذه العزلة، على الخليج: إنها الصحراء دون أفق. أقام الجهد الإنساني واحة وسط هذه الرمال، وفي نهاية الهضبة، أسفل المنحدر الذي يحد البحيرة في الموقع الذي تأتي فيه القناة لتصب مياهها في ميناء الخليج الداخلي الكبير، أقيم مخيم من المخيمات الرئيسية، وأطلق عليه اسم الورشة رقم[6]، إلى حيث أقيمت مدينة صناعية بها ورشة وأحواض

للإصلاح ومستودعات، وكان من السهل على من تقع عليه المسؤولية الضخمة في تنظيم هذه الورشة والإشراف عليها أن يقيم له فيها مسكناً.

هذه دعوة مفتوحة للقارئ لمطالعة هذه الرحلة الممتعة، والأهم هو اللوحات المصاحبة للرحلة والتي تنقلك إلى لحظات من الأبهة والفخامة في صحبة ملوك وملكات أوروبا على أرض مصر بريشة «ريو» العظيم ■

باحث في أدب الرحلة

الهوامش:

(1) محمد سعيد باشا، والي مصر من سلالة الأسرة العلوية، تولى الحكم من 24 يوليو 1854 إلى 18 يناير 1863 تحت حكم الدولة العثمانية. كان الابن الرابع لمحمد علي. تلقى تعليمه في باريس وكان ذا نزعة غربية.

(2) تجدر الإشارة إلى أن مظاهر البذخ تزامنت مع الديون التي هي الجانب المظلم في تاريخ الخديوي إسماعيل، حيث يرى بعضهم أنها السبب الذي أدى إلى انهيار بناء الاستقلال، وتدخل الدول الأجنبية في الشأن المالي المصري.

(3) الخديوي إسماعيل خامس حكام مصر من الأسرة العلوية وذلك من 18 يناير 1863 إلى أن تم خلعه عن العرش السلطان العثماني تحت ضغط كل من إنجلترا وفرنسا في 26 يونيو 1879. في فترة حكمه عمل على تطوير الملامح العمرانية والاقتصادية والإدارية في مصر بشكل كبير ليستحق لقب المؤسس الثاني لمصر الحديثة بعد إنجازات جده محمد علي باشا الكبير.

(4) مترجم ومؤرخ مصري من مواليد الإسكندرية، حاصل على درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة السوربون.

المراجع:

- كتاب افتتاح قناة السويس (رحلة الملوك) - جيستاف نيقولاس، وماريوس فونتان، ترجمة عباس أبو غزالة، المركز القومي للترجمة، مصر 2010، ط 1.
- قناة السويس في الوجدان المصري، إيمان عامر، المجلس الأعلى للثقافة، مصر 2009، ط 1.
- تاريخ مصر الحديث، 1911م جُرجي زيدان، طبعة الهلال نسخة إلكترونية.

قناة السويس

«ألف ليلة وليلة»
والتأثير الثقافي العالمي

حمزة قناوي
شاعر وناقد مصري

تعد حكايات «ألف ليلة وليلة» إحدى الإشكاليات الرئيسية في ميراث الثقافة العربية، بدءاً من عدم القدرة على معرفة مؤلفها، نهايةً بامتداد الزمن الطويل للحكايات الذي يجمع عصوراً عدة عربية مروية بداخلها، فلا نعرف إن كانت قد كتبت طوال هذه الفترة مع الإضافة والحذف من قِبل بعض المؤلفين الإضافيين، أم إنها كتبت في الزمن المتأخر واشتملت على كل ذلك فيها، فضلاً عن عجائبيتها الغريبة، وما تتضمنه من حِكم وأمثال وأشعار ومواقف وطرائف. هذه الإشكاليات عندما تم انتقالها إلى الثقافات الأخرى منذ ترجمتها على يد (أنطوان جالان) سنة 1704م، ثم تتابعت ترجمتها لمختلف لغات العالم لاقت صدىً كبيراً ومؤسسياً، حتى إن بعض الغربيين أنفسهم يُرجعون لها فضل تكوّن السردية الغربية، وفضل الواقعية السحرية وغيرها من التأثيرات. ومنذ أن تمت ترجمة «ألف ليلة وليلة» إلى الفرنسية عبر ترجمة حرة قدمها (أنطوان جالان) من عام 1704م حتى عام 1717م، ومن ثم تُرجمت إلى اللغات الأوروبية ترجمات عديدة، فبعدما أثارت حكايات ألف ليلة وليلة فضول أدباء وكتّاب كثر وعلى رأسهم المستشرقون، الذين وجدوا في عالم هذه القصص صورة ملائمة للشرق بخليط ثقافاته الكثيرة التي نتجت عن تمدد الفتح الإسلامي شرقاً نحو بلاد فارس والهند، وغرباً في كل اتجاه. ويمكن القول إنه منذ هذه اللحظة بدأ تناقل الفكر العربي إلى قلب الثقافة الغربية على نحو موغل وعميق، إن «ألف ليلة وليلة» ليست مجرد حكايات فقط، أو لم يتم النظر إليها على أنها حكايات من وحي التأليف البعيد عن الواقع، بل إن ترجمتها وتأثيرها هي ثمرة تأثير بدأ وتعمق مع القرن التاسع عشر الميلادي. هناك رأي يرى أن «ألف ليلة وليلة» ظلت في إطار شفاهي لفترة طويلة قبل طور التدوين، تعتمد على التواتر النقلي في الثقافة العربية، وربما يؤيد هذا الرأي تأخر التدوين بعامة في الثقافة العربية، واعتمادية الذاكرة العربية، لكن هذا الأمر كان من نصيب رواة يروون هذه النصوص. والرواة بطبيعتهم، خاصةً في النصوص الأدبية، يغيرون ويبدلون وينقلون ويحرفون عن النص الأصلي في بعض الأحيان، وفيما يراه (مهدي محسن): «تؤكد بعض الدراسات أنه على الرغم من أن عنوان المخطوط الأصلي هو «ألف ليلة وليلة»؛ فإنه كان يضم ثلاثمئة ليلة فقط. لذلك ظن النساخ في مصر والشام أن المخطوط ناقص، فراحوا يجمعون القصص والسير من مصادر أخرى ويقسمونها إلى ليالٍ، وذلك كي تضمن نسخهم عددَ ليالٍ مطابقاً لما جاء به العنون. ثم يأتي دور السياح الأجانب الذين زاروا القاهرة في القرن الثامن عشر الميلادي؛ في جمع وتحرير ذلك الكتاب؛ إذ تعرفوا على الكتاب مترجماً عن نسخٍ خطيةٍ ظنوا هم أيضاً أنها ناقصة فجاؤوا يبحثون عن نسخة كاملة، فما كان منهم إلا أن باشروا بتجميع ما وجدوا من نسخ في دور الكتب وابتاعوها فألفوا متناً جديداً قُسّم إلى ألف ليلة وليلة ووضعت في آخره الخاتمة المعروفة»[1].

إن هذه الطبيعة الأولى التي انطلقت منها «ألف ليلة وليلة» تفتح الباب أمام احتمالية الحذف والإضافة وإعادة التأليف، إن تلك طبيعة خاصة بهذا النص، وهي طبيعة تغري من لديه الملَكة بأن يعيد نسجها، ولعلنا لا نستطيع حصر من حاول في عصرنا الحديث محاكاتها ومحاكاة قصصها، بيد أنها منذ البداية كانت ولادتها إشكالية، وإن كان هناك دراسات غربية تشير إلى أنها ترجمة عن كتاب فارسي بعنوان: «هزار أفسانة» ترجم إلى العربية بعنوان «ألف خرافة» ■

الهوامش:

1. محسن مهدي: كتاب ألف ليلة وليلة من أصوله العربية الأولى، ج1، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع، ، 2023م، ص18 - 20.

ذكريات زمن البدايات:

مشاهد من الإعلام البترولي

خليل عيلبوني

على الرغم من أن برنامج «الذهب الأسود» الذي بدأت بتقديمه في الإذاعة والتلفزيون منذ عام 1971 كان يحمل اسم وزارة البترول، حيث كان هناك «كابشن»؛ أي كتابة على لوحة، يقول: «إعداد إدارة العلاقات العامة في وزارة البترول والثروة المعدنية»، لكن الحقيقة التي كانت لا تخفى على أحد أن الإعداد كان ضمن المهام الرئيسية التي قمت بها في ذلك الزمن.

وبما أنني اتجهت إلى التخصص، وبما أن الإعلام الحديث لم يعد يقبل بالإعلامي العام؛ بمعنى الإعلامي الذي يقدم أيَّ نوع من البرامج تطلب منه، فقد وجدتُ أنه من الأجدى الانتقال إلى وزارة البترول لأتولى مهمة مسؤول العلاقات العامة والإعلام البترولي، وبالتالي أركز على موضوع البرنامج، ولا أنشغل بغيره. لم يكن الانتقال سهلاً، ولا كان من الممكن للشيخ أحمد بن حامد - الذي ربطتني به علاقات ودية حميمة، وأصبحتُ بالنسبة له أحد أعمدة الإعلام في ذلك الزمن - أن يتخلى بسهولة عني مهما كان السبب أو العذر أو المبرر.

كان قرار الانتقال بالنسبة لي نهائياً، وساعدتني الظروف على تحقيق ذلك القرار؛ فأولاً: وصل صديقي وزميل العمل الأخ سعيد الغيث إلى منصب وزير الدولة للإعلام، أي إنه ينوب في الموافقة على قرار النقل عن الشيخ أحمد بن حامد الذي كان في إجازة خارج البلاد. وثانياً: شغرت وظيفة اقتصادي في وزارة البترول، وصار بالإمكان الانتقال إليها. ولقد تفهّم الأخ سعيد الغيث، والأخ عبد الرحمن الرستماني الذي كان مديراً لشؤون الموظفين الاتحادية أهمية القرار بالنسبة لي فوافقا عليه، وتمكّنت بالفعل من الالتحاق بوزارة البترول والثروة المعدنية قبل صيف عام 1975. كانت وزارة البترول والثروة المعدنية إحدى الوزارات الموجودة في مجمع الوزارات القريب من فندق «إنتركونتيننتال»، وكانت تلك الوزارات عبارة عن فلل صغيرة جدران أسوارها متلاصقة. أذكر من هذه الوزارات: وزارة الاقتصاد، ووزارة التخطيط، ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية. وبسبب كثرة المراجعين لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية، فقد كان موقف السيارات يمتلئ دائماً بسيارات أولئك المراجعين، وكانت الحركة مستمرة حتى نهاية الدوام الرسمي.

إنشاء قسم للإعلام البترولي في الوزارة كان مهمة صعبة؛ إذ لم تكن في المبنى مساحة ولا غرف كافية؛ ففي غرفة واحدة كان يتجمع عدد من الموظفين، ولم يكن بالإمكان لإدارة الإعلام التي خططت برامجها ونشاطاتها أن تنطلق من مكتب عادي. وقد وجدت الحل المناسب عندما طلبت من معالي الدكتور مانع سعيد العتيبة أن أحول جراج سيارته المنفصل عن مبنى الوزارة الرئيسي إلى مكتب، ومكتبة، ومكتب للسكرتيرة. وافق معاليه، وخلال أسبوع كان هناك مبنى منفصل عن الوزارة، يحمل لافتة مكتوب عليها «إدارة الإعلام البترولي».

وهكذا، بدأت مسيرة الإعلام البترولي، وعدت من جديد إلى الإذاعة والتلفزيون من خلال برنامج «الذهب الأسود» الذي لم أتوقف عن إعداده وتقديمه منذ بدأ عام 1971 حتى توقف في عام 1991. الوزارات جميعها في ذلك المجمع كانت أبوابها تفتح على ساحة خالية في الوسط، وكان البحر قريباً من مقر الوزارة غرباً، وكثيراً ما كنت أخرج من باب الوزارة لأمشي على رمال شاطئ قصير، وأتنفس هواء البحر، وأتابع القوارب التي تجول في المنطقة. وبالقرب من الوزارة كانت هناك إدارة للقوات المسلحة تابعة للمغفور له الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، الذي كان يشغل حينها منصب ولي عهد أبوظبي، القائد العام للقوات المسلحة، تفتح أبوابها باتجاه فندق «إنتركونتيننتال»، وكنت باستمرار أزورها للالتقاء بالأخ حمدي تمام المسؤول الإعلامي فيها. الأخ حمدي تمام من أسرة الإعلام، بدأ معنا صحفياً في جريدة «الاتحاد»، ثم تخصص فيما بعد، وانتقل

إلى الدفاع. كنت سعيداً جداً بالاستقلالية التي حصلت عليها بتحويل جراج سيارة الدكتور مانع سعيد العتيبة إلى مكتب لي، ومكتب للسكرتيرة، ومكتبة للأفلام والوثائق والكتب والصحف والمجلات والصور الفوتوغرافية. وخلال السنة الأولى تحول ذلك المكتب إلى خلية عمل، يلتقي فيها الإعلاميون، وتُعد فيها البرامج والتحقيقات الصحفية، ويُستقبل فيها مراسلو وكالات الأنباء والصحف العالمية. لم تكن الوزارات والدوائر الحكومية في السبعينيات من القرن الماضي كبيرة في مساحتها، وما كان عدد المكاتب فيها كبيراً، ولكن دعوني أقرر حقيقة يجب أن يفتخر بها الجيل الذي أمثله، كان الإنتاج ضخماً، وكان العاملون جميعهم في هذه الوزارات والدوائر الحكومية يعملون بحماسة قوية، وكأنهم في سباق مع الزمن وفي معركة حقيقية. كنا جميعاً نرى القائد المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - وهو يصحو من أذان الفجر، ليبدأ نشاطه وجولاته، ويعطي تعليماته، ويوجه المسؤولين إلى جميع ما من شأنه بناء دولة قوية. كان يزور المدارس والوزارات ويلتقي بالعاملين فيهما، حضر أكثر من مرة إلى وزارة البترول والثروة المعدنية، وكان لي شرف الترحيب به، وإلقاء أكثر من قصيدة في حضوره. كذلك كان ولي عهده المغفور له الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان - رحمه الله - لا يترك مناسبة ولا يفوّت فرصة للعمل على تحقيق برنامج واضح المعالم مدروس بعناية ودقة. أما الوزراء، فكانوا حقيقة أول من يحضرون وآخر من يخرجون، وأسجل هنا للتاريخ، لم أقصد في يوم من الأيام أيَّ وزير أو مسؤول لأجده غائباً أو متأخراً عن الحضور. كان مفهوم العمل أنه تكليف وليس تشريفاً، أما اجتماعات مجلس الوزراء فكان يتم الإعداد لها بصورة مكثفة.

نحن في وزارة البترول، على سبيل المثال، كنا جميعنا نساعد مكتب الوزير على إعداد التقارير، وجمع المعلومات التي يحتاج إليها الوزير في اجتماع مجلس الوزراء، الذي كان أشبه بمجلس محاسبة، يقدم فيه كل وزير كشف حساب عن النشاط الذي قامت به وزارته. وبهذه الروح بُنيت دولة الإمارات العربية المتحدة، وبهذا الجهد الصادق تمكّنت من الوصول إلى هذا المستوى العظيم الذي وصلت إليه ■

إعلامي وشاعر

البحر وشعراء الإمارات

قتيبة أحمد المقطرن

قصة الإنسان مع البحر

يرى بعض الدارسين أن قصة الإنسان مع البحر قديمة قِدم البشرية؛ حيث بدأت بجذع، وعندما ابتلعته الأمواج راح الإنسان إلى الشاطئ يتأمل هذا المارد المجهول، وهو يغضب تارة ويهدأ تارة، ثم يسكن حيناً ويزمجر حيناً، وعندما حار في فهمه وازدادت مخاوفه، حاول أن يتقرب إليه بالعبادة وتقديم القرابين، وبدأت رحلته سعياً لاكتشاف أسراره[1]. وأما الإنسان العربي قبل الإسلام فقد كان يعزف عن ركوب البحر، وإذا اضطر إلى ركوبه فكان يركب المركب كما يركب جَمَلاً، إما للهجرة وإما للتجارة وإما للإغارة، وله عذره البيئي والحضاري، فهو ابن الصحراء أصلاً، وأجداده ليسوا أهل بحر، ولا يكاد يعرف عنه سوى زرقته. وسبب امتناع العرب قديماً عن ركوب البحر، أن العرب - لبداوتهم - لم يكونوا في أول الأمر مَهَرةً في ثقافته وركوبه، فلما استقر ملكهم وسلطانهم تكررت ممارستهم بالبحر وثقافته، فأنشؤوا فيه السفن وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح[2].

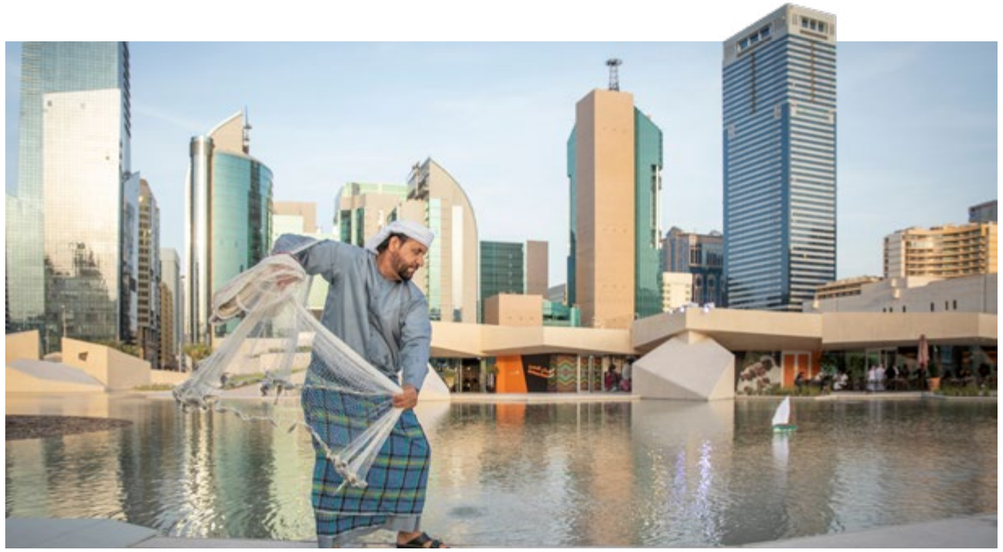

الإنسان الخليجي وعلاقته بالبحر

إن علاقة أبناء الإمارات وأبناء الخليج بشكل عام بالبحر قديمة قِدَم التاريخ ذاته، وقد عكست هذه العلاقة الكثير من قصص الكفاح والصمود، وتعددت على صفحة هذا البحر حكايات الإنسان الخليجي، الذي لم تستطع الصحراء الموحشة أن تحاصره، ولم توقفه أمواج البحر ومخاطره عن امتطاء لجاجه والغوص في أعماقه بآلات وأجهزة بدائية؛ بحثاً عن الحياة ولقمة العيش. ويأتي ارتباط الإنسان الخليجي بالبحر؛ حيث تكمن فيه موارد رزقه، فمنذ القديم والإنسان في الخليج يعيش صراعاً غير متكافئ مع البحر من أجل بضع لآلئ يغوص إلى الأعماق ليفوز بها ويبيعها ويعيش بها عامَه كلَّه، أو من أجل بضع أسماك يصطادها ليقتات عليها هو وعياله أو يبيعها بدريهمات قليلة، إنه الصراع من أجل البقاء[3]، هذا هو جوهر العلاقة بين الإنسان الخليجي والبحر، فالبحر ليس عنواناً عابراً في حياة أبناء الخليج، إنه كيان ورصيد متراكم وبنيان متشعّب من العلاقات التي يحكمها التحدي والصراع.

ثقافة البحر

إن علاقة أبناء الخليج بالبحر وامتهان صيد السمك، والغوص على اللؤلؤ لم تكن مصدراً للرزق فحسب، ولم تكن لإثبات الشجاعة والرجولة فقط، وإنما كانت الرغبة الملحّة في معرفة حدود هذا البحر ونهاياته وما يخبئه ذلك الأفق البعيد. والبحر لم يكن مجرد مسرح يتعلم فيه أبناء الخليج الصبر والشجاعة والبطولة، بل كان مدرسة كبيرة في الحياة، تعلّم أبناؤه فوق أمواجه ثقافات الآخرين وعاداتهم، علّمهم الخبرة والمعرفة وكان له الدور الكبير في نقلهم من عوالم ضيقة إلى عوالم واسعة مفتوحة.

إن البحر باتساعه متنفس للشعراء، وشاطئه أمان واستقرار، وشكوى الشعراء إليه تخفف من وطأة آلامهم وعذاباتهم،

وهذا يذكّرنا بشعراء الطبيعة الرومانسيين الأوروبيين - ومعه الصحراء عند الوجدانيين العرب - رمز للأسرار والامتداد والأبد، تتداولهما أحوال من الثورة والهدوء، ومن الكدرة والصفاء ما يمثّل أحوال الناس وتقلّب الوجدان، وفي رحابهما من الجمال والاعتزال ما ينتزع الشاعر من معترك الحياة والناس إلى مجالَي التأمل والاستشراف والذكريات[4]. ويشكّل البحر عادة للشعراء فسحة من الراحة والهدوء، وملجأ ومهرباً من الهموم، ووسط الألم يبحث الشاعر عن مواطن الأمان التي يمكن أن تقوده إلى الخلاص، وتتكون لدى الشاعر رؤية مفادها، الإيمان بوجوب القضاء على مسببات الألم والوصول إلى غد أفضل، ويصبح البحر في هذه الحالة وسيلة إنقاذ بعد أن كان منفذ هروب، ها هو الشاعر محمود طه يجعل من البحر وشكواه إليه شفاء من آلام علاقته بالواقع:

لِـــي وراءِ الأمـــواجِ يـــا بحـــرُ قلـــبُ
نـــازحُ الدَّار مَـــا لـــهُ مـــن مَـــآبِ
بَيْـــدَ أنِّـــي أُحِـــسُّ فيـــكَ شفـــاءً
مِـــن سِقامي ورحمـــةً مـــن عذابـــي
أنـتَ مَهْـــدُ الميـلادِ والمـوتِ يـا بحـــرُ
ومَثـــوى الهمـــــومِ والأوصـــابِ
فَأنـــا فيـــكَ أطـــرحُ الآنَ آلا....
.... مِـــي وعِـــبْءَ الحيـــاةِ والأحقـــابِ[5]

أبناء الإمارات والبحر

إن علاقة أبناء الإمارات بالبحر يحكمها رباط وثيق، علاقة متجذرة متأصلة منذ الأزل، علاقة تشهد عليها رمال الشاطئ وصخوره، وأمواج البحر وزبده، فمنذ أن فتح ابن الإمارات عينيه على الحياة وجد البحر صديقاً ورفيقاً، فشقّ غماره وغزاه صياداً وربّاناً وفاتحاً ومغامراً يبحر مع أمواجه إلى عوالم بعيدة وبقاع مجهولة. ولا شك أن تأثير البحر ظهر جلياً في شعر شعراء الإمارات، وتمحورت فيه معاني الولاء والانتماء وقيم الوفاء لهذا الصديق، إنه مصدر الرزق والحياة، وهو مصدر الموت والخوف في الوقت ذاته، تعلقت أفئدتهم به خوفاً وطمعاً.

البحر هو البيئة الثانية التي عرفها أبناء الإمارات بعد الصحراء، وارتبطت نفوسهم به ارتباطاً قويّاً، وتأصّلت العلاقة بينه وبينهم حتى غدا شيئاً كبيراً في وجدانهم وكثرت مغامراتهم ورحلاتهم معه. وبالتالي بات لوحة رمزية تعكس منزلة الإنسان الوجودية؛ لأنه منبع الخيرات والثروة، وهو الفضاء الرومانسي للمحبين، والعالم الزاخر بالأحاسيس الإنسانية المتناقضة، إنها العلاقة الجدلية المتوترة بين الإنسان والبحر؛ ولهذا احتل البحر حيّزاً واسعاً في مخيلة وإبداعات شعراء الإمارات فراحوا يتبارون في وصف زرقة مياهه وصفائها، وعلوّ أمواجه وزبده، ومجاهله ومخاوفه، ورحلاته المحفوفة بالمخاطر، والمرآة العاكسة لهموم النفس، وإنما يأتي الاهتمام به في أشعارهم لهيمنته الكبيرة على حياتهم ومجرياتها ومعطياتها، فقد شكّل شريان الحياة وعَصَبَها في مرحلة ما قبل ظهور الذهب الأسود في أرض الإمارات. كان البحر قديماً من أهم مصادر الرزق للمقيمين على شواطئه، فغاصوا إلى أعماقه بحثاً عن اللؤلؤ، ونصبوا شباكهم في عبابه لصيد ما يخبئ في أعماقه من الأسماك، وتنقّلوا بسفنهم وقواربهم فوق مياهه للتجارة. وعلى الرغم من عطائه الوفير فإنه كان مصدر خوف وهلع للصيادين عندما يعلن غضبه وتعلو أمواجه وتهدر وتزمجر عواصفه العاتية.

كان الصياد في الإمارات ينظر إلى البحر كصديق لا يمكن التخلي عنه وخيانته مهما كانت ظروف الحياة قاسية وصعبة. ويوصَف البحر بغدره وقساوته، وله سلطة قسرية يتحدى بها كل الصيادين، فهو المنتصر دائماً على الصيادين وأدواتهم المتواضعة. فماذا تفعل قواربهم المهترئة البسيطة أمام ثورانه وهيجانه؟! وبرغم كل هذا فإن حاجة الإنسان إلى خيراته ماسّة وأساسية، حتى لو كان سبباً في شقائه وفقدان أعز الناس على قلبه، فكم سمعنا من القصص المبكية الحزينة عما فعله البحر بالصيادين ومراكبهم، فكم طوى في أعماقه من النفوس

البريئة! وكم سمعنا عن كوارث بحرية أطاحت سفناً وبواخر بكل ما فيها، والأبناء في مجتمع الصيادين لا يجدون مفرّاً من مواصلة مشوار آبائهم في مهنة الصيد التي عاشوا عليها وأكلوا لقمتهم المغمسة بالدم والعذاب.

إن البحر عند شعراء الخليج يعني الخليج نفسه، بكل معالمه الجغرافية والطبيعية والرمزية، ولا يمكننا أن نتحدث عن الخليج دون الحديث عن البحر، بكل أبعاده وصوره، فلا خليج من دون بحر، فالبحر رمز للخليج ببره وبحره، وعندما يأتي الشاعر على ذكر الخليج فإن البحر يتسيّد الموقف، ويتجلى البحر بأمواجه وشواطئه وأسراره وأصدافه ولآلئه وقصص الغوص ورحلاته، وفي هذا يقول الشاعر جابر أحمد المنصوري

قديـــمٌ يـــا خليـــجُ بشاطئَيكَـــــا
فكـــم قَـــرْنٍ جـــرى عَجِـــلًا عَليكَـــا
وكَـــمْ حَـــدَثٍ طويـــتَ بـــلا ضجيـــجِ
لَفَظْـــتَ غُثـــاءَه مـــن ضِفَّتَيكَـــا
وأخفيـــتَ الجواهـــرَ فـــي سحيـــقٍ
تضـــمُّ كُنوزَهـــا كلتـــا يَديْكَـــا[6]

البحر والوجه الشاعري

وللبحر جانب شاعريّ أيضاً، فقد كان رفيق أبناء الإمارات المؤنس ومُجلي همومهم وملاذهم في الملمات والشدائد، يجدون على شواطئه راحة البال والطمأنينة، فقد كتب ذكرياتهم وقصص عشقهم كما الصحراء من قبل، فعلى رمال شواطئه لعبوا وأمام مياهه الزرقاء كتبوا الشعر والتقوا بالحبيب. إن البحر يعيش في أعماقهم ويتجذّر في كيانهم لا يستطيعون عنه محيداً، فأثره كبير في نفوسهم وتفكيرهم وتشكيل حياتهم، حاضر معهم يعيش في أفئدتهم، إنه عالم كبير ليس له حدود، ها هي ميسون القاسمي تتحدث عن فعله في كيان أبناء الإمارات ووجودهم وما قدمه ويقدمه لهم، وتتحدث بصيغة المتكلم:

البحـرُ لوَّننـا بألـوان الصَّـدَف
انتشر حولَنـا كالنسيـم
وقَلّدنـا الممـالك
البحـر يغمُرنـا
لا جـدار بينـه وبينَ الطيـور
ولا سحـابَ بينه وبين الزوارق
هـا هو ذا يجـري

هـــا هـــي ذي السمـــاءُ
البحـــرُ يســـوّرني بالأرض
يلوننـــي ويغمرنـــي[7]

الشاعرة تنظر إلى البحر من خلال اتساعه وسلطته المطلقة، فلا حدود له ولا قرار، إنها تراه يحيط بها من كل جانب ولا تستطيع فكاكاً من أسره، حتى الطيور تعانقه والزوارق ترتاده، البحر يسيطر على الشاعرة ويعيش في كيانها ويحيط بها من كل جانب ويثبتها بالأرض التي تقف عليها، نلحظ تركيز الشاعرة على إظهار سلطة البحر واتساعه وهيمنته.

والبحر عند مانع سعيد العتيبة عاشق مثله، فعلى شواطئ غنتوت التي لها في قلب الشاعر مكانة ومحبة يحاوره ويتبادلان معاً حديث العشق والهوى، وبلقائه تنجلي الهموم:

لِلبحـــــــرِ فـــي غَنتـــــــوتَ
إيقـــــاعٌ وَشَـــــــــدوٌ مُبـــــدِعُ
أُصغـــــي إليـــــــه فينجلـــــي
هَمّـــــي وصَفـــــوي يَرجِـــــعُ
وأراهُ يُقبـــــــل ضاحكًـــــــا
نَحـــــــوي وتُفتَـــــــحُ أَذْرُعُ
بينـــــي وبيـــــن البحـــــرِ وُدٌّ
حُبُّـــــــه لا يُقطَـــــــعُ
هـــوَ شاعـــــرٌ مِثلـــي فِـــإنْ
غَنَّـــــى فقلبـــــي يَخشـــــعُ[8]

إن للبحر في غنتوت مساحة كبيرة في قلب الشاعر، غنتوت التي تغنّى بجمال طبيعتها وسحر شطآنها ورمالها، وفي هذه

الحوارية بين الشاعر والبحر يعلو حديث الهوى والعشق، ويُسقط الشاعر همومه على البحر وكأنه رَجْعٌ لأشواقه وما يعتمل في صدره من هموم، البحر إنسان يشعر ويعشق ويشكو. إن العتيبة ينظر إلى البحر من الجانب الشاعري، فعهدنا بالبحر ذلك الغدار الذي يقتنص الأحبة ويقهر راكبيه.

هذا هو البحر الذي كان حاضراً بقوة في حياة أبناء الإمارات وشعرائها في فترة ما قبل النفط واستمر كذلك بعد ظهور النفط، ولكن بمعطيات جديدة. لقد تجذّر البحر في عقول أبناء الإمارات وشعرائها كتجذّره في حياتهم فراحوا يتغنون بهدوئه وهيجانه، بمدّه وجَزْره، بسطحه وأعماقه، ويتقاسمون معه ويشاركونه سعادتهم وأفراحهم وهمومهم وأحزانهم ■

أكاديمي سوري

الهوامش والمراجع:

(1) العرب والبحر، حامد سليمان: ، مجلة الكويت، العدد 22، 1983، ص 37.
(2) المرجع السابق نفسه: ص 37 - 38.
(3) تاريخ صيد اللؤلؤ وتجارته، عائشة عتيق أحمد يوسف: جائزة العويس، الدورة الرابعة 1993، ط 1، دبي 1996، ج 1، ص 189.
(4) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، عبد القادر القط: د. ط، مكتبة الشباب، القاهرة 1978، ص 164.
(5) لملاح التائه، علي محمود طه: المجموعة الكاملة، دار العودة، بيروت 1982، ص 102.
(6) ديوان شاهد ومشهود، جابر أحمد المنصوري: القصيدة (36)، سلسلة شاهد، ط 1، المجموعة الأولى، مطبعة دار الفكر الجديدة، أبوظبي 1991، ص 52.
(7) ديوان الريهقان، ميسون القاسمي: قصيدة (وجه يعدني بالمجيء)، ص 91.
(8) ديوان بشاير، مانع سعيد العتيبة: قصيدة (حوار مع البحر)، ط 1، أبوظبي 1995، ص 30.

ضعف الأندلس وانعكاسه على الفنون

نورة صابر المزروعي
أكاديمية من الإمارات

بدأ الضعف يدبُ في أنحاء الأندلس بسيطرة أمراء ضعفاء تصارعوا فيما بينهم على الحكم، وهذا ساعد على ظهور متشددين يحاربون الفنون بشكل عام ورواد الموسيقى على وجه خاص. وهذا أدى إلى تراجع الثقافة والفنون. وأصبحت الأندلس تُحكم من قِبل مجموعة من الأمراء عُرفوا باسم «ملوك الطوائف». وأشهر هؤلاء الملوك أمراء بني عبّاد على إشبيلية ما بين الأعوام من 1023 - 1091م، وأمراء بني جهور في قرطبة ما بين الأعوام 1031 - 1068م، وأمراء بني ذي النُّون في طليطلة ما بين الأعوام 1053 - 1085م، والعامريون في بلنسية في الأعوام من 1021 - 1085م، والتجيبيون في سَرقسُطَة 1019م، وأمراء بني هود مابين عامي 1039 - 1041م، وأمراء بني حمّود في الأعوام من 1016 - 1057م، وفي مالقَةِ أمراء الزيدية 1012 - 1090م في غرناطة. فكان التاريخ يعيد نفسه في الأندلس امتداداً لما حدث للخلافة الإسلامية في بغداد، وتحالف الأمراء بعضهم ضد بعض وانهار الاستقرار السياسي بسقوط آخر مملكة في الأندلس غرناطة 1492م. ففي عهد الخليفة هشام الثاني ما بين الأعوام 976 - 1009م خرج المتشددون ينتقدون بشدة العلوم اليونانية التي انتهت بمصادرة الكتب في علم الطبيعيات وعلم الفلك والموسيقا، وهذا أدى إلى هجرة المفكرين والباحثين المهتمين بهذه العلوم. ووجد المترصدون من الممالك المسيحية في الشمال فرصة عظيمة للتدخل، وبدأ التهديد الوجودي لكل الأمراء يظهر بسقوط طليطلة في عام 1085م.

طلب الأمراء الأندلسيون العون والمدد من المرابطين شمال أفريقيا في حروبهم مع الممالك القشتالية فتدخل المغاربة ودحروا الجيوش الإسبانية في معركة «الزلاقة» وبعد هذا النصر استولى المغاربة «المرابطون» على الحكم وأصبحت أجزاء من الأندلس تابعة إلى مراكش. وكان المرابطون ضد الفنون فقاموا بتحريم الموسيقا بحجة أنها تشغل وتلهي عن مصالح الدولة. وشمل التحريم كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي الذي يبيح الاستماع إلى الموسيقا. وفي القرن الحادي عشر اكتسح المتعصبون الحياة الاجتماعية، أما في القرن الثاني عشر فقد ظهر الصوفي أبو بكر بن العربي 1151م قاضي إشبيلية الذي دافع عن الموسيقا في وجه المتشددين في كتابه «السماع وأحكامه».

بزغ عهد جديد في الأندلس عُرف باسم «الموحدين» عام 1130م دخلوا في حروب مستمرة مع المرابطين المغاربة في مراكش والأندلس 1144 - 1145م. وانتصروا عليهم وحكموا الأندلس قرابة قرن من الزمان. الموحدون في بداية عهدهم لم يولوا اهتماماً للجانبين الفني والثقافي، ثم جاء حُكام من السلالة نفسها يحترمون الفن ويقدمون الرعاية والحماية للعلماء والموسيقيين وتألقت أسماء أسهمت في بناء الحضارة الإسلامية ومنهم الفلاسفة: ابن رشد، وابن طفيل، وموسى بن ميمون، وابن سبعين. ولكن هؤلاء الفلاسفة تعرضوا لكثيرٍ من الانتقاد بسبب كتاباتهم ولاسيما عندما استولى البربر على قرطبة في عام 1148م، وأظهروا التشدد فقاموا بهدم الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية، وخيّروا المقيمين من المسيحيين واليهود بين الإسلام أو النفي، فهاجر كثير من المفكرين، ورحل الحكم الباهلي إلى العراق وأصبح طبيباً في المستشفى العسكري للسلطان محمود السلجوقي في بغداد، ثم رحل إلى دمشق وعمل في خدمة نور الدين زنكي، ثم عظمت مكانته لاشتهاره بعلم الطب والرياضة والأدب والموسيقا وكان عازفاً على آلة العود. واختار اليهودي موسى بن ميمون الرحيل في عام 1159م هو وزوجته وأبناؤه إلى مصر واستقروا فيها. كانت مصر مزدهرة بالفنون والعلم في ظل حكم الأيوبيين خاصة في عهد صلاح الدين الأيوبي (1171 - 1193) الذي عُرف بالتسامح الديني والثقافي ونتيجة للاستقرار السياسي لاقى ابن ميمون الدعم والترحاب من سلطانها وأكرم المهاجرين من الموسقيين أمثال الحكم الباهلي، وأبي نصر بن المطران، وأبي زكريا البياسي. وأصبح ابن ميمون مقرباً من السلاطين، وكان يعد من أعظم أطباء اليهود في مصر، فاختير طبيباً خاصاً لنور الدين بن صلاح الدين الأيوبي، ثم بعد ذلك عيّنه صلاح الدين الأيوبي رئيساً للطائفة اليهودية لحماية يهود مصر. مكث موسى بن ميمون في مصر حتى وفاته، وعكف على دراسة مؤلفات ابن رشد طوال 13 سنة، ثم استأنف الكتابة والتأليف وألف «دلالة الحائرين»، وهو من أهم كُتبه. ومن أشهر مؤلفاته أيضاً: كتب في الطب والفلسفة، دوّن فيها آراء الفلاسفة الغربيين والإسلاميين أمثال: أبقراط، وجالينوس، وديسقوريدس، وأبو بكر الرازي، وابن رشد.

أما الفيلسوف ابن رشد، الذي استطاع أن يؤسس فكراً فلسفياً مبنياً على العقيدة الإسلامية، فقد تمكّن من الفكر اليوناني ووظفه لخدمة الفكر الإسلامي القائم على النقد والتمحيص لا مجرد المتابعة لآراء الآخرين، فقد تطاول كثير من المتشددين عليه واتهموه بالكفر أمام الخليفة، واستطاعوا أن يشنوا حملة

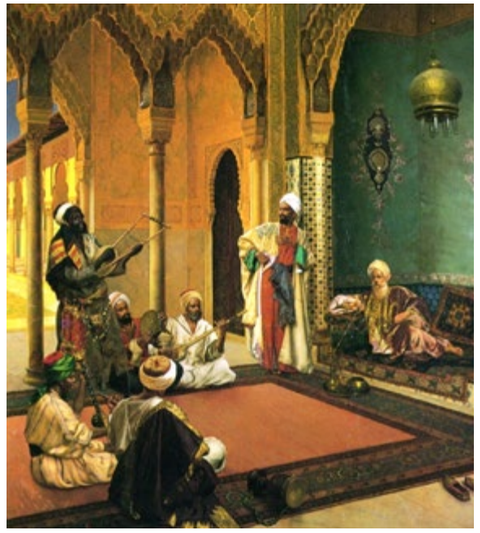

عدائية عليه في قصر الخليفة، غيرةً منه على مكانته السابقة بوصفه قاضي القضاة ومقرباً من الخليفة السابق. واجتمع فئة من داخل القصر بالطعن في شروحات ابن رشد وتحريف كتاباته، واتهم ابن رشد بالكفر لاقتباسه من أعمال اليونانيين، وهذا أدى إلى نفيه إلى مراكش في بلدة يقطنها اليهود تسمى أليسانه. قال ابن رشد: إذا أردت أن تتحكم في جاهل فعليك أن تغلف كل باطل بغلاف ديني. التجارة بالأديان هي التجارة الرائجة في المجتمعات التي ينتشر فيها الجهل. وبعد ذلك أُصدر قرار وهو في منفاه بحرق كتبه كلها التي تناولت علم التنجيم، وعلم المنطق، وعلم الفلسفة، وأُحرقت مؤلفات ابن رشد الفلسفية، إلا أن بعض تلك الكتب نقلت عن طريق اليهود، وترجمت من العربية إلى العبرية إلا أن النص العربي فُقِد نتيجة تعرض الكتب للحرق ■

المصادر والمراجع:

1. عبد المحسن طه رمضان، تاريخ المغرب والأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار الفكر، الأردن، عمّان، الطبعة الأولى، 2010.
2. خالد الصوفي، تاريخ العرب في إسبانيا، منشورات الجمل، بيروت، لبنان، 2011.
3. دومينيك أورفوا، ابن رشد طموحات مثقف مسلم، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، ترجمة محمد البحري، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى،2011.

قراءة في رواية «ريم بسيوني»

«الحلواني.. ثُلاثيَّة الفاطميِّين».. سرد تاريخي مشوق برؤية عصرية

خالد عمر بن ققة

ينجذبُ النّاس - استماعاً وقراءة - لقصص التاريخ، بغض النظر إن كانت أحاديث تفترى أو حقيقة مصحوبة بأدلة ترقى أو تقترب من اليقين في بعض الحالات، خاصة إذا سجلت كتابةً زمن وقوعها، وربما يعود هذا الانجذاب - دون حساب متعة القراءة هنا - إلى كون الماضي مُباحاً، ليس لأن الفاعلين فيه وبه ومنه غائبون فقط، ولا يمكن عودتهم أبداً لتصديق أو تكذيب ما قيل عنهم، وإنما لأن الهروب من الحاضر بالنسبة إلى الأمم والشعوب جميعها في أزمنة الانتصار والهزائم، والحروب والسلام، والرخاء والشدة، تكون محطة وصوله النهائية هي التاريخ الماضي، خاصة قصصه الإنسانية.

الذهاب إلى التاريخ، البعيد منه بوجه خاص، هو هروب من الواقع، وتخلٍّ عن قاعدة «تلك أمة خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم»[1]، سواء كان ذلك بقصد أو من دونه، رغم أن استحضاره للتأسيس والاعتماد عليه، أو الركون إليه باعتباره مرجعية، قد يسْهم في حل مشكلات معاصرة بعينها، فإنه ينزلق في الغالب إلى فضاء منطق تقييم تجربة البشر في ماضيهم، والذي لا ينتهي في كثير من الحالات إلى تقويم حاضرهم.

على المستوى النظري قد يتحوّل الذهاب إلى تجارب البشر في حِقَبهم الماضية إلى هجوم معادٍ للتراث، إذا تعلَّق الأمر بالجدال الفكري في جدِّه وهزله، وقد يتحول ذلك الهجوم إلى تصفيَّة حسابات وهمية مع الأقدمين، وتلك حالة أولى من بين حالات كثيرة، ليست مجال بحثنا هنا، وهناك حالة أخرى تخصنا، تخصُّ العودة إلى التراث من زاوية الأدب، في استباحة مشروعة للتخيل، وقد يغلب هذا الأخير عن الحقائق.

وبالنسبة إلى تلك العودة بما تحملها من متعة القراءة، حتى لو جانبها الصواب، هي موضوع حديثنا اليوم، ليس لأنها فرضت نفسها من حيث القبول بها فقط، واتخاذها مطية للحصول على الجوائز في الأدب، وخاصة الرواية، وإنما لأننا نواجه بها واقعاً مؤلماً ومأسويّاً يبتعد بسرعة مزعجة ومقلقة عن منظومة القيم أيضاً، على ما في ذلك من تغييب للعقل، لدفعنا نحو تغيير يخرج من التنظير الفكري إلى الواقع العملي، وهذا الأمر يجعلنا في خشية من أن يكون التاريخ - خاصّة المتخيَّل منه - مزيفاً، أو زهوقاً.

متعة القراءة.. وشهوة المعرفة

تلك الخشية قد تَنقص - لكنها لا تزول - إذا ما عُدْنا لقراءة بعض الأعمال الإبداعية العربية في مجال التاريخ، ومنها رواية «الحلواني.. ثلاثية الفاطميين»[2]، للكاتبة المصرية «ريم بسيوني»[3]، والتي تدخل ضمن مشروعها الفكري، كما يظهر في «معظم كتاباتها الروائية»[4].

لقد جسدت بسيوني التاريخ المصري من منظور تراثي، وبلغة جذابة وممتعة وسَلِسَة، فيها يشترك القارئ مع أبطال رواياتها وشخوصها في فضاء لغوي واحد، يبعده عن «الاغتراب اللغوي» الذي نجده في أعمال أخرى كثيرة لروائيين استنجدوا بالتاريخ فغرقوا فيه، ولم يسعفهم معجمهم اللغوي.

من ناحية أخرى، فإن الروائية ريم بسيوني، عن قصدٍ وبوعيّ كامل، تقدم من خلال روايتها هذه، كما هو مشروعها، صيغة معاصرة في ظاهرها، وفي باطنها تراث قديم للتطور التاريخي والمجتمعي لمصر في العصر الوسيط، ساعية لإبراز طبيعة الشخصية المصرية في تلك الحقبة التاريخية الممتدة لقرنين من الزمان، عبر سردية وظفت فيها الأصناف الأدبية كلها، من خلال لغة معبرة وطيّعة، ومنتصرة فيها للبعد الإنساني. وفي تلاقح بيّن وعميق ومنفتح، وقابل للتناسل، تظهر الأبعاد الفكرية والمجتمعية لجهة امتدادها في عمر الزمن، لدرجة نقرأ عدداً من الكلمات المستعملة اليوم في الثقافة المصرية، ونفهم كثيراً من الأفعال الاجتماعية الراهنة من ناحية ظهورها ونشأتها الأولى، الأمر الذي يجعلنا نبرح عاكفين لأجل فهم أفعال أخرى غيرها حتى تأتي ريم بسيوني بتفسير تاريخي جديد لها، وأحسب أن هذا ما تسعى إليه بوعي وجدٍّ في كل رواياتها.

الملاحظ، في حدود فهمي، أن التاريخ يتحكّم في ريم، وتحديداً عصور مصر الإسلامية من ناحية المسجل والمعروف والمكتوب بشكل عام، لكنها هي تتحكم فيه من خلال الشفاهي والمنطوق أيضاً، والمتداول، والرائج بين أهل مصر وسكانها، ولا أدري إن كان يحق لي القول: إن تلك السلطة المقسومة بين الكاتبة والتاريخ جاءت عادلة، لكني أراها كذلك.

لقد مكنتنا بسيوني في هذه الثلاثية - المختلفة عن «الثلاثيات» المعروفة في الأدب العربي منذ أن بدأها نجيب محفوظ - من التوقف عند العلامات الدالة للمجتمع المصري عبر مراحله التاريخية، وتحديداً حقبة الفاطميين كما في روايتها هذه، فسلكت بنا مساراً قرائياً، إن جاز التعبير، من نتائجه الجمع بين متعة القراءة كما يراها «ألبرتو مانغويل»[5]، و«شهوة المعرفة كما في تقسيم وتعريف أبو حامد الغزالي»[6].

الثلاثيّة الثّالثة.. و«من هو المصري؟»

تَقْدُم بنا، بل تَقُودنا، ريم بسيوني إلى جدل الهوية والانتماء، وهذا في سياق غير بعيد عن الحالة العالمية الراهنة، ولكنها لا تذهب بنا بعيداً إلى حيث بداية تشكل القبيلة والشعب والأمة والوطن، أو إلى مولد الحضارات الأولى في مصر، ولو فعلت

ذلك لكانت اليوم - دون قصد - تُبْعدنا عن السياق التاريخي الراهن لمصر في بعدها الوطني، وفي أبعادها الأخرى القومية والدينية والعالمية.

ولوفعلت ذلك أيضاً لاشتعْصت عليها معرفة «من هو المصري؟» في كل عمر أرض الكنانة، وخاصة في الحقبة الإسلامية، وهو سؤال موجه لذات الكاتبة أولاً، ولكل المصريين بعد ذلك، ولَصَعُب عليها السير في ركب الحضارة المعاصرة في راهنها حيث الانتصار إما لانتماء بالمولد وإما بالتعمير، وبالطبع هي لا تجزم بذلك، وإنما تتركه لفهم وإدراك القارئ وهو يتابع أبطال الروايات وشخوصها وهم يصنعون تاريخاً يشترك فيه الخاص بالعام، ويطغى فيه حب الذات والسلطة ونهب الخيرات على القيم الجميلة التي تنتهي إلى زراعة الخير، حتى لو كانت أرضه بوراً أو جدباء.

في «ثلاثيّتها الثّالثة» تكمل دكتورة ريم بسيوني ما بدأته من قبل في رواية «أولاد الناس.. ثلاثية المماليك» وفي رواية «القطائع.. ثلاثية ابن طولون»؛ وهي كما صرحت لجريدة «اليوم السابع»: تواصل التنقيب في جوانب الحياة في مصر في ظل ممالك تركت آثارها في التاريخ والسياسة والمعمار والحياة الاجتماعية»[7]، وذلك لأجل «أن تصحبنا في رحلة جديدة مملوءة بالرومانسية والحكايات التي تخلد حياة البشر في مصر»[8].

وفي هذا كلّه، تتقصَّى ريم بسيوني حقائق التاريخ، المسجل منها والمروي، في سرديّة تحمل أسلوباً جذاباً يُنْسينا الظن، ويُزيل عنا الشك في الجانب المتخيل من هذا التاريخ، أو يُلهينا في تفاعلنا مع القضايا والحوادث الكبرى عن أخرى صغرى تأتي عابرة، وإن كان لها تأثيرها على مجرى الأحداث، لكن في الغالب لا تشدُّ إليه رحال الباحثين، حتى المهتمين بالتاريخ منهم، فتغدو إليها ريم بسيوني، ثم تروح إلينا بهذا السِّفْر الأدبي المكوّن من ثلاث روايات، منفصلة من حيث موضوعاتها، ولكن متصلة بأخرى في سياق تسلسل أحداثها التاريخية.

الصقلي.. والجمالي.. والأيوبي

وبالعودة إلى رواية «الحلواني.. ثلاثيّة الفاطميّين» نجد أنفسنا في مواجهة، ليست حرباً ولا عُنْفاً، ولكنها أقرب إلى اللقاء الحميمي في مجال المعرفة، حيث التجلي المبهر لثلاث شخصيات أثرت في التاريخ المصري، وحققت حضوراً عابراً للأزمنة إلى أن وصل إلى أهل مصر اليوم.

تبدأ الرواية بالقصة الأولى، التي تحكي عن جوهر الصقلي مؤسس القاهرة والقائد العسكري الكبير وأحفاده الذين تابعوا مسيرته بما صنعوا من حلوى تميزت بها الفترة الفاطمية في مصر. وتدور القصة الثانية حول شخصية بدر الجمالي القائد الأرمني والي عكا الذي استعان به المستنصر بالله الفاطمي في القضاء على آثار الشدة المستنصرية، وأعاد الحياة إلى

طبيعتها في مصر بعد أن عينه رئيساً للوزراء وقائداً للجيوش، فأحبه المصريون لما نشره من عدل وتنظيم.

وتتناول القصة الثالثة والأخيرة شخصية صلاح الدين الأيوبي؛ ذلك الكردي الذي نجح في حماية مصر من الصليبيين، وحكم مصر بعد القضاء على الفاطميين وعلى مذهبهم الشيعي.

إنها رواية تُرينا كيفيَّة وراثة أمة سياسية لأخرى ضمن الفضاء الإسلامي، حيث المعتقد والمذهب يرافقان السلطة والتصور البشري من ناحية التفسير الديني أولاً، ومن صبْغ الفعل السياسي، السُّلطوي والتملكي بصبغة دينية ثانياً، ثم الانتهاء بعد ذلك إلى صناعة منجز بشري فيه من الشر أو الخير ما يصاحب التعمير أو الخراب والتدمير ثالثاً.

الأبطال الثلاثة، الصقلي والجمالي والأيوبي، كما تقول الكاتبة: «لم يكونوا مصريين بالأساس، غير أنهم أثبتوا أن من يُطلق عليه مصرياً عبر التاريخ ليس بالضرورة أن يكون مصري العرق، لأن مثلهم كُثر اختاروا مصر لتكون وطناً لهم»[9].. لقد كانوا جزءاً من التاريخ السائد في عصرهم، وإن كانت حميتهم ومبررهم دينيَّيْن إلا أنهم كانوا من أمم أخرى، ومنهم من غير العرب.

وتواصل الروائية ريم بسيوني تفسيرها لصناعة التاريخ بما يَشي برفضها للمسألة العرقية وتحكمها في حركة التاريخ ومصير الأمم، حين تقول: «العِرْق فكرة أوروبية ظهرت في بدايات القرن الثامن عشر الميلادي، حيث كان الناس قبل تلك الفترة في منطقتنا العربية وغيرها من بقاع العالم، ينتقلون من مكان

إلى آخر بسهولة ويسر من دون حواجز عرقيَّة أو جغرافيَّة»[10].

بقي أن نشير هنا إلى ثلاث ملاحظات أساسية، أولها: شُمولية الرواية، فهي لم تبق أسيرة الأحداث التاريخية، بل حققت حريتها من خلال الغوص في تفاصيل الحياة أولاً، واستكشاف عمق الطبيعة الإنسانية في وجودها المكاني، وتفاعلها الزمني ثانياً، وتطويع اللغة حتى غدت معبرة، ثم صارت كائناً فاعلاً ممتعا ومشوقاً، يستحضر كل ما لديه للتعبير عن التاريخ ثالثاً

وثانيها: استرجاع الرواية لماضي التاريخ المصري بعيداً عن التوظيف السياسي، بما يجعل منها عملاً إنسانياً خالصاً، يعمق من التعايش والتعاون بين البشر على اختلاف رؤاهم واتجاهاتهم، رغم ما في ذلك التاريخ من سلبيات، وما أريقت فيه من دماء.

ثالثها: الاعتراف بجودتها الأدبية والتاريخية كما جاء في تسبيب فوزها بجائزة الشيخ زايد لسنة 2024م - فرع الآداب - كما ذكر تقرير لجنة التحكيم، حيث انتهى إلى القول: «فازت نظراً لما تمتاز به من جودة أدبية وتاريخية استثنائية، والرواية بأسلوبها السردي العميق والغني تقدم تصويراً معقداً ومتعدد الطبقات للعصر الفاطمي، مما يعكس بدقة الحياة الاجتماعية، الثقافية، والسياسية في ذلك الزمان.. وتتميَّز الرواية بلغتها الرفيعة وحبكتها المحكمة، التي تجعل من التاريخ قصَّةً مثيرة ومشوِّقة»، وهي كذلك حقاً ■

كاتب وصحفي . الجزائر

الهوامش والمراجع:

1 - الفقرة مأخوذة من قول الله سبحانه وتعالى: «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (سورة البقرة - الآية 134).

2 - «الحلواني.. ثلاثية الفاطميين»، ريم بسيوني، الطبعة الثالثة، دار نهضة مصر، نوفمبر 2022م.

3 - ريم بسيوني، كاتبة وروائية مصرية، وأستاذة ورئيسة قسم في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، فائزة بالعديد من الجوائز منها: جائزة ساويرس للثقافة عن روايتها «الدكتورة هناء»، وجائزة أحسن عمل مترجم في الولايات المتحدة الأمريكية عن روايتها «بائع الفستق»، وجائزة نجيب محفوظ للأدب من المجلس الأعلى للثقافة عن روايتها «أولاد الناس.. ثلاثية المماليك». وجائزة الشيخ زايد للكتاب عام 2024م عن روايتها «الحلواني.. ثلاثية الفاطميين».

4 - منها على سبيل المثال: رواية «أولاد الناس.. ثلاثية المماليك» (2018م - مترجمة إلى الإنجليزية)، و«القطائع.. ثلاثية ابن طولون» (2021م)، و«الحلواني.. ثلاثية الفاطميين» (2022م)، و«ماريو وأبو العباس» (2023م).

5 - لمزيد من التفاصيل حول القراءة، راجع:

. ألبرتو مانغويل، تاريخ القراءة، ترجمة سامي شمعون، الطبعة الخامسة، دار الساقي، بيروت - لبنان،2001م.

6 - يرى أبو حامد الغزالة أن هناك أربع شهوات أساسية عند البشر، هي: شهوة البطن، وشهوة الفرج، وشهوة التسلط والسيطرة، وشهوة المعرفة.. لمزيد من التفصيل، شاهد:

د. مشهد العلاف في حوار مع خالد عمر بن ققة، الحب السامي.. قصة حوار حضاري بقيم الفروسية وعشق النساء، برنامج «شيء يذكر» الحلقة (43) بتاريخ 2023/09/07م. على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=-szYkzrFntA

7 - محمد فؤاد، تعرف على رواية «الحلواني.. ثلاثية الفاطميين» الفائزة بجائزة الشيخ زايد، جريدة اليوم السابع، 04 إبريل 2024م. على الرابط:

https://www.youm7.com/story/2024/4/4/

8 - المرجع السابق نفسه، بتصرف.

9 - تاريخ القاهرة في «الحلواني.. ثلاثية الفاطميين»، عبد الرحمن سعيد، جريدة الخليج . الشارقة، 5 مايو 2024م. على الرابط:

https://www.alkhaleej.ae/2024-05-05/9

10 - المرجع السّابق نفسه.

عودةٌ إلى الزمن الجميل

مصطفى سعيد
عازف وباحث في علم النغم

يشتهر بين علماء الاجتماع أن الضعفاء يستقوون بماضٍ ما، يهوّلونه ويفخّمونه، ثم يبكون عليه ويطالبون مجتمعهم أن يعودوا لما كانوا عليه في ذاك الماضي حتى تعود لهم قوتهم. والحق أن الزمن لا يعود، وهذه حقيقة العمران.

سؤال: هل رغبة العودة للماضي قاصرةٌ على أزمنة الضعف؟ هل الفرضية المذكورة ثابتة الأركان من أصلها؟

تحاول هذه الأسطر رصد مسألة العودة إلى الزمن الجميل في عمومها، ثم الاقتصار، بعد محاولة البناء، على «زمن الفن الجميل» اختصاصاً بالنغم.

يظهر، أول ما يظهر، في النصوص البرعمية للكتابة المسمارية أو الجدارية أو على أوراق البردي وغيرها، أعني هذه النصوص، فيما يسمّى بـ «عصور ما قبل التاريخ»: أن قسماً كبيراً من هذه النصوص ليست إلا بُكائياتٍ على ماضٍ يحنون إليه أقدم من زمنهم. بل إن بعض منحوتات الكهوف، ليست إلا محاولة لتوثيق بكاءٍ على الأجداد العظماء الذين لم يأتِ بعدهم مثلهم وثّقت حضارات وادي النيل وما بين النهرين والصين والهند، وغيرها، نصوصاً مغنّاة تحمل المعنى نفسه، نصوص كانت تُغنَّى في المعابد، تعتذر لمختلف الآلهة عن تقصير هذا الجيل عمّا كان عليه من سبقهم من بأسٍ وقوة.

توثّق إحدى أغاني الفلاحين في وادي النيل، فيما يُعرف بعصر الدولة القديمة، أي في زمن بناء الأهرام، دعاءً، بالغناء الجماعي، أن يبارك الإله في زرعهم وحصادهم، وأن يُعيد الإنتاج للضخامة التي كان عليها في زمن أجدادهم. والحق

أن هذا قائم إلى الآن في زماننا. فقد عاينتُ بنفسي بعض أهل الزراعة يبكون على عصر أجدادهم، وكيف أن المحصول كان أكبر. على أن سائر الإحصاءات تؤكد أن الأراضي الزراعية في زماننا تُنتج أكثر من الأزمنة الماضية؛ وأن الإنتاج الحيواني أضخم بكثيرٍ من الأزمنة السابقة. هذا بسبب التقدّم العلمي ومكافحة الأمراض. ليس الحديث هنا عن جودة الإنتاج، وليس هذا المقال من أصله لهذا الاختصاص.

القصد: أن الحنين إلى الماضي ليس بالضرورة منبنٍ على معطيات واقعية.

في النغم: يحنّ الناس إلى الزمن الجميل، وشرب قهوة الصباح أو شاي المساء والفكر في مطربٍ غنّى نصف يومٍ متواصلٍ، أو تلك التي ترنمت عشر دقائق في نَفَسٍ واحدٍ دون انقطاع، إلى آخر تلك الحكايات الممتلئة بها كتب تاريخ الموسيقى. لا يقتصر هذا على العرب، بل عند الغرب أيضاً موسيقيٌّ لحّن وهو في الخامسة، وآخر أتقن عزف آلةٍ، وفاق عزفه كبار عازفي تلك الآلة وهو في الثالثة. فإن كان العرب يبكون على ماضٍ يستمدّون منه القوة، فما بال الغرب الأقوياء شرطة العالم وحُماة حقوق الإنسان يبكون ماضيهم؟ هل وُجِد مجتمع أفلاطون الفاضل قبله؟ هل فعلاً كان الأدب والفلسفة والنغم والرياضيّات قبل أرسطو وفيثاغورث أفضل من زمانهم؟ لماذا وثّقوها إذن وكتبوا فيها الكتب وطرحوا أسباب تقدّمها؟

ذَهَـــبَ الَّذِيـــنَ يُعَـاشُ فِـي أَكْنَافِـهِـمْ
وَبَقِيـــتُ فِي خَلَـــفٍ كَجِلْـــدِ الأَجْـــرَبِ ■

الناقة
في ثقافة الأمثال الشعبية الإماراتية

عائشة الغيص

يتميز المثل الشعبي بالانتشار والشيوع، لأن الذاكرة تحفظه بسهولة، وتسترجعه عند الحاجة لأنه موجز اللفظ بسيط العبارة، بليغ المعنى، وفي هذا العصر الذي يعجُّ بالتقنية والتطور، لا تزال الأمثال الشعبية الإماراتية تتربَّع على عرش الحكمة الشعبية، كما تحمل في طياتها أخلاقيات وقيماً تتحدَّى الزمن وتتجاوب مع متغيّرات المجتمع. ومهما تقدَّمت الحضارة، يظل للأمثال الشعبية الإماراتية دورها المتميز في توجيه الناسِ وتشكيل وجدانهم.

لا تقتصر الأمثال الإماراتية على اللغة فقط، بل تتعدَّى حدودها اللسانية إلى التواصل، فهي لغة الحياة والترابط بين الأجيال. كما تجسد الأمثال جسراً بين الماضي والحاضرِ، وتنقل معها حكمة الأجداد إلى أذهان الشباب، «فهي ليست مجرَّد شكل من أشكال الفولكلور أو دليل إثنوجرافي خاصّ بأحوال الشعوبِ، إنما هي على حدِّ تعبير مالينوفسكي عمل أو نشاط كلامي يدعو قوة معينة إلى التحرُّك بما لها من تأثير قوي على السلوكِ الإنساني»[1].

من هذا المنطلقِ تُعدُّ الأمثال الشعبية الإماراتية جزءاً أساسياً من التراث الشفوي الشعبي؛ تتداوله الأجيال على مرّ الحقب والقرون، بوصفه موروثاً أدبياً مشتركاً، يُعبّر عن روح هذا الشعبِ وذوقه الأدبي وهويته الخاصة من خلال الأمثال العامية المعبّرة عن المعاني الجليلة الثابتة المترسبة في ذاكرة هذا الشعب، والناقلة لرؤيته للحياة والتجارب العامة والخاصة، بأساليب رائقة في التعبير، لا تنقضي جِدَّتُها بتقادُم العهد، ولا يأفُل إشعاعها المعنوي والأسلوبي، فهي مناط العبرةِ، ومصدر الحكمة الواقعية.

الناقة والمثل والشعبي

الناقة هي أنثى الجمل، ولها أهمية مثله في حياة الإنسان العربي عموماً، ومن هنا فبين الإنسان والناقة صداقة وطيدة. فتُعتبر الناقة عند العربي عامة، والإماراتي خاصة ركناً أساسياً في حياته، وامتداداً لوجوده، كيف لا وهي الكائن المرافق لحله وترحاله، وهي رفيقة دربه وصديقة ألمه وعذابه وفرحه، كما أنها من أساسيات حياته، وهي مثال الصديق الذي يُلازمه ملازمة الظل، فهو يتعلق بها وهي تتعلق به تعلقاً فريداً، فلم تغب عن أمثاله التي يتم تداولها في التداولات اليومية وفي هذا المقال سنتناول بعض الأمثلة التي وردت في الناقة.

النَّاقةُ: هي الأنثى من الإبلِ إذا أجذَعَت، وتُكنَّى بـ «أمّ مسعود»، و«أمّ حُوار»، و«بنات الفحل»، و«بنات البيداء»، و«بنات النجائب»، ومن النُّوق المشهورة في التاريخ «ناقة الله» التي اشتُهِرَت بـ «ناقة صالح» عليه السلام، و«القصواء»: ناقةُ رسولِ اللهِ محمد صلى الله عليه وسلم التي كانت مطيَّتُه عندما هاجر صلى اللهُ عليه وسلم من مكةَ المكرمة إلى المدينة المنوَّرة، و«العضباء» ناقتُه الأخرى صلى الله عليهِ وسلم، ومن النوق المعروفة «ناقة البسوس» وهي التي أشعلتِ الحربَ لمدة 40 عاماً بين قبيلتي ابني وائل بكرٍ وتَغلِب في الجاهلية.

ولفظُ الناقة ورد في سبعة مواضع في القرآن الكريم؛ مرتان في سورة الأعراف، حيث قال تعالى:

﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة الأعراف، الآية: 73). وقالَ في السُّورة نفسِها أيضاً: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ سورة الأعراف، الآية: 77).

ووَرَدَ لفظُ الناقة مرة واحدة في كلٍ من السور الآتية: ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾(سورة هود، الآية: 64). ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾(سورة الإسراء، الآية: 59). ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾(سورة الشُّعراء، الآية: 155).

﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾(سورة القمر، الآية: 27). ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾(سورة

الشَّمس، الآية: 13). وكلُّها تشيرُ إلى ناقة النبي صالح عليه السلام، وقد وردت أمثال إماراتية كثيرة تتضمَّن ذكر الناقة، ومِن أبرزها:

«التّفق معلّقة والناقة ترعى». هذا المثل يصف مشهداً ثابتاً فيه البندقية معلقة والناقة ترعى، و«التّفق» هي لفظةٌ عامية تَعني البندقية، وهي من أنواع الأسلحة الشعبية المعروفة في دولة الإمارات والخليج العربي.

ويُضرَبُ المثل تعبيراً عن جهوزية الشخص لأي طارئ يستدعي وجوده، وحالياً يُقالُ المثل للتسلية أو السُّخرية والمداعبة.

«ما يصير شوق ورعيَّة نوق». أصل المثل يعود إلى قصة تشير إلى أن رجلاً كان يرعى النوق، وفي الوقت نفسه هناك فتاة أُخرى ترعى النوق، وقد تعارفا في المرعى، وظلا يتحدثان إلى أن غربت الشمس، ولم يلتفِتا إلى الإبلِ، وعادا دون العودة بالإبل إلى معاقلها أو مراسغها أو «عزبة البوش». فقال والد الشاب لابنه: «ما يصير شوق ورعيَّة نوق» وذهبت مثلاً.

ويضرب المثل في التدليل على أن المرء المشغول البال لا يمكنه القيام بمهام أخرى، فالعاشق المستهام لن يتمكن من رعاية نوقه وهو مشغول البال بأمور الحب والشوق.

«ما ناقَة خَنَتْ على ناقة، ولا ناقة خَنَتْ على ولد غيرها». ويعني المثل أن الناقة لا تحن إلا على ولدها ولا تحن على غيره، وأن غيرها لن تحن عليه مثلها، وهو أمر طبيعي بديهي، ويُضرب المثل في التنبيه بِضرورة الحنو على الأبناء، وعدم ترك تربيتهم للآخرين، فلا يوجد أحنُّ من الأم على صغارها.

وقد يكون مضرب هذا المثل في لزومِ الشخص حاجته وما هو قريب منه وإهماله لأمور الآخرين التي لا تخصه.

«لقمة على فاقه خير من مية ناقة». «الفَاقَة»: الفَاقَةُ في اللهجة الإماراتية فاقة: السعة والراحة وهي خلاف المعنى في اللغة. وتعني الفَاقَةُ في اللغة الفَقْرُ والحاجةُ. ميه: مئة[2]. ومعنى المثل: إذا كان أحدُنا جائعاً، فإن ما يقدم له من طعام حتى ولو كان لقمة واحدة أفضل من أي طعام يقدّم في وقت شبعه، ويحث هذا المثل على تقديم الطعام في أوقاته، ويحذر من إدخال الطعام على الطعام ويضرب في القناعة وتفضيل القليل مما يسد الرمق على كثير من المال.

«إنْ سُلِمْت أنا وناقْتي ما عَلَيّه من رْفاقتي[3]». «سُلِمْت»: نَجَوْتُ. «رْفاقتي»: أصحابي. ومعنى المثل: أنني ما دمت وممتلكاتي سَالِمَين، فلا يعنيني شَيء يصيب رِفاقي. وفيه كناية عن الذي يطلب السلامة من المشاكل لنفسه فقط دون غيره من الناس وفي التداوليات الشعبية في الحياة اليومية قلما نجد شخصاً يقول هذا المثل لنفسه، وإنما جاءت المفارقة هنا، كأداة نهي على لسان المتكلِّم للمخاطب بقوله: «لا تستوي شرات إللي قال: إن سلمت أنا وناقتي ما عليه من رفاقتي»، الأمر الذي يؤكد أن موروثنا وعاداتنا وتقاليدنا مبنيَّة على التعاون والإيثار والعمل بروح الفريق، ويثبت أن تراثنا الذي تركه لنا أجدادنا، هو كنز ثمين حافل بالقِيَم الإيجابية، وينبذ القيم السلبية التي تعارض ما بُنِيَت عليه أخلاق المجتمع.

«النَاقَةْ نَاقَةْ ولَوْ هِدْرَتْ». النَّاقةُ: هي أُنثى الجَمَل، قال أهل اللغةِ: وهي تدل على المفرد، وجمعُها نوقٌ، أو أنوُقٌ، وأينُق، وأيانِق، ونياق. ويعني المثل أن الضعيف ضعيف، ولو تظاهر بالقوة، فالناقة مهما حاولت محاكاة البعير بخصائصه فهي لن تقدِرَ، وستبقى على ما هي عليه. أي أن الأنثى تبقى أنثى مهما كانت شخصيتها قوية، فهي محدودة من حيث خلقها وتكوينها، ولا يمكنها أن تتصف بصفات الرجال وتصبح رجلاً، لأنها خلقت لتكون أنثى، ولها رسالتها السامية في الحياة، وقيمتها الكبيرة في المجتمع.

«عشارك ما تدر»[4]. والعشار: هي الناقة العشَراء: مضى لِحَمْلها عشرة أشهر، وقيل ثمانية، والأَولُ أَولى لمكان لفظه، فإذا وضعت لتمام سنة فهي عشراء أيضاً، والعرب يُسمونها عِشاراً بعد ما تضع ما في بطونها للزوم الاسم بعد الوضع كما يُسمونها لِقاحاً، وقيل العُشراء من الإبل كالنُّفساء من النساء. ومضرب المثل: في شخص لا يأتي منه نفع أو فائدة، وفي كل ما هو مماثل من أمر لا يأتي بخير مؤمل ينتظره الناس.

يـــا ناقتـــي وإلّا العصـــا وإلا اشربـــي
وإلا اصبـــري ع الكُـــوْد والحرمـــــانِ

«الكود» في اللَّهجةِ المحليَّةِ: المصاعِبُ.

هذا بيتُ شِعرٍ أصبحَ مثلاً يتردَّد على الألسن، حيث يخيّر الشاعر ناقته بين أمرين أحلاهما مر، ولا يوجد مخرج، إما أن تشرَب وإما أن تَصبر. والشاعر يتمثَّل الذائقة العربية الفصيحة في حديثه إلى ناقته.

ويُقال المثَل في التداوليات الشعبية في المفاضلة بين أمرين، ووجوب اختيار أحدهما. ومَضرِبُ المثل: في الموقف ذي الخياراتِ المحدودة. ويُقال في التشجيع على الصبر.

«تثاوبت أنا من تثاوبة ناقتي وتثاوبت ناقتي من تثاوبة من؟»

يحكى أَن بدوياً تعرض لهجوم من لُصُوص قطاع طرق، فركب على ناقته، وفرَّ هارباً على غير هدىً، وقطع شوطاً بعيداً طوال النهار، حتى اختفى مطاردوه عن ناظريه؛ فنزل ليلاً قُرب واحة لأخذ قِسْط من الراحة، فربط ناقته، وأوقد ناراً للتدفئة.

وبعد فترة من الهدوء تثاءبت الناقة؛ فتثاءب البدوي مثلها، ثم دب الخوف في قلبه فجأة، وخَطَرَ في باله أن أحداً ما يقترب منه؛ فهُرِع وهو يقول: «تثاوبت أنا من تثاوبة ناقتي وتثاوبت ناقتي من تثاوبة من؟». وهكذا هرب البدوي معتقداً أَنه نجا من موت محقَّق بفضل يقظته وفطنته، فقد وجد أَن سبب تثاؤبه هو تثاؤب ناقته، وأن تثاؤب ناقته من تثاؤب عدو ماكر رأته الناقة، وكان يتربَّص به عن قُرُب. وعندما بلغت القصة أسماع الناس، أصبحت مقولة «تثاوبت أنا من تثاوبة ناقتي

وتثاوبت ناقتي من تثاؤبية من؟» مثلاً سائراً يُذكر للدَّلالة على الفراسة، وضرورة أخذ الحِيطة والحذر بالبصيرة؛ فليس كل عدو تراه الأبصار.

«ناقة الصدق سمينة وناقة الكذب هزيلة». الصدق أقوى من الكذب وأبقى منه، حيث إن حبل الكذب قصير، ومهما دام فإنه ضعيفٌ يزول بسرعة وينكشف. والمثل يضرب في توثيق الحقيقة والتأكيد على المواقف الصحيحة وانكشاف الزيف والخداع وبيانه ووضوحه لكل ذي عينين تماماً كالفرق بين الناقة السمينة والناقة الهزيلة.

«ناقَةُ الكذَّاب عَيّانة[5]». عَيّانة: تُصيبُ بالعين؛ أيْ الحسد. والمقصودُ أن الكذَّاب لا بد أن يأتيك منه ضرر، فإن سَلِمْتَ من كذبه، لن تسلم من تبعات الجلوس معه. ويضرب في النُّصح بالابتعاد عمَّن يتصف بالكذب.

ختاماً

يعد حضور الناقة في المثل الشعبي حضوراً بارزاً، فقد استحضرها الإنسان العربي والإماراتيون بالذات في نواحي تجاربهم وعاداتهم وممارساتهم كافة، وضربوا بها المثل في توجيه النصح، والسخرية، والطرفة، والتعليق على الوقائع، وفي ذكر العديد من الموضوعات، مستغلين صفاتها وطبائعها لتكون لهم رمزاً كنائياً في أمثالهم السائرة من جهة أوصافِها، وأحوالِ هَدْأتها، وحركتها، وأصواتها، بل وألمها، وراحتها، وفرحها، وحزنها، وها نحن نعود لبحث البروفيسور الصاعدي الماتع، الذي أكّد فيه أن علاقة العربي بالإبل، عميقة الجذور، بما يجعلها ركنه الركين سلماً وحرباً، حلاً وترحالاً، سعة وضيقاً. أما والعربي، هو ابن الصحراء، الخبير بقسوتها، المدرك لمشقتها، فيقينه قطعي ألا صديق له ولا رفيق كإبله.

ومما سبق نجد للناقة في فضاء الأمثال الشعبية مساحة شاسعة ومحبة خاصة فالإنسان والإبل بينهما تواصل ولهما حياة ممتدة منذ قديم الزمان، فكان الآباء والأجداد يرتحلون من مدينة إلى أخرى على متون الإبل، وتحمل أمتعتهم، ويعيشون من الخيرات التي يكتنزها الإبل من اللحوم واللبن والوبر ■

أكاديمية من الإمارات

الهوامش والمصادر:

(1) إنعام فكار، المرأة في الأمثال الشعبية (دراسة مقارنة)، حوليات آداب عين شمس، المجلد 43، 2015، ص 167.

(2) أمثال ومعانٍ - صحيفة الاتحاد 27 - 2005 - يوليو .https://www.alittihad article ‹ ae › أمثال - ومعانٍ.

(3) عبد الله حمدان دلموج، المتوصف، مركز حمدان بن محمد لإحياء التراث، دبي، 2014، ص 101.

(4) من الذاكرة الجمعية، مقابلة شفوية مع علياء راشد الخاطري، 70 عاماً، إمارة رأس الخيمة، المعيريض. تمت المقابلة في 8/1/2019.

(5) دلموج عبد الله المتوصف، ص 254 - 255.

بيْدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح
ألفاظُ الحيوان وما دار في فلكه.2

محمد فاتح صالح زغل
أكاديمي وباحث في التراث الإماراتي

هوّس: يستعمل هذا الفعل في هذه اللهجة بمعنى: الضغط على الشيء، كما في قولهم: هوّس على راسي، أو ظهري. وفي العربية: الهوس: الدق كما في قول العرب: هست الشيء والكسر، ومنه أطلق على الأسد هوّاس، وشدة الأكل، وغير ذلك مما ينبئ عن الضغط. ومن الألفاظ في العربية بمعنى الدق، والكسر: الهصّ، والهيص (دق العنق).

سَحْماء (سْحَمة): تستعمل هذه اللفظة في هذه اللهجة للدلالة على الناقة المتنوعة الألوان، وجمعها فيها: سحم، والسحم في العربية: السواد، والمرأة السحماء: السوداء، والأسحم: الأسود، والسحمة: كلأ يشبه السخبرة أبيض، وجمعه: سحم. ويظهر لي أن دلالة هذه اللفظة قد تطورت من خلال الاستعمال اللغوي من السواد إلى تعدد الألوان.

سِحناة: هذه اللفظة في هذه اللهجة للدلالة على سمك القاشع (الجاشع) بعد طحنه، إذ يؤكل بكثرة مع الأرز. وهي دلالة تتبين بوضوح من السخن، وما يدور في فلكه، كما في قولهم: سحن الشيء سحناً (دقه). والمسحنه التي تكسر بها الحجارة، وجمعها: مساحن.

ضِغو (ضغوي): تستعمل هذه اللفظة في هذه اللهجة - كما يفهم - للدلالة على حيوان، كالكلب في الغالب، وكما في قولهم في المثل: دار خلا ما بها إلا الضغوي، والذيب اللي يعوي.. والجلب اللي يعوي، وهي عند الأستاذ غسان الحسن مقلوبة من الضوع، أو الضُّوع، أو الضِّوع، وهو طائر من طيور الليل، أو الكروان، أو ذكر البوم. ويظهر لي أن أصل هذه اللفظة بالغين، لا بالعين، لأن الضّغو تصويت الذئب، والكلب، وهو تصويت سميّا به: وضغا الذئب، والسنور، والثعلب يضغو ضغواً، وضغاءً: صوت، وصاح، وكذلك الكلب والحية، ثم كثر حتى قيل للإنسان إذا ضرب فاستغاث. وفي حديث حذيفة في قصة قوم لوط: (فألوي بها حتى سمع أهل الساء ضغاء كلابهم)، وفي رواية (حتى سمعت الملائكة ضواي كلابها)، جمع ضاغية، وهي الصائحة..». ولعل ما يعزز هذا القول أن الضعاوي تطلق في هذه اللهجة على نوع من السمك كما في قول الشاعر أحمد علي بن يعروف في قصيدته الموسومة بذكريات الماضي:

ويـــن الضغـــاوي والجشيعـــات
يوم ادفـــروا الزعيمـــة بتضغيـــه

وقيل إن الضاوي جمع ضغوة، على أن الضغوة عملية صيدالسمك، على حسب تفسير بعض العارفين بالغوص، وما يدور في فلكه.

عَدَنَه (اعْدَنَه): يطلق في هذه اللهجة على الأرنب الصغير: رهوك، وعلى الكبير: اعدنه، على أن (اعدنه) تدور في فلك الإقامة في المرعى، أما الصغير فكثير الحركة، والنشاط، إذ يقال في العربية: عدن فلان بالمكان عدناً، وعدوناً (أقام فيه) وعدن البلد (توطّنه)، والعادن المقيم، ولذلك سميت الإبل عوادن، لإنها تقيم في المرعى.

عُوال: تطلق هذه اللفظة في هذه اللهجة على لحم الصغير من سمك القرش المجفف بعيد اصطياده، وهي لفظة تتبين دلالتها من قول العرب: عولت عليه، وبه (استعنت به، واتكلت عليه)، وعاله الأمر (أهمه)، عولت إلى فلان فوجدته نعم المعوّل (فزعت عليه)، وفلان عِولي (عمدتي)، ومن العول (المستعان به)، لأن هذا السمك يعتمد عليه، ويستعان به في وقت الحاجة، والشدة والضيق، وقد يكون المراد العيال، وهم من عولهم الرجل، أو الأولاد، لأن لحم السمك الصغير هذا يفزع إليه لسد حاجة العيال هؤلاء، على أن هذه اللهجة تصحيحاً للواو، على الرغم من توافر قلبها ياء (عوال، وعيال)، وعلى أنه مصدر وضع موضع اسم المفعول، وعوال حي من العرب من غطفان ■

المرأة والأمثال الشعبية: الإرث والتغير

مريم سلطان المزروعي

يعّد التراث الثقافي من أقوى حوامل القيم والمبادئ في المجتمعات، إذ يعزز من قدرة المجتمع على الصمود أمام المؤثرات الخارجية. فالأمثال، سواء أكانت شعبية أم فصيحة، ليست مجرد كلمات بل هي حاملة للعديد من القيم والعادات والتقاليد التي تصل بسرعة إلى قلب السامع ووجدانه، ويمكن القول بأنها تعمل كضوابط للحفاظ على النظم الاجتماعية. وتمثل الأمثال موروثاً حضارياً يجسد تجارب الأجداد، وفهم هذا الموروث هو خطوة أساسية للحفاظ على الهوية الثقافية في عصر العولمة. وتعكس الأمثال الحياة الاجتماعية عبر أشكال تعبيرية متعددة مثل الحكايات والأشعار والقصص، حيث تصف بشكل مباشر حالات واقعية تنسج النسيج المجتمعي من خلال علاقات الناس في مختلف الظروف. فالأمثال توصف بأنها أقوال موجزة بليغة تُعبّر عن تجربة ما ومن ثم تناقلتها الأجيال، فهي تعتبر حكمةَ الشعوبِ، ومخزوناً تراثياً عميقاً متراكماً فيه تجارب الشعوب وخبراتها بكل تنوعها وتناقضها، ما يجعلها تكشف عن ملامح المجتمع وأسلوب عيشه ومعتقداته ومعاييره وما تتناقله الألسنة فيه؛ فيذاع وينتشر ويصبح مثلاً يردّدُه الناس في كل موقف شبيه بالموقف الذي ورد فيه. وكل ثقافة نجد فيها الرموز، وهذه قد أبدعها المجتمع والأفراد في تشكيل وإعادة تشكيل الهوية الثقافية.

هناك مجموعة من النصوص جاءت في الأمثال الشعبية برموز متعلقة بالمرأة، جعلت منها رمزاً لتعانق الأرض والقضايا الاجتماعية الكبرى، فالمرأة أخذت حيزاً كبيراً من هذه الأمثال سواء قد أعلت من منزلتها أو قللت من شأنها، ولا نستطيع القول إن المثل الشعبي قد ظلم المرأة، فهو ليس أكثر من مرآة تعكس تفكير المجتمع الذي خرج منه، لذلك كثيراً ما تأتي الأمثال متناقضة تبعاً لاختلاف البيئات التي خرجت منها، وغالباً ما تنتقص هذه الأمثال من قيمة المرأة، إلا أنها قد تشيد بها في بعض الأحيان الأخرى وهذا ما يفسر هذه الازدواجية، فملاحظ بأن المدح محصور لفئة محددة من النساء، والذم ينطبق على جميع النساء، وبالتالي توظيف المأثورات الشعبية - لاسيما الأمثال الشعبية - تكشف عن المكانة التي تمتلكها المرأة في المجتمع، وعند تتبع الأمثال التي تطرقت إلى المرأة والتي تنوعت فيها الصفات والأدوار نجدها مختلفة في ماهيتها وغرضها والمجتمع الذي قيلت فيه؛ ففي هنغارية (انظر إلى المرأة وتزوج الابنة)، وفي الهند (لا تكف المرأة عن الكلام إلا لتبكي)، وفي إيطاليا (جمال السماء في نجومها وجمال المرأة في شعرها) والأمثلة كثيرة ومتعددة.

تذكر إحدى الراويات أثناء حديثي معها بقولها: (كانت والدتي هي من تقوم بجميع أعمال المنزل، تستيقظ في الصباح الباكر وأنا وأخواتي نتبعها نتعلم منها كل ما نستطيع أن نتعلمه، وإذا قمنا بعمل غير جيد أو أخطأنا كانت لا تحاسبني بل تسعى إلى توجيهنا بمثل أو حكمة، ودائماً ما كانت تبدأ بقولها: «يقول متوصف» أو «على قولة راعي الوصف»، لأن قائل المثل مجهول الهوية، وقد وصل إلينا عن طريق كثرة تكراره على الألسنة في مواقف مشابهة، فالغرض من هذا أن نتعلم الاحترام والأخلاق والسنع، واحترام كبار السن، وتصحيح أي سلوك غير جيد،

فوالدتي كانت تمتاز بالحكمة والفطنة). لذلك لا يمكن الجزم هل المرأة هي التي روت هذه الأمثال أو الرجل الذي رواها وابتدعها أو كليهما معاً، فهي أمثال أعتقد بأنها نتجت عن مواقف معينة لشيء معين، لعبت فيها الثقافة الاجتماعية دوراً كبيراً في إنتاج هذه الأمثال، وعلى سبيل المثال: (بنات الأصول أَخْير من المال والمحصول): بمعنى الحث على الزواج من الأسر الكريمة. وقالت العرب: «المناكح الكريمة مدارج الشرف».

وأيضاً (تقول حق القمرْ قم واقعد مكانكْ): وأصل المثل: تقول الفتاة الحسناء للقمر: قُم وأنا أقعد مكانك، يُضرب في وصف الفتاة الحسناء، بحيث يمكن الاستغناء بحسنها وجمالها عن نور القمر. (اللي ما يزرع الدبّاس ما يأخذ بنات الناس) وهذه إشارة إلى أهمية نخلة «الدباس» ورطبها الشهية المشهورة بقدرتها على تحمل طبيعة المناخ، وكيف جعل قدرها من قدر المرأة ورفع من مكانتها. (قلب الأم على الولد والولد قلبه على الحجر)، والذي يعبر عن شدة حب الأم لأبنائها وعن اهتمامها العميق بمصالحهم وسلامتهم، فلا تكون استجابتهم لحب والدتهم بالقدر اللازم وبالمثل من الحب والاهتمام بل يكون الرد بقسوتهم عليها. و(أم الروازن لا غنَى الله من غناها): يعتبر من الأمثال المتداولة والذي يحمل بين جنباته قصة وعبرة، عن امرأة فقيرة وجميلة

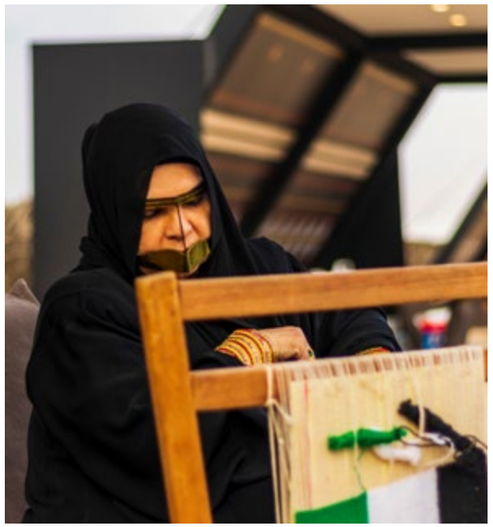

كانت تمارس (الطرارة أي التسول)، وكانت تدور على البيوت لهذا الغرض، فرآها أحد الأمراء فأعجبته ووقعت في نفسه موقعاً حسناً، فقال في سره سأتزوجها وأنقذها مما هي فيه، وفعلاً خطبها من أهلها وتزوجها، وأتى بها إلى قصره ووضعها في غرفة عالية، وكلف الخدم بمتابعتها، ومع هذه العيشة حنت إلى أيامها الخالية، فكانت إذا أحضر لها الخدم الطعام تقوم بأخذه وتفريقه على النوافذ (الروازن)، وتدور عليها وتقف أمام كل نافذة وتمد يدها بقولها: «يا الله من مال الله»، كما كانت تفعل سابقاً، فلما رآها الخدم على هذه الحالة قالوا: «أم الروازن لا غنى الله من غناها»، فانتشر خبرها بين الناس وذهبت قصتها مثلاً.

وهناك أمثال يضرب به شعراً، يقول الشاعر:

إذا لــم تكــن في منــزل المــرء حــرةٌ
تدبـــــره، ضـاعـت مصالـــــــح داره

وهذا المثل يضرب في المرأة الصالحة والمرأة السيئة، وكذلك:

بيـت بليـا مره مـــا ينقعـــد لي فيـــه
أما تجـــي تهدمـــه ولا تجـــي تبنيـــه

أي أن البيت الذي يخلو من المرأة أي الزوجة لا يصلح سكناً، ولا يمكن أن يكون محلاً للاستقرار الجسدي والنفسي، والزوجة حينما تدخل بيت الزوج أو عش الزوجية إما أن تكون زوجة صالحة تملأ البيت سعادة وغبطة وحبوراً بالحب والقناعة والأخلاق الكريمة الفاضلة، وإما أن تكون سيئة الخلق شرسة الطباع تقلب حياة الزوج رأساً على عقب وتملأ البيت نكداً وخصومات لا تنتهي، فتهدم البيت قولاً وفعلاً وتعشعش فيه الخفافيش والظلام. الملخص بأن المثل الشعبي يلخص خبرة الجماعة، ويقدم بصياغة سهلة التداول لقيمها وتقاليدها وأعرافها الاجتماعية، فهذه الأمثال عبارة عن رسالة تربوية شاملة وعفوية الغرض منها التنبيه والتشجيع والتحبيب أو التنفير من سلوك سيء. والمرأة بأدوراها كافة كزوجة وأم وجدة وخالة وعمة،.. إلخ، تعتبر إضافاتها رصيداً قوياً ووافراً في الثقافة الإماراتية على الصُّعد كافة وبأنواع التراث الثقافي جميعه. فهي سيدة الموقف وبطلته لذلك لابد من تجديد الأفكار والتعبيرات وتطويرها بما يتناسب مع الزمن الحالي وتحدياته ■

باحثة من الإمارات

المصادر والمراجع:

1. «من أفواة الرواة: مأثورات من التراث الشعبي»، علي عبد الله الفياض، قطر: وزارة الثقافة والفنون والتراث، 2009، الطبعة 2.
2. «السنع: قيم وعادات المجتمع الإماراتي.. منهج الحياة المستدامة»، د. محمد فاتح صالح زغل، والأستاذة فاطمة مسعود المنصوري، أبوظبي، نادي تراث الامارات، 2022، الطبعة الأولى.
3. «المتوصف: أمثال وحكم من الإمارات»، عبد الله بن دلموك، دبي، مركز حمدان بن محمد لإحياء التراث، 2014، الطبعة الأولى.

لوز الإمارات بشارة القيظ

موزة سيف المطوع

قرص الشمس الملتهب ورياح السّموم تُنهك أجسادهم الصغيرة، يُسرعون إلى سيفة البحر ليرتاضوا ويرموا بأنفسهم بين الأمواج لتخفيف وطأة الحر، في طريقهم تهتز أوراق شجر اللوز في خفوت وهمس يخيّل لهم أن ثمارها تناديهم فتتلألأ وجوههم، يتسلقونها ويتغلغلون بين أوراقها للبحث عن ثمارها الناضجة، يمرحون تحت ظلها يُشاطرون بعضهم بعضاً السعادة وترتسم على مُحياهم ابتسامات ثغرة، ارتبطوا بها منذ قديم الأزمان، منذ أن جلبها التجار من جنوب الهند ومدغشقر، فتأقلمت مع البيئة المحلية وأصبحت جزءاً منها فشاركتهم الذكريات والحكايات.

شجرة اللوز «البيدام» شبه دائمة الاخضرار، تعيش لأكثر من ثلاثين عاماً وارفةُ الظلال متساقطةُ الأوراق إما دفعة واحدة وإما بالتدريج حسب النوع، بعد زراعتها بأربع أعوام تُقطف ثمارها الحلوة الشّهية، تُزهر مع دخول الرّبيع في سعد السّعود «مارس»، تحب الماء فيُداوم على سقيها حتى يشتد عودُها، ليباعد بعدها بأيام السقاء، طبيعتها تتحمل ملوحة المياه وجفاف التربة، زُرعت في أفنية المنازل للاستفادة من ظلها ولتلطيف درجة حرارة القيظ، وفي الشوارع والحدائق لتزيد من جمالية المكان وللزينة، فطولها يصل حتى 20 متراً، تنمو فروعها أفقياً، ذات أوراق بيضاوية تنمو بشكل متورّد على قمم الفروع، ثمارها بيضاوية تتنوع ما بين البيضاء والحمراء والشهلاء.

يجمع العِنْقاشْ «بذور اللّوز» في مكان مكشوف حتى يجف، تزرع «العنقاشة» بعد إزالة قشورها وأليافها في إصيص ذو تربة مسمّدة، عندما تصبح فسيلة تنقل في سهيل إلى تربة مسمدة بسماد عضوي مخلوط برماد لتقوى الشجرة، ويحافظ على عرق الشتلة الوتدي كي لا تختل وتموت النبتة فبطن الخشب فارغ وخشبها لين، وتدك جيداً حتى تثبت ويترك مسافة واسعة بين كل فسيلةٍ وأخرى لتأخذ مساحتها عندما تكبر ويقال

«بَعِّدها عَنّي، وخِذ حَقها مِنّي»، وفي المنازل يترك مسافة تزيد عن متر بينها وبين حائط المنزل كي لا تؤثر على الجدار عندما تكبر، وتكسر البذرة ليجمع «اللبّوح» ويؤكل فهو ذو طعم مميز ولذيذ، ويزرع بعضهم «اللّبوح» بعد لفه بمنديل ورقي ويرطب بالماء ثم يدك بالتراب، ويفضل دائماً عدم شراء فسائل شجر اللوز من المشاتل لضمان جودته وأصالته.

تحوي الشجرة على الزهور الذكرية والأنثوية حيث تمثل الذكرية قرابة ثمانين بالمئة (80 %) من مجموع الزهور، المثمر منها اثنان في المئة (2 %) فقط، الزهرة الأنثوية فيها ثمرة وتنبت في بداية الشمروخ وفي نهاية الشمروخ الزهور الذكرية وفيها عصا صغيرة بمجرد اكتمال التلقيح تتساقط فتملأ الأرض، تُقلّم كل سنة لتتفرع أكثر وتقوى وتصير ثمارها ألذ، تغطي الشجرة نفسها بالأوراق لتحمي ثمارها من العوامل الخارجية كأشعة الشمس والهواء مشابهة بذلك شجر الليمون والتين والترنج والرمان.

عندما تحمر أوراق شجرة اللوز لتتساقط وقبل الإزهار تقلم في منتصف النعايم والبلدة «منتصف يناير وفبراير» بكسر الأغصان الضعيفة الناشفة والمتراكبة ويباعد بين الفروع لإتاحة مساحة لتمتد الشجرة فيصبح كل فرع منفرداً، ومنه يتفرع لفروع عدة أخرى تتراوح ما بين فرعين إلى أربعة فروع، يصل طولها إلى عشرة أمتار فتعطي ناتجاً قوياً من الثمار ويختفي البق من الشجر.

في البلدة «فبراير» يطعم اللوز بأخذ فرع مثمر فيُجرّح يمنةً ويساراً ليشبه القلم ويطعم في الفرع اللي بجذعه عيون كثيرة فيعرى من الورق وتطعمه بالقلم، ويجرح العود ويركب عليه،

> شجرة اللوز «البيدام» شبه دائمة الاخضرار، تعيش لأكثر من ثلاثين عاماً وارفةُ الظلال متساقطةُ الأوراق إما دفعة واحدة وإما بالتدريج حسب النوع، بعد زراعتها بأربع أعوام تُقطف ثمارها الحلوة الشّهية، تُزهر مع دخول الرّبيع في سعد السّعود «مارس»

على أن يكونا كلاهما بالسمك نفسه ويغطى بقرطاس.

آفات شجرة اللوز تظهر مع زيادة الرطوبة وعدم التقليم قد يفتك بها، كالفطريات والدود وذبابة الفاكهة التي تستهدف الثمار الطرية فتضع بيضها فيها فتفسده، ولتجنبها يوضع لها المبيد ويوقف استعماله مع دخول سهيل، وما زال الكثير من المزارعين يتبعون الطريقة التقليدية بإشعال النار بالأوراق الخضراء فيقتل الدخان الحشرات والآفات الزراعية.

استخدمت أوراق شجر اللوز كضمادات وفي علاج الجروح والصداع والإسهال، ويغطى به الخرس لتخزين التمر والدبس لأطول فترة، وكان يصبغ به الملابس خاصة الرجالية، ثماره فاتحة للشهية ملينة للمعدة مبيضة للأسنان وأغصانه الخشبية وقود للنّار، أوراقها سماد للتربة يعزز من خصوبتها وغذاء للماشية ■

صحافية وكاتبة إماراتية

مئذنة جامع الزيتونة في المدينة العتيقة - تونس

زينب قندوز غربال:
تراث المدن العتيقة التونسية

هشام أزكيض

تتولى الدكتورة زينب قندوز غربال منصب أستاذة مساعدة في المعهد العالي للفنون الجميلة بسوسة في تونس، حيث تُدَرِّس مادة التصميم. وبفضل خلفيتها الأكاديمية المتميزة، فهي مهندسة تصميم داخلي حاصلة على الشهادة الوطنية في الفنون والحرف بتخصص الهندسة المعمارية الداخلية، وحاصلة على درجة الماجستير في الجماليات وتقنيات الفنون، وعلى درجة الدكتوراه في علوم التراث. وكباحثة في التراث المعماري، أسهمت بمؤلفات جماعية تُعنى بالعمارة التقليدية، وتكتب وتحكّم في العديد من المجلات العلمية الدولية. وتعكس أعمالها التزاماً عميقاً بالحفاظ على التراث المعماري وتوثيقه للأجيال القادمة. وقد جرى الحوار التالي بيننا:

ما الذي دفعك إلى الاهتمام بعلوم التراث؟ وما المقصود بها أولاً؟

جاء تعريف علم التراث حسب منظمة إيكروم ICCROM (المركز الدولي لدراسة صون وترميم الممتلكات الثقافية) بأنه مجال من البحث متعدد التخصصات، معنيّ بالدراسات العلمية للتراث الثقافي أو الطبيعي والمبني على تخصصات الدراسات الإنسانية والعلوم وغيرها من المباحث. حيث يركز هذا العلم على تعزيز فهم ورعاية والاستخدام المستدام للتراث بشكل يستطيع من خلاله إثراء حياة الناس، سواء في الحاضر أم في المستقبل. والتراث ظاهرة إنسانية، فلكل أُمة تراثها،

جنوب تونس - ولاية تطاوين

على الرغم من أن الأمم تختلف من حيث عمق تراثها الحضاريّ في التاريخ، ولعل الاختلاف لا ينفي اشتراك جميع الأمم في تراثٍ إنساني عام. ولهذا، فإن التراث يحوي التراث الوطني أو المحلي «ما هو حاضر فينا من ماضينا» والتراث الإنساني «ما هو حاضر فينا من ماضي غيرنا».

ومن هذا المنطلق، أعتبر أن علم التراث بوابة لنبش ذاكرة الماضي وتقصّي لأثر السلف تيمّناً بحياة أفضل للخلف. ولعل شغفي بالتراث هو الذي أضفى على تخصصي نوعاً من الفرادة لا سيما أنني لم أدرس التراث في تكويني الأكاديمي كمرحلة أولى على الأقل بل كان توظيفاً لهذا التخصص المهم في عملي على رسالة الماجستير في جماليات الفنون وتقنياتها ومن بعدها كانت رسالة الدكتوراه في علوم التراث التي من خلالها وظّفت تخصصي في الهندسة المعمارية الداخلية لخلق جسر للتواصل بين التقليدي والحداثي والتراث والمعاصر. توليفة جعلت من التراث حجر أساس في بحوثي العلمية وأسعى من كتاباتي لإخراج إرثنا المعماري وأثمّن تاريخاً ماضياً وآثاراً نناظرها وتراثاً هو بعض من مستقبلنا.

إذا كان التراث مفهوماً عاماً، فما الجانب الذي حظي باهتمامك منه؟

بين التاريخ والآثار والتراث فوارق... فالتاريخ يعني تحديد الزمن

منظر المدينة القديمة، هندسة معمارية تونسية تقليدية

وأحداثه، بينما الآثار (كعلم) هو البحث فيما تركه الإنسان من بقايا مادية. التراث ينشغل بالنتاج الثقافي والحضاري والفكري خلال التاريخ. شخصياً لست دارسة للتاريخ لأوثّق، ولا عالمة في الآثار لأبحث فيه، لكني أعمل على التراث كمادة وأبحث في أثرِ الأثرْ شكلاً ومبنى ومعاني... لعلّ الاهتمام بالتراث عموماً لا ينحصر في تعريف واحد ولا يتقيّد بتخصّص بعينه - في نظري أنا طبعاً - سواء لتخصص الباحث أو نوع التراث، فالمجال البحثي هو المُحدّد الأساس والأول لخط سير القراءة الاستقرائية. تخصصي الأول كان في الهندسة الداخلية ما يجعل عملي منحصراً بين جدران المباني وحدوده رسمها التخصص مُسبقاً. غير أن ضيق المساحة فتح باب القول لما لم تُصفحه الجدران الصمّاء وتقنيات الهندسة الصارمة لحيّز مُشبع بالتفاصيل متمثّلاً في التراث الذي يكسو المبنى بصفة عامة والفضاء السكني بصفة مخصوصة، فتكون الرحلة التي نخوض. بالدخول لأعماق الفضاء السكني التقليدي والكشف عن ذاكرته المكتوبة أو المخزونة فإننا نكون قد اندمجنا فيه وتوصّلنا إلى عتبة الاقتدار بالتعامل وإياه وإعادة قراءته. للمكان لغات عديدة يقول بها اعترافاً علنياً أو ربما هو متوار متستّر ويصرح علينا بما يريد لا ما نريد.. له مخيلة حاضرة مع مخيلتنا. إنهما متجاوران - مخيلته ومخيلتنا - وكلاهما مبدع بانشغاله بالآخر... لعلّ أول ما يهمنا في هذه البيوت التي ننسبها على طراز العمارة التقليدية هو خضوعها للتقاليد إذ إن العمارة - التي تتأسس على تقاليد معمارية تخصها - يتاح لها أن تبني أسلوباً يميزها. وعندما يكون مصدر هذا التقليد نوايا المجتمع المحتكمة إلى فكر وعادات وقيم لها حضورها وتدخلها في سلوك الأفراد وتنظيم علاقاتهم الاجتماعية، كما هي الحال تكون صورة مقبولة ومنتمية إلى مجتمعها.

شخصياً، أعتبر الفضاء الداخلي حيزاً للرؤية والفعل والممارسة: تتعدّد القراءات بتعدّد القرّاء وتباين مرجعياتهم، ما يسمح للفضاء الداخلي بأن يكون مخزوناً تراكمياً وثراء مصادرياً لمرجعيات تُراثية، إنثروبولوجية، ثقافية... وعليه، يستحيل السكنُ حاوياً لدلالات لا مُتناهية، وهو ما يفسره زخم العطاء الدلالي الذي يمنحه الفضاء السكني كفضاء للتأويل قابل للتجديد في كُل مرة تغيّر القارئ أو اختلف أسلوب القراءة أو حتى زاوية القراءة عينها... فتكون المحصلة في كل مرة جولة جديدة من التأويل بمسوغات أجدّ. يرتفع نسق القراءة أسلوباً وممارسة كلما تعمقنا في العمل البحثي لننتقل من فضاء مغلق إلى فضاء مفتوح على المُغيّب.

حدثينا عن أهم المعالم المجسدة للتراث التي تُعبّر عن الهوية التونسية؟

لعلّ الحديث عن تاريخ معالمنا وإرثنا وتراثنا لا يكفيه مُجلّدات لتفي حقّ تعداده. إن 3000 سنة حضارة كفيلة بأن تجعلنا نتخيل ما تحمله تونس من إرث حضاري رصين كمّاً وكيفاً ولعلّه وعلى سبيل الذكر لا الحصر نجد المدينة العتيقة في تونس التي قد حافظت إلى اليوم على تراث إنساني معماري حضري عربي وإسلامي فريد من نوعه يصون الذاكرة الشعبية والوطنية لتونس وللبلاد ويجسم أصالة مدينة ظهرت إلى الوجود منذ ثلاثة عشر قرناً. حيث حافظت على الطابع الحضاري التونسي. هذا وقد صُنفت المدينة العتيقة في تونس منذ عام 1979 لدى منظمة «اليونسكو» بصفتها تراثاً ثقافياً للإنسانية.

بنظرك كيف يمكن صيانة التراث المعماري؟

يشكّل الوعي بقيمة التراث المعماري والعمراني أولى خطوات صيانته. إن الحاجة ملحة اليوم للتعرف على التراث وفهمه في مستوى الأنماط المعمارية ومكوناته الجمالية والفكرية من أجل صيانة ناجعة تأخذ في الاعتبار مختلف مكوناته الفكرية والثقافية والسوسيولوجية. كذلك على عاتق المجتمع المدني مسؤولية كبيرة في الحفاظ على موروثنا المعماري، فاستدامة الصيانة لا تستقيم إلا بوعي وطني لضمان الاستمرارية.

ما خصوصيات عمارة الواحة وكيفية صيانتها؟

المدرج الروماني في الجم (تيسدروس)، تونس

إن قرى الواحة ومدنها في الجنوب التونسي هي متحف مفتوح وذاكرةٌ حيةٌ، تشكّل عمارتها أهميةً كبرى من النواحي التراثية والثقافية والبيئية، ويمثل بقاؤها شاهداً على تفردها صناعةً وممارسةً؛ فهي حصيلة ما أنتجه الأسلاف في تفاعلهم مع المحيط الطبيعي، تتجسد فيه خبرة الماضي مجتمعةً في مجال محددٍ. وكذلك هي دليلٌ على قدرة التكيّف مع المعطيات الطبيعية الصعبة، فليس المعمار كامناً في الواحة كمعطى طبيعي سابق، بل نتاج عمل وخبرة؛ فالمعمار وليد الموقع، وخبرة السكان تتبلور من خلال ملاحظة إمكانات المواد، وكسب المهارة. وتعتبر المكتسبات من مجموع الخبرات المتوارثة إرثاً قيماً، لذلك تنزع الجماعات إلى نقل الخبرة من جيل إلى جيل؛ إذ إن الأشكال التي تنشأ من عمليات العمل الجماعية تميل إلى الثبات، ولا تقبل التغيير بسهولة؛ وما أنتجه السلف ألزم به الخلف.

لقد حاولنا من خلال دراسة هذا النمط من الإنتاج المعماري فهم خصوصيات السكن التقليدي في الجنوب التونسي عامةً، والفضاء الداخلي للسكن نفسه خاصةً؛ فمساكن قرى الواحة ومدنها التقليدية طاقة تشكيلية كامنة في معمار مكشوف/

قصر أولاد سلطان، تونس

الكابيتول الروماني، أطلال، تونس، دقة

متستر يكتنِه الواقع بكل تشابكاته وأبعاده؛ ليفرز المجال لغةَ سكنٍ، وطريقةَ عيشٍ؛ ويظهِر قدرة على التكيف مع المحيط، ونظرة للحياة التصقت بتضاريس الأرض، بتوافق الحاجات والمطالب الاجتماعية والوظيفية مع الوسط المحيط، وتواصلها الحميمي مع الموقع. وعليه، فقد أتاحت لنا دراسة تشكيلات هذه العمارة المحلية تبيين قدرة هذه المراكز الداخلية على إنتاج وتطوير فن معماري مخصوص؛ كما اتَّضح لنا أن العمارة التقليدية إنتاج معماري تلقائي مشروط، فهي تتم بوساطة الخبرات المحلية؛ ويُستخدَم فيها كل ما تنتجه الطبيعة من مواد، وفيها ابتكار لأسلوب التعامل مع البيئة وأقصى محاولاتٍ للاستفادة منها، واحترام البيئة المحيطة والتعامل مع عناصر الطبيعة بالتناغم والاندماج والمساهمة، وليس بالتصدي والتحدي والمقاومة. ويستدعي الفعل قدرات تصميمية أساسها الخبرات المتراكمة المتمثلة في الإرث المهاري والتقني. ويتشكل الفضاء تدريجياً من خلال تفاعل التجارب المتراكمة التي تختزل بعضها بعضاً بالتكامل والمواصلة. لعلّ سعينا المتواصل إلى صون هذا الإرث المعماري والحذق المهاري بالترميم «المشروط» لا يمنع من طرح بدائل لإعادة الهوية وإمكانية أن تكون العمارة المحلية حلاً لها لا عائقاً، منها:

1. ضرورة حفظ التراثين الحضاري والاجتماعي وصيانتهما، أو تأسيس نوع من التواصل والاستمرارية مع هذين التراثين.
2. من الواجب على أي بيئة عمرانية قيّمة أن تتجاوب مع المتطلبات الحضارية والاجتماعية لقاطنيها من عادات وتقاليد وقيم ومبادئ.
3. ضرورة الاهتمام بمواد البناء التقليدية التي استُخدمت في المباني التراثية، والتي لها أثر كبير في البيئة، إضافة إلى أهمية إبراز العناصر المعمارية والزخرفية في الواجهات التراثية بما يتناسب مع تقنيات البناء الحديث.

أنت متخصصة في شؤون «الهندسية الداخلية» فماذا تقصدين بها؟

يعرف التصميم الداخلي بأنه فن تخطيط وتصميم وتجميل المساحات التي من صنع الإنسان. أي إنه مجموع التخطيط والتصميم للفراغات الداخلية التي توفر حياةً ماديةً ونفسيةً متوازنة لمستهلكي الفضاء الداخلي. ويرتبط هذا المجال ارتباطاً وثيقاً بهندسة العمارة، وعلى الرغم من وجود اهتمام واضح بجماليات الأماكن وتصميمها على مرّ العصور؛ فإن مجال التصميم الداخلي ما زال حديث النشأة نسبياً، ومن الجدير بالذكر أنّه تم إطلاق اسم الديكور الداخلي عليه في القِدم والذي كان فضفاضاً وافتقر إلى التحديد، ممّا أدّى بالمتخصصين لاستخدام مصطلح أكثر دقة فأُطلق عليه اسم التصميم الداخلي والمعروف باسم الهندسة المعمارية الداخلية أيضاً. كذلك، يطلق عليه حديثاً بالتصميم الداخلي وتصميم الفضاء. رغم تعدّد التعاريف وتداخلها فإنها تجتمع في خانة واحدة الهدف منها تطبيق حلول إبداعية وتقنية داخل هيكل معين، لتحقيق بيئة داخلية مبنية، تكون فيها هذه الحلول عمليةً، وتعمل على تحسين جودة الحياة وراحة شاغليها، ومنح المكان شكلاً جميلاً وأنيقاً.

لديك كتاب بعنوان «تجاذبات المكان والذاكرة» وهو من إصدارات معهد الشارقة للتراث، فما أهم القضايا التي حازت اهتمامك في ثناياه؟

لعل العمل على مجمل العمارة التقليدية قد أثار اهتمامنا منذ سنوات، فكان أن بادَرْنا بدراسة ملامح السكن التقليدي في قبلّي القديمة في الجنوب التونسي عبر تقديمنا جُذاذة موضوع بحث للماجستير. والموضوع العام ها هنا فرَض نفسه باستحقاق من منطلق تخصُّصنا بالهندسة المعمارية الداخلية؛ فالنصيب الأكبر كان للفضاء السكني كأرضية عمل، وأهم المقاربات، التي استنتجناها على امتداد مرحلة العمل على الموضوع، تمثلت في أن ذلك البناء كان بمنزلة باكورة تجارب الأسلاف على تواترهم، وخبرات متوارثة، كما كان نتاجاً لممارسات في البناء والتشييد احتُفظ فيها بالأفضل؛ فكانت دروساً في البناء وفي طرائق الإنجاز. ربما يكون البحث المُكثف في طوايا مساكن (قبلي القديمة) باعتبارها مثالاً شاهداً على عمارة المسكن الواجِيّ التقليدي، هو ما دفعنا إلى مزيد من التعمق في دراسة هذا النمط التقليدي لقرى الواحة ومدنها في الجنوب التونسي مبنىً ومعنىً؛ فكان المؤلّف «تجاذبات المكان والذاكرة» قراءة واستقراء ـ بعين المصمّم الداخلي ـ لمجال معماري تقليدي متفرّد كانت سبباً في استخلاص الكيفيات التي نستطيع عبرها تكوين تصور شامل لفهم الفكر الذي نتج عنه ذلك السكن من أجل إقرار إمكانات أخرى في التعامل مع هذا التراث المعماري بدراسة عمارة الواحات التقليدية في الجنوب التونسي؛ على المستوى العام كظاهرة لعمارة عضوية، ولبلورة النظرية المؤسسة لهذا النمط من الإنشاء التلقائي، وعلى المستوى الخاص كمنطلق لمشروع (نظري/ تطبيقي) ضمن سياق تجديد لصورة عمارة الواحة «المستحدثة» بملامح عمارة الواحة الموروثة فكرياً وعملياً ■

كاتب مغربي

فاكهة البيان
الشاعر ربيّع بن ياقوت

مريم النقبي

في الثاني والعشرين من مايو من هذا العام، فقدت الساحة الأدبية علماً من شعرائها ممن منح الشعر والقصائد وممن أضفى على شعره ابتسامة القوافي وفاكهة البيان رحل الشاعر الكبير ربيّع بن ياقوت النعيمي، الذي وافته المنية بعد مسيرة طويلة مملوءة بالإبداع والإمتاع. ويعتبر الشاعر ربيّع بن ياقوت - رحمه الله - واحداً من أبرز رواد الشعر في الإمارات.

ولد شاعرنا - رحمه الله - في عجمان عام 1928، وبدأ تعليمه في الكتاتيب منذ سن مبكرة، لكنه لم يستمر طويلاً. وبحث عن عمل ليعيل نفسه، ثم سافر إلى الكويت في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي برفقة مجموعة من أصدقائه الشعراء، مثل: حمد خليفة بوشهاب، وراشد بن صفوان. وكان في بداية العشرينيات من عمره، وهي الفترة التي اكتشف فيها موهبته الشعرية.

انضم ربيّع بن ياقوت إلى أسرة برنامج «مجلس الشعراء» الذي أسسه حمد خليفة بوشهاب في تلفزيون دبي في أواخر الستينيات من القرن الماضي، مع مجموعة من شعراء الجيل الذهبي في تلك الفترة، أمثال: راشد الخضر، وسالم الجمري، ومحمد بن سوقات، وأحمد بن خليفة الهاملي، وعلي بن رحمة الشامسي، واستمر ربيّع عضواً في البرنامج رغم ظهور وجوه جديدة، ورحيل معظم شعراء ذلك الجيل الذهبي، وظل محافظاً على تألقه رغم تقدمه في السن، فشارك في برامج إذاعية كثيرة، وفي العديد من الأمسيات الشعرية.

ولشعر ربيّع نكهة خاصة، ففي شعره رقة في الألفاظ، وفكاهة وغزل، وحكم جميلة، ولا تزال الكثير من قصائده محفوظة في ذاكرة الناس، وتطلب منه في الأمسيات والبرامج الإذاعية، وقد طرح من خلال قصائده العديد من ظواهر المجتمع السلبية، كالزواج من أجنبيات، وغلاء المعيشة، والواسطة، والعادات الدخيلة، والغزو الفكري للشباب، كما ناقش الكثير من القضايا العربية في أشعاره. وهو بالإضافة إلى ذلك نظم قصائد في حب المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - وكذلك في القصائد الوطنية، وتغنى بهذه القصائد العديد من المطربين.

من قصائده:

بين الحدائق والنوافير

وما بين فِلٌ أو بخس وزور
صوت البلابل والعصافير
على نَغَمٌ شدوم لطيور
والرّاعبي تغريده ايثير
اشجان من في الحبّ مجبور
ربت الغضي سيد الغنادير
يختال بين الزهور ويدور
بطران بِتْبَخْتَر تبختير
وَلّد المها طايشْ ومغرور
ابكار عِرْبٍ تشبه الحور
ربّي وصورهن تصوير
يا بو خليفة جان بتثير
شاعرك ما به عوق دختور
بَرّق وخدّرني تخدير
وارفق عليّه مول ما ثور
مالّه علّيه حقٌ ميصير
وانا عنه يا شيخ مقصور
هذا الحكي ما هوب تهذير
عدنا الحكم شورى ودستور

وله كذلك:

مشتاق انا للبحر مشتاق للسيفه
مشتاق انا للبحر انظر عواصيفه
خليتنا يا بحر ما تذكر أحبابك
جرح الهوى في الحشا صعبه تكاليفه
جرح الهوى ما برى وجروحه مخيفه
نشوة عمر وانقضت نلعب على ترابك
نشوة عمر وانقضت وحلم وقضى طيفه
مشتاق انا للبحر مشتاق للسيفه

ومن قصائده الاجتماعية التي نالت شهرة واسعة «علموها الرقص والغنّا» التي يقول في مطلعها:

علموها الرقص والغنا
خرجوها البنت فنانه
دربوها كيف تتجنا
تلعب الجمباز شيطانه
وفروا لها العود والغنا
وهي مثل الأرض عطشانه
يوم هذا العلم هونا
اكره الله العلم واعوانه ■

شاعرة وباحثة إماراتية

القيظ ومواسم الفرح

خالد صالح ملكاوي

في موسم القيظ في الإمارات، كانت واحات العين وليوا والذيد، وغيرها من مناطق الاصطياف تتزين لاستقبال ضيوفها من أهل الساحل، تحملهم قوافل الإبل المحفوفة بالفرح، والمسكونة بأماني راكبيها الذين ينتظرهم لون جديد من ألوان الحياة، يرقبه مضيفوهم بشغف، ويحسب الجميع لانتهائه جلَّ الحساب. وكان للموسم استعدادات للارتحال إليه، وفيه تتقاطر العائلات التي كانت تحضر إلى الواحات المختلفة على ظهور الركائب. يرسم سالم بن علي بن فارس المزروعي لوحة لهذه الركائب المسحوبة بعضها ببعض بتتابع يتَّسق مع التواء الطريق، بينما الفراش الخاص بالحريم فوقها والمصبوغ بألوان مبهجة، تفوح منه رائحة الزعفران الثمين ذي اللون الشبيه بلون دم الذبائح وهو يسيل على الخدود:

احيد الهنْ فرايح
يوم الليال اسْعود
يوم الضَّعن مِتمايح
واهل الركاب اتقود
الفرشْ لِهنْ لوايح
خدمه عيم وهنود
والزعفران الفايح
لي يِنشرى بنقود
شروى دمِ الدبايح
نضحَه على لْخدود

ويصف أحد الشعراء دليلاً يعمل على نقل سكان الجزر إلى ليوا يوم يبدأ الموسم، لا يضلُّ الطريق أبداً، ويواصل مسيره في الظلام، يدوس التلال الرملية العالية والمنخفضة للوصول إلى ساحل البحر بعد العصر، فيقول فيه:

بدعي الهجن نكالي
يوم يحضر الوعد
دليلها ما عالي
سراها بالزهد
داساً رؤوس المعالي
وتوطن بالنكد
نبغي عقب مقيالي
نضوى ضافي اليعد

وفي قصيدة للشاعرة عفراء بنت سيف من أبوظبي مطلعها:

قيض اليزيرة هب على الكيف
عسى يشلنا عالي الشان

تسترجع ذكريات أيام الصيف، وتحكي كيف كان الناس ينعمون بالراحة في العين، حيث الهواء الجميل والثمار اليانعة الدانية القطوف، وتصف الموارد التي تمر بها القافلة مورداً مورداً، كما تصف استقبال الناس لهذه القوافل بالترحاب والتكريم، فتقول:

من يوم قرَّب موسم الصيف
عنا الغضي نوى جدى عمان
مِنْ بو حيايين معاطيف
أهو الذِّخر عنْ كل منْ كان
ليْ مِنْ خلج مِجْنَّنْ ما شيف
عُوده ابْغايات الصّبا زان
إنْ قَرّبوا حولٍ مناحيف
ليْ زاهياتْ ابْرقمْ لْبطان
برقومْ وبْيودٍ مراضيف
يلّلي زَهنْ به بين لَضعان
حُولٍ ولا ينَّكْ مَناجيف
ما ياهنْ الدَّلال بثْمان
يُوطنْ على روسْ المشاريف
والزَّين متْنومسْ أوْ طرْبان
إنْ روَحوبهْ مِنْ بدعْ سيف
قَصَّنْ عراجيب أوْ نجْيان

وتتابع وصفها:

لِيْ مثلْهم ما يلْحَقَهْ هيْف
لِمْقَيَّض في وسطْ حيْشان
سالم ركَضْ ابْغَيْر تصْريف
ايْخَرِفْ بجْس هوبْ عوَان
ما يا رطَبْهمْ في المِخاريف
في اسْفِفِهْ مع لُومي أوْ رمّان
وين الفَلَيْ سوَّى لَه أو حيْف
على العِوا ضِدْ شَبْ بسْتان
شَرجي المَنامة عُودٍ امْنيف
عودٍ رِجْزْفي سبعةْ افْنان

وإن هَـــبْ شَرتـــا الكُـوس لْمَريـــف
بَيَّبِـــبْ لـــه مـــن الجَـــتْ ريْحـــان

موسم للحفاوة والفرح

كانت الواحات تكتسي بثوب جديد من النشاط ونمط موسمي من الحياة والتواصل والنَّواد. ها هو خميس بن راشد بن زعل الرميثي يَسعد بالحضَّار الذين يقصدون مدينة العين للمقيظ، وينعتهم بهدايا القيظ من أهل الكرم والجود الذين يجاورونه من شتى المناطق، فيقول:

بانـــت علـــى عـينـــي روايـــــا
يلـي غفيـــت بغايـــة النـــــوم
القيـــظ يـــاب إلنـــا هدايـــــا
ياليـــت ذاك السعـــــد لـــي دوم
دخيلكـــم ياهْـــل الحمايـــــا
ياهْـــل الشـــرف لـي ينطـــرى دوم
ثيبـــوا عليّـــــه ياقْربايـــا
بازورهـــم لـــو فـي السنـــه يـوم
مـــا دامـــت اعْضامـــي قوايـــا
جسمـي بخيـر وعنـــدي اعْـــزوم

ويذكّر علي بن سلطان بن بخيت العميمي بموسم القيظ في قصيدة مطلعها:

لوّل زمـــان الصيـــف حضّـــار
ع اظْهـــورهيـنٍ تقطـــع الفـــيْ

ويصف بعض مظاهر الكرم، وأجواء السرور التي كانت تشهدها الواحات، فيقول:

راعـــي الكـــرم ماهـــوب فشّـــار
جـــاب العطـــر والعـــود صنفـــيْ
يشبـــه علـــى غـــزلان الأقفـــار
وقتـــه فرح مـــا كـــدّره شـــيْ
ليلـــة ضـــوى تزهيـــه الدار
والنـــاس لأجـــل ارْضـــاه تمشـــيْ
لـــه شيّـــدوْا عرشـــانٍ اكْبـــار
وللضيـــف بالترحيـــب يثْنـــيْ
مـــا حـــطّ خدّامـــه وبشكـــار
مـــا يفهمـــون البـــنّ لخْـــديْ
والبـــن مـــن يحـــرق علـى النـــار
ذوقـــه تغيّـــر لـــو بَيَصْفـــي

وفي ليوا التي اعتادت استقبال حضَّارها، يصف خميس بن حمد السماحي خيرات مقيظها فيقول:

فيهـــا سعيـــد الحـــظ يهنـأ ويرتـــاح
وصـــلاة ربـــي ع مناظـــر شجرهـــا
تلقـى العنـــب والخـــوخ فيهـــا وتفـــاح
وفيهـــا الأشجـــار اللي تنـــوّع ثمرهـــا
وفيهـــا مناطـــق زاهيـــة طيـب وافـــراح
يـا سعـــد مـــن زار الديـــار ونظرهـــا

وداع الموسم

ولكل موسم نهاية، وفي بعض أشعاره التي تصف موسم الحضارة ونخيل الذيد، يقول الماجدي بن ظاهر في وداع الموسم:

وجـــات الصفـــاري وزل المقيـــض
وبانـــت غبيشـه لواضـي اسهيـــل
وعـــاد البـــدو للمفالـــي تشـــوم
ودنـــو إلشوقـــي عبيـــن ثليـــل

ويصف أحمد بن عبيد المنصوري مغادرة البدو بعد انتهاء موسم القيظ إلى الأراضي البرية التي أتاها المطر في القيظ، فيقول:

القيـــظ قفـــى وأصبح سهيـــل لمـــاع
والبـــدو شـــدوا مبعديـــن النتوعـــي
شدوا جـــدا الصفـــار وحـدوده وســـاع
ربع نجيـــب ومـــن بعيـــد الفيوعـــي
راعـــي الغنـــم ماداس قفـــره ولا لاع
عليـــه من حقـــب القياظـــي ربوعـــي
مرتاع عـــرب فرعـــت عقـــب مربـــاع
وبعيـــد من دار الحضـــر والزروعـــي

أما علي بن محمد القصيلي فيتحدث عن العادات والتقاليد وطبيعة الحياة في محاضر ليوا، ويصف، بدقة، تلك الركائب التي تسير إلى المحاضر هناك، إذ يقول:

قربـــوا زُمْـــلِ الحِضـــاره
وانتـــووا كـــلٍ لـــداره
والدليلـــه يْلَحّظونـــه
مـــن يســـار ومـــن يميـــن
زيـــن عطنتهُـــم حوايـــا
بالمغابـــط والحنايـــا
فـــوق لـــي يزهـــي بدشنـــه
اشقـــرٍ سِـــلْكِ اليديـــن

روَّحـــوا عقـــــب الهجيـــره
والمعشَّـــا مـــن سفيـــره
والمحاضـــــر صبَّحوهـــا
مـــن شريقـــه مبرديـــن
عيَّنـــوا فـي الـدار هَلْهـا
هَـــلْ تراحيـــب وسَهْـــلا
جـــادلٍ غالـــي زبونـــه
فـــوق رِدْفَـــه عكفتيـــن
قيَّظـــوا وســـط الخيـــام
واكنـــزوا تمـــر الظمـــام
مـــن غـــروسٍ زرع اهلهـــم
فـــي ترايـــث لوَّليـــن
لـــي خِـــذوا تسعيـــن يـــوم
وابتـــدا نَـــوْ الغيـــوم
قربـــوا حيـــلٍ تِعَسَّـــفْ
يـــوم نـــووا راحليـــن
كلّفوهـــا بالحمـــول
مـــن خيـــار النـــوق حـــول
حملهـــا الدبَّـــاس لَصْفَـــر
فـــي جلـــوده مـــا يليـــن
إظْهِـــروا والجـــوهـــادي
لا ضِجيـــج ولا منـــادي
والمكايـــن مـــا اعْرفوهـــا
والعـــرب لمنوّعيـــن
صفَّـــروا بـــارض الريـــادي
والحـــلال ابطـــا رغـــادي
فـــي دعاثيـــر هواهـــا
يَنْعِـــشْ القلـــب الحزيـــن ■

إعلامي مقيم في الإمارات

المصادر والمراجع:

1. ديوان أحمد بن عبيد المنصوري، للشاعر أحمد بن عبيد بن جابر المنصوري، جمع وتحقيق وتنقيح وشرح: محمد بن يعروف المنصوري، أبوظبي، نادي تراث الإمارات، الطبعة الأولى، 2008م.
2. ديوان ابن بخيت، للشاعر علي بن سلطان بن بخيت العميمي، إعداد وتحقيق: راشد أحمد المزروعي، أبوظبي، بيت الشعر بنادي تراث الإمارات، 2011م.
3. ديوان ابن زعل، خميس بن راشد بن زعل الرميثي، أبوظبي، نادي تراث الإمارات، 2008م.
4. ديوان السماحي، للشاعر خميس بن حمد السماحي، إعداد وتحقيق: راشد أحمد المزروعي، أبوظبي، بيت الشعر بنادي تراث الإمارات، 2012م.
5. ديوان القصيلي، للشاعر علي بن محمد القصيلي، شرح وإعداد علي مصبح الكندي وآخرون، أبوظبي، لجنة الشعر الشعبي بنادي تراث الإمارات، الطبعة الأولى، 2004م.
6. ديوان الونة، من الشعر الشعبي في الظفرة إمارة أبوظبي، جمع وتحقيق وشرح: الكندي مصبح الكندي، العين، مؤسسة العين للإعلان والتوزيع والنشر، 1986م
7. لشعر النبطي في منطقة الخليج والجزيرة العربية، غسان حسن أحمد الحسن، أبوظبي، المجمع الثقافي، الطبعة الأولى، القسم الأول، القسم الثاني، 1990م.

الثقافة الدينية في شعر فتاة العرب

وديمة حمود الظاهري

اشتهرت عوشة بنت خليفة السويدي بلقب «فتاة العرب» تكريماً لمكانتها المرموقة في عالم الشعر النبطي وتأثيرها الكبير في الثقافة العربية، نشأت في بيئة غنية بالعلم والمعرفة، حيث كان والدها يحرص على استضافة كبار الشعراء والعلماء في منزله، ما أثر على تنمية مواهبها الشعرية منذ صغرها.

أبدعت عوشة في مختلف مجالات الشعر، من غزل ورثاء ونقد اجتماعي ومدح وإسلاميات، تاركة بصمة مميزة في تاريخ الشعر النبطي. تأثرت عوشة بشعراء كبار مثل الماجدي بن ظاهر والمتنبي، كما حظيت بتقدير كبار شعراء عصرها واحترامهم مثل المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - والشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم إمارة دبي، حفظه الله.

فالثقافة الدينية من الأساسيات التي تستقي منها الشاعرة صورها الشعرية، من ذلك:

عسى يا راجع موسى على أمه ويا من رد يونس في دياره
ويا مول على يعقوب يوسف وعز المصطفى يوم الهجاره
تولف شمل من قلبه تفرق تصفي عيشته عقب الكداره

فهذه الأبيات تستخدم فيها الشاعرة الدعاء بأن يؤلف الله بين من تشتت ويجمع شملهم (موسى وأمه ويوسف وعودته إلى أبيه يعقوب).

وأبيات أخرى تتردد فيها أسماء الأنبياء، لتظهر لنا رصيدها من الثقافة الدينية المحاطة بالمعاني الإنسانية، ومن تلك الصور قصة سيدنا نوح عليه السلام، فتقول:

وبقيت جسم بلا روح هل كيف يبخل في علاجي
كني غريج في بحر نوح لو في السفينة هوب ناجي

وفي قصائد أخرى تذكر الأماكن المقدسة (قبلة المسلمين) مكة المكرمة فهي رمز للإيمان والتقوى في الشعر العربي، وتجعلها من ضمن الدعاء لله، كمثل قصيدتها:

يا لله يللي للعباد معوني يا من يدبر حكمته في الكوني
يا من إلى عبده دعاه أجابه ينصف وبأمره كل صعب ايهوني
يا جابر العظم الكسير بلطفه وبعزته عز الضعيف الدوني
أدعوك بالكعبة وما ضم الحرم وبجاه من لبوا ومن يسعوني

ولا تنسى شاعرتنا شهر رمضان وتقديره، حيث تصوره في قصائدها باعتباره شهر الرحمة والمغفرة والعتق من النيران، فتقول:

شهر الرضا والصوم مجبل علينا والله يزودنا من الزاد تقواه
نديه طاعة في فرح ما بجينا بالعافية والعفو والشكر لله
نحيا على الملة وسنة نبينا ويدوم فينا الخير والأمن برضاه

وتخلص الشاعرة بقناعة ثابتة بأن خير الكتب هو كتاب الله تعالى، بما يحتويه بكل ما يفيد البشر، فتحمد الله على ما أنعم به علينا من رحمة وخير ونعم:

نحـمـد الله لي وهبنا ما وهـب نبتغي دينه وجنبنا الجحـود
وأنزل القرآن من خير الكتب فيه ما فرط بشي من الحدود ■

أكاديمية من الإمارات

المصادر والمراجع:

- عوشة بنت خليفة السويدي (الأعمال الكاملة والسيرة الذاتية)، توثيق وتأليف د. رفيعة غباش، متحف المرأة، ط 2، 2021م.
- موقع عوشة بنت خليفة السويدي الرسمي، https://www.ousha.ae/index.html

خروفة العنود وتحدي الشيخ حمد

فاطمة حمد المزروعي
كاتبة وباحثة من الإمارات

كان هناك رجل فقير يعيش في الصحراء مع بناته السبع، وأصغرهن العنود. اقترحت العنود على والدها الانتقال إلى المدينة قرب البحر للبحث عن رزق. وافق الأب، وانتقلوا إلى المدينة. كانت العنود ذكية ومنظمة، فقامت بتوزيع الأعمال بين أخواتها بينما ترعى الغنم، مما حسّن أوضاعهم المالية وفتح الأب دكاناً وبنوا بيتاً من الطين. سأل شيخ القبيلة، حمد، عن العائلة، وأخبره الناس أن العنود كانت وراء تحسّن أوضاعهم. أرسل الشيخ طلباً إلى العنود لتخيط له «كندورة»، ردّت العنود بأنها تحتاج معرفة مقاساته. أعجب الشيخ بردها وأرسل خادمه لطلب يدها للزواج. وافقت العنود على الزواج من الخادم، رغم استغراب والدها ورفض أخواتها. وتزوجت العنود الخادم ولم تظهر للعائلة لمدة شهر. عاد الخادم إلى الشيخ حمد بعد شهر، وهو يلهث ويرفض العودة إلى بيت العنود. ظن الشيخ أنه كان سعيداً، فسأله عن سبب غيابه. قال الخادم: «في النهار حبة حبة، وفي الليل بين يديه». ثم أوضح الخادم أن العنود عذّبته بطحن الحب طوال النهار وربطه على عمود البيت في الليل، فطلقها وعاد.

تحدت العنود الشيخ حمد بالزواج بشرط أن يهجرها وتبقى في بيت أبيها، ووعدت أنها ستنجب ولداً يجعله يطحن الحب، وأن يولد حصانه من مهرتها ويركبه ابنها. بعد ذلك، خططت العنود للهروب عندما علمت بأن الشيخ حمد سيسافر، وتعاونت مع العجوز أم هيلانة لتزويج الشيخ حمد منها. تزوج الشيخ حمد العنود وقضى معها أسبوعاً دون أن يعرف هويتها الحقيقية. هربت العنود مع أم هيلانة، ولم يتمكن الشيخ من العثور عليها. وعاد الشيخ غاضباً ونقل العنود وأهلها إلى الإسطبل، الذي حولته إلى قصر. ودعت العنود الشيخ على الغداء لكنها لم تظهر، فخرج قائلاً، سنرى كيف ستحقق تحديها. بعد شهر، ظهرت أعراض الحمل على العنود وعلى الفرس. وولدت العنود ولداً سمته «فارس»، وأعطت ولدها لأختها لتربيه حتى لا ينكشف السر وتخسر التحدي. وصلت شائعات إلى الشيخ حمد بأن العنود أنجبت ولداً، فأرسل أخواته للتأكد. رحبت العنود بأخواته وطبخت لهن وأحضرت البخور والعطور. وتأكدت الأخوات أن العنود لم تحمل ولم تلد لأنها كانت تتحرك بنشاط وتخدم في بيتها. اقتنع الشيخ حمد بكلام أخواته.

كبر فارس وأصبح في الثانية عشرة من عمره، تميز بالذكاء والشجاعة. أخبرته والدته العنود بقصتها مع والده الشيخ حمد وتحديها له. طمأنها فارس بأنه سيحقق أمنيتها. بدأ يعمل عند والده في القبيلة ليجمع أخباره، وعلم أنه سيسافر. في القبيلة الأخرى، سرق فارس سلاح الحرس ومؤونة الحصن، وفشلت محاولات القبض عليه. قرر الشيخ حمد بنفسه حراسة السلاح للقبض على السارق. علم فارس بالخطة وتنكر في شكل عجوز تطحن الحب بالرحى في السوق حتى حلول الليل.

مرّ الشيخ حمد على العجوز التي تطحن (وكان فارس متنكراً)، وسألها عن السارق. أخبرته أنها تراه كل ليلة وادعت أنه ذهب نحو البحر. عندما طلب منها الشيخ أن تستدرج السارق، رفضت لأنها لا تستطيع ترك الرحى. تعهد الشيخ حمد بطحن الرحى بدلاً عنها. وهرب فارس، تاركاً والده يطحن الحب حتى الصباح. أعلن الشيخ حمد في مجلس القبيلة أنه خُدع. وعرض فارس القبض على السارق بشرط عدم معاقبته، فوافقوا على ذلك. فارس دخل مجلس الشيخ حمد بثقة، مرتدياً أفضل ثيابه، ووضع المسروقات أمامهم معترفاً بفعلته، قائلاً إنه أراد اختبار من يستطيع القبض عليه. أدرك الشيخ حمد أن فارس هو ابنه من العنود، لكنه لم يكشف الحقيقة في المجلس. وعاد إلى بلاده، والتقى بالعنود ليقر بتحقيقها للتحدي، فحكت ونادت ابنها فارس ليسلم على والده ■

هيئـــــة أبوظبـــــي للتـــــراث
Abu Dhabi Heritage Authority

إعلان طباعة كتب

وَضَعت هيئة أبوظبي للتراث خُطَّةً لرفد المشهد الثقافي الإماراتي بإصدارات متنوعة تَخُصُّ تراث الإمارات وتاريخها؛ قَصْدَ إغناءِ المكتبة التراثية الإماراتية، وفَتْحِ منافذَ معرفيةٍ جديدةٍ أمام الباحثين، وتدعوهم إلى طباعة كتبهم وتسهيل نشرها، ليشارك بها في المعارض والفعاليات الثقافية. ويُقدِّمُ لمؤلِّف الكتاب مكافأةً مالية تتراوح بين (10000 - 15000 درهم إماراتي).

شروط النشر:

- أن يَتّصف موضوع الكتاب بالجِدّة، والموضوعية، وشمول المعالجة، والفائدة المعرفية.
- ألا يكون الكتاب منشوراً سابقاً، أو مُقدَّماً للنشر في جهة أخرى.
- أن تكون لغةُ الكتابِ العربيّةَ الفصيحة المُصحَّحة لغوياً.
- ألا يكون الكتاب مترجَماً.
- أن يلتزم الكتاب بالمنهجية العلمية في التأليف، والأمانة العلمية، والنهْل من المصادر الأصيلة، وتدوين الهوامش أسفلَ كلِّ صفحة.
- أن تُدوَّن المصادر والمراجع في نهاية كل كتاب.
- أن يُرسَل الكتاب بصيغة الوورد، مرفَقاً بملخَّص من نحوِ مئتي كلمة باللغة العربية، وبنبذة مختصرة عن سيرة المؤلِّف العلمية.
- أن يكون عدد كلمات الكتاب بين 30 و70 ألف كلمة.
- تَتَولّى هيئة تحكيم مختصة مراجعةَ الكتاب وتقييمَه وإصدارَ قرار نهائي بشأن طباعته خلال شهرين من تاريخ إرساله. وفي حال الموافقة، يلتزم الكاتبُ بإجراء التعديلات المقترحة.
- مدة العقد خمس سنوات.
- تُرسَل الكتب بصيغتَي Word وPDF إلى الإيميل التالي: torathbook@ehcl.ae

هيئـــــة أبوظبـــــي للتـــــراث
Abu Dhabi Heritage Authority

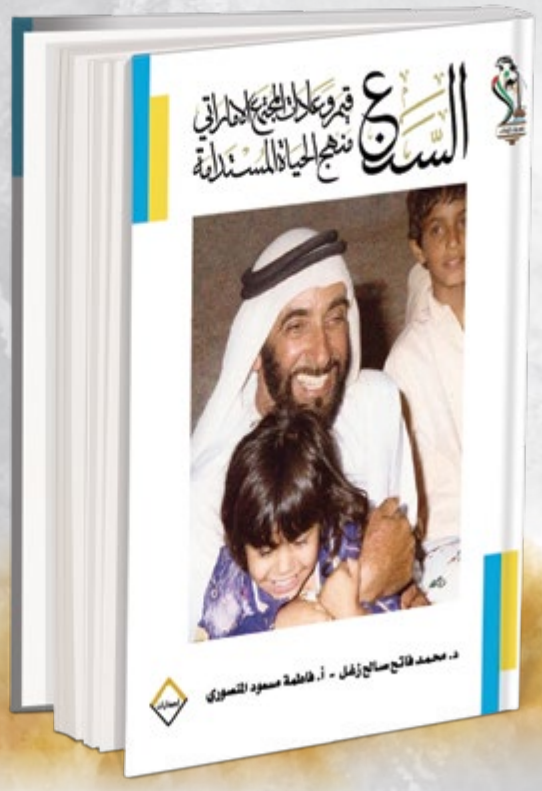

السنع
قيم وعادات المجتمع الاماراتي
منهج الحياة المستدامة

كتاب «السَّنع: قِيَم وعادات المجتمع الإماراتي منهج الحياة المستدامة» ينطلق من مقولة المغفور له الشيخ زايد - طيّب الله ثراه - بأنّ «الثروة الحقيقية للأمة هي في رجالها»، وكذلك من مقولة الشيخ محمد بن زايد، رئيس الدولة - حفظه الله: «القِيَم والعادات والأخلاق والتفاني موجودة في كل مواطن وبيت وعائلة». ويُشكِّل هذا الكتابُ مساهمةً رائدة لنادي تراث الإمارات ومركز زايد للدراسات والبحوث في مقاربة السَّنع الإماراتي بوصفه منهجَ حياةٍ إماراتيّةٍ مستدامة. ويأتي الكتاب في مقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة. يتناول الباب الأول بفصلَيْه مفهومَ التراث الشعبي؛ أدباً وألغازاً وأهازيجَ ومأثوراتٍ وفنوناً وعاداتٍ وتقاليدَ ومعتقداتٍ ومعارفَ شعبيةً. كما يقف على التراث بوصفه هويّةً ثقافيةً للأجيال، مُذكِّراً بالموقف الرسمي للدولة ومؤسساتها وموقف الشعب الإماراتي من التراث. ويتطرق الباب الثاني بفصوله الثلاثة إلى أهميّة السَّنع الإماراتي في بناء شخصية الإنسان الإماراتي، وإلى قواعد السنع في الكلام والسلوك؛ فهي جميعاً تَدعو إلى الرجولة وما يرتبط بها من مفاهيم جوهرية كالاحترام والإخلاص وغيرهما، وما لذلك كلِّه من آثار إيجابية على الفرد والأسرة والمجتمع قاطبةً. ويقف عند الشعر الشعبي وفارسه الشيخ زايد، وكذلك عند شعراء الحكمة الإماراتيين. ويُخصَّصُ البابُ الثالث للحديث عن القوة الناعمة الإماراتية بوصفها من منجزات السَّنع - التاريخ والأصالة وآفاق المستقبل، والدعوة إلى التسامح ووثيقة الأخوّة الإنسانيّة وغيرها.